محمد الشاويش

نهضات مجهضة

جدل الهوية والفاعلية



محمد الشاويش

من مواليد دمشق ١٩٦١.

مقيم في ألمانية.

شهادة في الهندسة الكهربائية.

إجازة في الشريعة وأصول الدين.

دراسة اللغات السامية والأدب العربي في جامعة برلين FU.

له:

- حول الحب والاستلاب: دراسات في التحليل النفسي للشخصية المستلبة.
- نحو ثقافة تأصيلية.
- مالك بن نبي والوضع الراهن.
- المنهج المقاصدي عند الدكتور يوسف القرضاوي.

ونشر عدداً كبيراً من المقالات في صحف متنوعة تناولت بصورة أساسية محاولة قراءة تحليلية نقدية لتاريخ الثقافة العربية المعاصرة وخاصة مسألة الهوية والاستلاب الثقافي.

ABORTED REVIVALS

THE DIALECTIC OF IDENTITY AND EFFICIENCY

Nahḍāt Mujhaḍah
Jadal al-Huwīyah wa-al-Fā‘ilīyah
Muḥammad al-Shāwish

ما تزال أمتنا تقدم رجالاً يقومون بنهضات إصلاحية، وما كل نهضة تنجح.. وإذا نجحت أولاً فإنها قد تصاب بعثرات تقضي عليها!
لماذا قامت في بدايات القرن العشرين تلك النهضات التي أُجهضت؟
ما العوامل التي أجهضتها سواء في الشرق أو في الغرب!
هل يمكن أن نستفيد نحن من تجاربها من أجل المستقبل؟
خصوصاً وأن التاريخ يحمل دروساً ثمينة تخدم رجال الإصلاح..
وإذا كانت تلك الدروس مفيدة.. فهل استفدنا منها؟
إن أمتنا تعرضت لعداوة الغرب قديماً.. وما تزال تتعرض، وما تزال توجَّه لها سهام الكيد وسيوف العدوان..
وما تزال تقدِّم الضحايا تلو الضحايا، وتدفع الثمن غالياً..
فإلى متى سيظل ذلك كذلك؟

هذا الكتاب عرض لجهود رجال الإصلاح وتصوير لمشروعاتهم النهضوية وأعمالهم المخلصة.. من أمثال عمر مكرم، وعبد الكريم الخطابي وعبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا.. خلص من ورائها المؤلف إلى تحليل أوصله إلى نتائج هامة، تفيد في الواقع الراهن.

ISBN 1-59239-375-6



بسم الله الرحمن الرحيم

نهضات مجهضة

جدل الهوية والفاعلية

نهضات بجهضة : جدل الهوية والفاعلية / محمد
الشاويش .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ٢١٦
ص ؛ ٢٥ سم.

١- ٩٢٠,٧١ ش ا و ن   ٢- ٣٠٣,٤ش ا و ن
٣- العنوان   ٤- الشاويش
مكتبة الأسد

محمد الشاويش

نهضات مجهضة

جدل الهوية والفاعلية





٢٠٠٨
دمشق
حاضنة اللغة العربية

دار الفكر - دمشق - برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
Http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

نهضات مجهضة

جدل الهوية والفاعلية

محمد الشاويش

الرقم الاصطلاحي: ٢٠٩٣,٠١١
الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-37-5
التصنيف الموضوعي: ٣٠٣ (العمليات الاجتماعية)
٢١٦ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى : ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

المحتوى

الإهداء

أهدي كتابي هذا

إلى روح شقيقي المربي

الأستاذ حسن شاويش

رحمه الله

مقدمة

خمس محطات و ست شخصيات في التاريخ العربي المعاصر

قراءة تاريخية مقارنة

المقالات الأربع الأولى في هذا الكتاب الصغير تتضمن قراءة في سيرة حياة خمس شخصيات من التاريخ الحديث، وهي شخصيات مهمة، اخترتها ليس لأهميتها السياسية العامة التي يتطرق إليها الباحثون عادة، بل لأهميتها في المبحث الذي يشكل مركز اهتمامي في كل ما أكتب منذ سنين عديدة، ألا وهو مبحث العلاقة بين الكفاح في سبيل الحفاظ على الهوية الثقافية المميزة، والكفاح في سبيل فعالية حضارية قادرة على جعل هذه الهوية المميزة قابلة للبقاء، وبالذات، وفقاً لتعبير مالك بن نبي المفضل "غير قابلة للاستعمار".

والمقالات الأربع هي عن أربع محطات في هذا التاريخ الذي سيلاحظ القارئ أنه بالفعل "يعيد نفسه":

المحطة الأولى: هي محطة (ما قبل الغزو الأوروبي)، ثم بداياته، وسأتكلم فيها على (عمر مكرم)، والشيء المهم عنده أنه في كفاحه مع أنصاره قدّم (بدايات الفاعلية الجماعية).

المحطة الثانية: هي محطة الاحتلال الأجنبي في عصر الخديويين إسماعيل وتوفيق، والشخصية فائقة الأهمية هنا هي شخصية (عبد الله النديم)، وهي شخصية فريدة من نوعها في نظري؛ لأنها تشكل أول نموذج معروف للمثقف التأصيلي الفاعل كما أسميه. وهو المثقف الذي يمتلك خاصية العلاقة العضوية العميقة مع ثقافة شعبه، ولكنه في الوقت نفسه يحرك هذا الشعب - لأنه ينطق بلغته - نحو التغيير الحضاري المنشود.

المحطة الثالثة: ظهرت فيها شخصيتا (مصطفى كامل) و(محمد فريد)، وهما تمثلان محطة النضال ضد الاحتلال، مع المواجهة الواضحة، ربما لأول مرة، لمشكلة العلاقة بين المستوى السياسي والمستويات الأخرى في المجتمع، ولتعقّد العلاقة بين السلطة الاستعمارية والقوى السياسية الداخلية.

المحطة الرابعة: ومثلتها شخصية (حسن البنا)، وهي تقدّم في نظري حالة انحراف حركة اجتماعية نهضوية مبشرة إلى حركة تآمرية نخبوية، مصابة بهذا المرض المزمن الذي يعرقل النهضة عندنا؛ وهو مرض "فرط التسيّس".

وباقتراح من دار الفكر المحترمة رأيت أن أضيف محطة خامسة من تاريخنا العربي- الإسلامي في منطقة المغرب الأقصى، وهي محطة المجاهد والنهضوي الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي. وما هو متميز في تجربته كان دمجه بين هدفين هما مقاومة الاستعمار ونهضة العلاقات الاجتماعية الداخلية، فقد كان أستاذاً كبيراً ملهماً في العملين معاً: كان أستاذاً استراتيجياً في الفن العسكري، شهد له خصومه من فرنسيين وإسبان، وكان أستاذاً في فن النهوض بما سيسميه مالك بن نبي لاحقاً (شبكة العلاقات الاجتماعية)، فكأنه كان تطبيقاً خلاقاً لهذه الحدوس النظرية لجاره الجزائري الذي سيأتي بعده بجيل واحد.

وفي هذا الكتاب كما في كتبي الأخرى أتوجه لفاعل عربي نهضوي جديد أرجو من كتبي أن تكون مساهمة متواضعة في الحوار معه بلغة التاريخ، لكي يستفيد منها في مسعاه لإخراج أمتنا من أسوأ حقبة شهدتها في كل تاريخها، ووضعها على طريق استعادة دورها الحضاري التاريخي، ولا أقصد بحال من الأحوال تقديم مادة أكاديمية محايدة لا تعني إلا المتخصصين. وبهذه الروح أتمنى أن يقرأ كتابي هذا ككتبي الأخرى.

١

عمر مكرم
إرهاصات التحول إلى الفاعلية الجماعية

عمر مكرم شخصية لم تشتهر عند عامتنا، بل أظنها لم تشتهر عند مثقفينا، وإن كانت معروفة مشهورة عند المهتمين بالتاريخ الإسلامي والعربي الحديث؛ إذ كان من الشخصيات التي يشار إليها بالبنان في مصر قبيل الحملة الفرنسية وفي أثنائها، ثم في عصر محمد علي، وكان من الشخصيات التي يقولون عنها: إنها تصنع التاريخ، وعبارة: (يصنع التاريخ) تتضمن في جملة معانيها معنى (يصنع الدول) وإن كانت تزيد عن هذا المعنى كثيراً، بقدر ما يتضمن مفهوم (التاريخ) من مكونات تزيد عن مفهوم (الدولة).

وحين أراد ابن خلدون أن يكتب مقدمة كتابه في التاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) فإنه عد نفسه مؤسساً لعلم جديد هو "علم العمران"، وعد علم التاريخ مستنداً إليه، إذ التاريخ حقيقته "أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها،

وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال".

عمر مكرم كان من صناع أساس التاريخ الذي هو (العمران)، وبالذات من صناع تلك المؤسسة الجوهرية في الاجتماع الإنساني، ألا وهي (الدولة)، ولكنه فيما أزعم لم يساهم في صناعة (دولة) بالمعنى المألوف المحدود فقط (هو ساهم في صناعة الدولة المصرية الحديثة عبر مساهمته الحاسمة في صناعة دولة محمد علي) بل ساهم في وضع أساس لدولة من نوع جديد تقوم في ديار الإسلام، وتكون عودة خلاقة إلى الدولة الأولى التي كانت دولة من المسلمين الأحرار، وليس من المستعبدين. لقد كانت أعمال عمر مكرم من الإرهاصات الأولى لمكون جوهري من مكونات النهضة الضرورية؛ ألا وهو مكون الجماعة الفاعلة الحرة، على نقيض ما كان عليه الوضع حتى عهده، وهو عبودية الجماعة وقطيعتها تجاه السلطة.

حين نتكلم على دور الدين في تحويل العامة من كم متفرق من الذرات عشوائية الحركة، لا هدف لها ولا إرادة ولا هوية جماعية توحدها - إلى كيان واحد يحركه هدف واحد، ونظرة واحدة إلى مهمته في الحياة (في هذه النقطة يتفق مالك بن نبي - الذي يرى أن الدين هو الشرارة التي توحد عناصر الحضارة الأولية، وهو الذي يدفع إنسان ما قبل الحضارة، دفعته الأولى الجبارة لبناء الحضارة مع ابن خلدون الذي يرى أن الدعوة الدينية هي المكون الذي يحول العصبية إلى دولة) - فإننا في الحقيقة نتكلم على عامل جوهري من عوامل النهضة؛ ألا وهو عامل الجماعة الموحدة الواعية الفاعلة.

(الفاعلة): تعني أنها لا تتوحد نظرياً بعقيدة عامة تجمعها لفظياً فقط، شأن المسلمين في عصرنا في الغالب من حالاتهم، بل تعني الجماعة

المتحركة التي يشعر فيها كل فرد أنه مسؤول عن مصير الجماعة، ومسؤول عن تحقيق هدفها، وتحويل رؤيتها للحياة إلى واقع.

وهذا ما لم يكن عليه الحال في مصر في أواخر العهد العثماني، فقد تحولت العامة إلى كم مهمل من الأفراد تتقاذفهم أرجل الظلمة؛ من العناصر المتحكمة بلا رادع من شرع أو قانون - ككرات جامدة لا إرادة لها، ولا قدرة على الدفاع عن الذات.

لقد فقدت الجماعة المسلمة العزة في عقر دارها، والله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨]، أين ذلك الأعرابي ربعي بن عامر الذي بعثه الإسلام بعثاً جديداً فاخترق برمحه وثيابه المهلهلة بساط الأمير المغرور رستم في القادسية، ودعاه ودعا قومه للخروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

من هذا الفرد الخائف الذليل الذي استحال إليه المسلم "بعد عهد الموحدين" بتسمية مالك بن نبي؟

ويتذكر المرء - حين يرى حالة كهذه - نظرية ابن خلدون في اضمحلال العصبية وانكسار الشوكة الذي يصيب أهل الأمصار الذين لا يقوون على المحاماة عن أنفسهم، ويتولى المحاماة بالنيابة عنهم أهل السلطة والتحكم، الذين غالباً ما يأتون من عصبية خارجية قامت بتأسيس دولة لها، دورة حياة وصفها ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

ويقصد ابن خلدون - غالباً - بمصطلح (العصبية) في مقدمته: "الالتحام بالنسب أو ما في معناه"، وبالذات ذلك الالتحام الذي يقود إلى التناصر والاتحاد و"النعرة على ذي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم"، ولكنه يعمم نظريته ليقول: إن العصبية تقوى بالدعوة الدينية، بل "العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية"، فلا بد للجماعة الفاعلة سياسياً من عنصرين: (العصبية) و(الدعوة الدينية).

ولعل الدول حتى عهد ابن خلدون، بل حتى بعد عهده وإلى العصر الحديث، كانت تتبع هذا المخطط، فلم تقم دولة وطيدة الأركان في بلادنا بلا عصبية تسندها، وإن ذكرنا مصر بالذات فسنذكر أن الدولة فيها ربما كانت تستند إلى عصبية فريدة من نوعها في التاريخ، وهي عصبية المماليك أي: الأرقاء أصلاً!

كان المماليك في الأصل قوة مؤلفة من أرقاء يجلبون من بلاد القوقاز وآسية الصغرى، وينتظمون في تدريب عسكري منذ طفولتهم، بحيث يكون منهم الجيش والأمراء، ولم يكن حكامهم غالباً من أسر متوارثة؛ بل كان المماليك يجددون صفوفهم دوماً بأجيال جديدة من الأرقاء المجلوبين؛ إذ كانوا من ذوي النسل القليل المنقطع.

كان هؤلاء إذن قوة منفصلة عن المجتمع في كل شيء، ولم يكن للعامة حيالهم من خيار إلا أن يطيعوهم ويقبلوا تسلطهم ضمن حدود عامة.ولكن العامة لم يخلوا من قوى تنظمهم، فقد انتظم الحرفيون والتجار في المدن في طوائف حرفية يقودها شيخ الكار، على أن الزعماء الأهم للعامة كانوا هم العلماء.

وفي الوقائع التي سنراها في هذا المقال تغير حال العامة من كم مهمل متفرق، لا رأي له ولا فعل، إلى كلٍّ فاعل له قيادة مستقلة، استطاعت أن تغير من نظام الحكم في مصر، وتمهد السبيل لنظام جديد هو نظام محمد علي.

ولكننا سنرى أن محمد علي استطاع أن يخترق هذا الإنجاز العظيم - الذي هو فرض مبدأ مشاركة العلماء في القرار والحكم، وهو مبدأ أصيل سار عليه الخلفاء الراشدون الذين قال أولهم: "أطيعوني ما أقمت كتاب الله فيكم، فإن اعوججت فقوموني"! - مستعيناً بالعيوب الشخصية للعلماء، وفقدانهم لخصلة الزهد في الدنيا، وقلة وعيهم بدورهم

التاريخي، وانعدام شعورهم بالمسؤولية عن المجتمع، مما جعل عمر مكرم يقف في النهاية وحيداً في مواجهة الطغيان.

ومن الشائق للباحث أن يقارن هذه التجربة مع تجربة جارة، هي تجربة الدعوة التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وسارت على مبدأ الوحدة اللصيقة بين السلطة السياسية والعلماء، ولم تنفصم هذه الوحدة كما حصل في التجربة المصرية، بل صيغت الدولة السعودية الحديثة وفقاً للاتفاق الأصلي بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود رحمهما الله.

أريد لهذا المقال إذن أن يشير إلى بعض النقاط الجوهرية في هذا المكون من مكونات النهضة؛ وهو نشوء جماعة فاعلة واثقة بنفسها، لها هدف وغاية وقدرة على الفعل وإرادة للفعل، عبر الترجمة لحياة وأعمال هذا الرائد الكبير.

وقد اعتمدت في المعلومات التاريخية على الكتب التالية:

١- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر - الجزء الأول - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م -الطبعة الرابعة.

٢- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر - الجزء االثاني - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م -الطبعة الثالثة.

٣- عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٣٧٠هـ-١٩٥١م -الطبعة الثالثة.

٤- دكتور عبد العزيز محمد الشناوي: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- يوليه ١٩٦٧- القاهرة.

مصر في عصر مكرم

احتلَّ العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ م، مُنهين بهذا وضعها دولةً مستقلةً محكومةً من المماليك.

وفي البداية أنشأ العثمانيون نظاماً للحكم يتكون من قوى متعددة متوازنة تتألف من: الوالي، وهو نائب السلطان في مصر، ومن ديوان يتألف من قواد الجيش العثماني، ومن الأمراء المماليك الذين لم يقض العثمانيون عليهم، بل أبقوهم تحت سيطرتهم ليقوموا بوظائف عسكرية وإدارية، وكبير القضاة، وكبار العلماء، والدفتردار، وهو رئيس ديوان المالية، وكان يرأس الديوان نائب الوالي.

كان المقصود من هذا النظام إيجاد توازن في القوى؛ فلا تقوى قوة واحدة على الاستقلال بهذه الولاية الكبيرة عن الدولة المركزية، ولكن ما جرى هو أن المماليك سرعان ما عادوا وامتلكوا القوة الرئيسة في القطر حالما ضعفت الدولة، اعتباراً من النصف الثاني للقرن الثامن عشر الميلادي؛ إذ أصبح المماليك يولون الولاة ويعزلونهم على هواهم، ولكنهم كانوا يحصلون دوماً على مرسوم من السلطان بتعيين الوالي الجديد.

ولعل هذه المرحلة هي واحدة من أسوأ المراحل التي مرت على مصر في تاريخها؛ إذ تحولت البلد إلى ساحة للحرب بين أمراء المماليك المتنافسين، وساد الظلم والجور، وانحدر الوضع الاقتصادي إلى أسوأ درجاته، واستحالت سيطرة الدولة المركزية إلى أن أصبحت سيطرة شكلية، كل ما فيها إرسال مبلغ مالي سنوي إلى السلطان، وإرسال أموال مخصصة للحرمين الشريفين، وهذه الأموال كانت تقطع في بعض الأحيان.

ظهرت في الشام ومصر طلائع الحركات الاستقلالية عن الدولة العثمانية قبل ذلك العصر، وتجلت في ولاة وأمراء وزعماء طموحين في

الشام ومصر، من أمثال فخر الدين المعني في لبنان، والشيخ ظاهر العمر في فلسطين، وعلي بك الكبير في مصر، والتحالف بين الأخيرين كاد أن يشكل خطراً محققاً على الدولة المركزية، حين تمكن الأمير المملوكي علي بك مدعوماً بمساعدات عسكرية روسية (كانت روسية آنذاك في حرب مع الدولة العثمانية) ومتحالفاً مع ظاهر العمر، من الاستيلاء على دمشق وفلسطين، وكاد يستولي على ما تبقى من بلاد الشام، لولا أن الدولة العثمانية اشترت واحداً من رجاله وهو محمد أبو الذهب، وهكذا انتهت حركة علي بك، وتولى أبو الذهب منصبه، متحولاً إلى الشخصية الأقوى في مصر، مع وجود وال عثماني ضعيف لا صلاحيات له، ومات أبو الذهب بعد مدة قصيرة، تاركاً مصر تحت رحمة أميرين مملوكيين ذاقت الأمرّين من بغيهما وصراعاتهما التي لا تنتهي، وهذان الأميران هما إبراهيم ومراد، وقدر لمصر أن تواجه الحملة الفرنسية وهي تحت هذه القيادة المنقسمة، غير الكفيّة وغير المسؤولة، والتي لا تعرف معنى لغير مصالحها الأنانية ولذائذها المنحطة. لقد كانت هذه هي نقطة الانحدار العظمى التي وصلت إليها الدولة الإسلامية، وكانت مصر والعالم الإسلامي كله معها على تخوم عهد جديد؛ هو عهد الاستعمار (كان هذا العهد قد بدأ بالفعل في مناطق أخرى على أطراف العالم الإسلامي، متمثلاً في احتلال إسبانية لبعض المدن الساحلية المغربية، واحتلال بريطانية وهولندة وفرنسة والبرتغال لبلاد إسلامية في شرق آسية).

ظهور دور عمر مكرم:

ولد عمر مكرم نحو عام١٧٥٠م، (التاريخ تقريبي إذ لم يكن يُهتم بتاريخ الميلاد في بلادنا آنذاك) وكانت ولادته في مدينة أسيوط لأسرة تنتسب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ومن هنا جاء لقب (السيد) الذي

يسبق اسمه غالباً في المراجع. وقد تلقى عمر العلم على علماء عصره، ودرس في الأزهر، وإن كان على علمه واطلاعه الواسعين، وهو ما تشهد به مكتبته الكبيرة، لم يشتغل في التدريس أو التأليف، وإنما عمل في الشؤون العامة، واعتاش من عمله ناظراً للأوقاف. وابتدأت حياة عمر مكرم السياسية - كما تذكر المصادر -بوساطة قام بها بين أميرين مملوكيين متمردين في الصعيد هما إبراهيم ومراد، وبين والي القاهرة وبقية المتنفذين فيها، وقد نجحت الوساطة، وعاد الأميران إلى القاهرة ليتحولا إلى أقوى قوة فيها، وليقوما بتعيين عمر مكرم حين توفي نقيبُ الأشراف مكانه، وبهذا أصبح عمر عضواً في الديوان الذي ذكرناه سابقاً، وتحول بفضل مواهبه ومبدئيته ونزاهته المعروفة مجتمعةً إلى شخصية عامة فاعلة قوية النفوذ، ومصدر نفوذه الأساسي كان محبة جماهير العامة له.

وقد تجلى هذا النفوذ في ثورة العامة عام ١٧٩٥ على جور المماليك. والسبب المباشر لهذه الثورة كان فرض ضرائب تعسفية على إحدى القرى في الشرقية، فقام أحد أكبر مشايخ الأزهر وهو عبد الله الشرقاوي، وكانت له في هذه القرية أرض، بجمع المشايخ وإغلاق أبواب الجامع الأزهر والمناداة بإغلاق الدكاكين، وكانت هذه هي الشرارة التي أضرمت النار، إذ كانت النفوس تغلي بسبب ما كان يرتكبه المماليك من مظالم وتعديات يومية على الناس، فاحتشدت العامة، وركب المشايخ في طليعهم، فقابلهم مندوب عن الأمير إبراهيم، وسألهم عمّا يريدون، فقالوا كما يذكر الجبرتي في تاريخه: "نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها"، فقال: "لا يمكن الإجابة إلى هذا كله، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات"، فقيل له: "هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك؟ والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ".

ونلاحظ في هذه المطالب أن العامة سلمت قيادتها إلى العلماء بصورة طبيعية، علماً أنه كانت هناك - كما رأينا - في الدولة العثمانية أشكال تنظيمية لممارسي الحرف وأنواع التجارة، فلكل حرفة نقابة لها (شيخ كار)، على أن العامة كانت في الملمات تتجمع تحت قيادة العلماء، وفي القاهرة كان المركز الأساسي لهؤلاء هو الأزهر كما هو معلوم.

وحين تلكأ الأمراء المماليك في الاستجابة لهذه المطالب ازداد هياج العامة، وتقاطروا على القاهرة من الضواحي والقرى المجاورة لها، مما جعل الأمراء يحنون رؤوسهم للعاصفة ويجتمعون مع المشايخ ومنهم عمر مكرم، ويظهرون التوبة وقبول ما أراده العلماء منهم، مثل الإقلاع عن الظلم والنهب واحتكار الأغذية والقوت، وإرسال غلة الأوقاف المرصودة للحرمين الشريفين في الحجاز، وكان المماليك قد حبسوها ولم يرسلوها.

في أول يوليو (تموز) عام ١٧٩٨م وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية، فووجهوا بمقاومة من الحامية والناس الذين أرسلوا يستنجدون بالمماليك في القاهرة. ولم يحتل الفرنسيون الإسكندرية بسهولة؛ إذ إن عامة الشعب حصنت الأسوار، وأعدت ما استطاعت من أسلحة كانت طبعاً لا تقارن بالأسلحة الثقيلة لجيش نابليون بونابرت (بالمناسبة تذكر المصادر أن جيش نابليون كان متفوقاً حتى في العدد على القوى العسكرية النظامية الموجودة في مصر آنذاك، ناهيك عن تفوقه في العدة) وشارك الجميع في القتال رجالاً ونساءً وكل من كان في المدينة أو حولها، بل كاد نابليون يلقى مصرعه في بداية مغامرته هذه؛ حين نجا بأعجوبة من رصاصة جاءته من نافذة منزل اقتحمه الفرنسيون بعدها، فلم يجدوا فيه غير رجل وامرأة فقتلوهما فوراً، وفي هذه المعركة قتل الجنرال ماس وخمسة ضباط آخرون، وأصيب خليفتا نابليون اللذان سيحكمان مصر بعده خلال مدة

الحملة الفرنسية، وهما الجنرالان كليبر ومينو في المعركة، وبعد أن خسر الفرنسيون خسائر اعترف نابليون منها بثلاث مئة قتيل وجريح، تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على الإسكندرية.

وفي القاهرة عقد اجتماع كبير ضم أمراء المماليك ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم ومشايخ الأزهر، كباراً وصغاراً، وأعيان البلد والوالي العثماني الضعيف.

وأظهر المماليك قدراً كبيراً من سوء تقدير الخطر الداهم، ولم يمنعهم هذا العدو الغازي من متابعة ما كانوا فيه من سوء الظن بعضهم ببعض، فعجز الأميران إبراهيم ومراد عن التنسيق العسكري بين قواتهما، وقد بدأت الحملة بالهجوم على قوات مراد في الدلتا فهزمتها، وانسحب مراد إلى القاهرة، وكانت هذه هي اللحظة التي تحول فيها عمر مكرم إلى الزعيم الأول في القاهرة.

لا شك أن عمر مكرم قد استفاد من منصبه ونسبه وما يضفيانه عليه من جلال واحترام، ولكن هذه كلها لا تكفي لتصنع الزعيم، وسنرى - بعد قليل - في مثال (شريف) آخر هو خليل البكري أن النسب لا يكفي ليكون المرء زعيماً ويحظى باحترام الناس.

حين علم عمر مكرم بأن الفرنسيين لا بد قادمون إلى القاهرة، صعد إلى القلعة وأنزل منها علماً كبيراً عرف بالبيرق النبوي، ورفعه ومشى به إلى بولاق، فتجمعت الناس حوله بالألوف، وحملوا ما وجدوه من أسلحة، وجمعت طوائف الحرفيين الأموال من أفرادها واشترت أسلحة وذخائر، ولم يبخل الأغنياء بأموالهم، وذهب من يستطيع القتال إلى بولاق، حتى لم يبق في القاهرة إلا النساء والأطفال والكهول.

وظل المماليك على انقسامهم؛ فعسكر مراد بك في إمبابة ومعه ألوف المتطوعين من عامة القاهرة وفلاحي القرى، على حين عسكر إبراهيم بك في بولاق ومعه الوالي بكر باشا.

إن المماليك على ظلمهم وسوء سياستهم كانوا بلا شك فرساناً شجعاناً، وقد حمل مراد الذي كان في مقدمة من واجه الفرنسيين بفرسانه على جيش نابليون فأرعبهم، ولكن هؤلاء استعانوا بالمدفعية التي لم تستطع الشجاعة أن تقف في وجهها، فخسر المماليك ألفي قتيل، وخسر المتطوعون خمسة آلاف قتيل، وزعم نابليون أن خسائر الفرنسيين كانت ثلاث مئة قتيل.

وحين انكسر جيش مراد بك والمتطوعون في إمبابة، انسحب إبراهيم بك بجيشه من القاهرة دون أن يحاول القتال، وتوجه إلى بلبيس، وغادر المشايخ الكبار أيضاً القاهرة ومعهم عمر مكرم، وهكذا دخل الفرنسيون القاهرة بعد أن أرسل من تبقى في القاهرة من مشايخ صغار وتجار وغيرهم وفداً إلى نابليون، يطلبون منه الأمان للسكان، فأعطاهم منشوراً وطلب إليهم أن يرسلوا للمشايخ الكبار ليعودوا.

وبالفعل عاد الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات وكثير غيرهم، ورفض عمر مكرم العودة، فهاجم نابليون بلبيس بجيشه حيث كان عمر مكرم وإبراهيم بك وقواته، وبعد معركة أبلى فيها المماليك بلاءً حسناً مرةً أخرى، اضطروا للانسحاب أمام سلاح المدفعية الفرنسي، وغادر كل من عمر مكرم وإبراهيم بك مصر إلى غزة.

أما في القاهرة فقد قام نابليون بتشكيل ديوان يضم تسعة أعضاء، منهم الشيخان السادات والشرقاوي، وكان عمر مكرم أيضاً من جملة الأسماء التي سماها نابليون لعضوية الديوان، آملاً أن يغريه المنصب؛ فيعود ويتخلى عن مقاومته للاحتلال، ولكنه رفض كل تعاون مع الفرنسيين

كما رأينا، وكذلك رفض الشيخ السادات عضوية الديوان، فعين عضو آخر في مكانه.

وحين وجد نابليون أن عمر لم يتعاون معه عزله عن منصب نقيب الأشراف، وصادر أمواله، وعين الشيخ خليل البكري مكانه، وكان هذا مثالاً سيئاً للانتهازي الأناني - كما تذكر المصادر - الذي لا يقيم حتى لكرامته الشخصية وزناً، إذ غمر نابليون بهداياه، ورضي لنفسه بعلاقة شائنة مع الفرنسيين، وصلت إلى حد أثار عليه سخط الشعب المصري واحتقاره.

تركزت المقاومة للفرنسيين في الصعيد، وساهم فيها المماليك والفلاحون والبدو، وقوة من المفيد أن نذكرها، فقد لا يتوقع القارئ وجودها؛ ألا وهي قوة المتطوعين من الحجاز ويسميهم الفرنسيون (المكاويون) نسبة إلى مكة، ويذكرهم الجبرتي في تاريخه: "لما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم، وصار هذا الشيخ (وهو شيخ مكي اسمه الكيلاني.م) يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو ست مئة من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل ينبع وخلافهم".

وهؤلاء كانوا من المحاربين الأشداء الشجعان الذين أشاد بهم الجبرتي.

وممن ساهم في القتال ضد الفرنسيين جملة من المغاربة والأتراك، ومجاهد جاء من ليبية ولقب نفسه بالمهدي، وكان في مجموعة من رجال القبائل، قاتل بهم الفرنسيين، وانتصر عليهم في دمنهور التي أبيدت حاميتها الفرنسية، ثم هزمت النجدة التي أرسلها الفرنسيون، وكانت مزودة

بأسلحة ثقيلة، ولعل هذه المشاركات العربية الإسلامية المهمة في مقاومة الفرنسيين مما يغفل ذكره عادة، ولا أعتقد أن سبب ذلك بريءٌ دائماً؛ إذ كان بعضٌ من المؤرخين للحملة الفرنسية لاحقاً ممن كانوا يرفعون شعار القومية المصرية، ويجتهدون في عزل مصر عن سياقها الديني والحضاري واللغوي.

بعد هذا تشجعت الدولة العثمانية، وقررت مواجهة الفرنسيين عسكرياً، بعد أن تدخل الإنجليز، وحطموا الأسطول الفرنسي في أبي قير، عازلين الحملة الفرنسية عن وطنها.

وثارت القاهرة ثورتها الأولى على الفرنسيين عام ١٧٩٨م، وكان عمر مكرم منفياً في يافا، وكانت ثورة عنيفة اهتز لها نابليون، وصار يخشى من اقتراب الجيوش العثمانية التي كانت تتجهز في الشام للزحف على مصر، حيث سيقع بين نارين؛ نار الشعب ونار العثمانيين، فقرر مهاجمة الشام واحتل المدن الساحلية في سيناء، ثم غزة والرملة واللد، ووصل إلى يافا، فأخمد مقاومتها بعنف بالغ، ثم أمر بإعدام الأسرى، وبرر الفرنسيون هذا الإجراء الوحشي بأنهم لم يكونوا يستطيعون إطعام هؤلاء ولا إرسالهم إلى مصر!

أما عمر مكرم الذي كان في يافا فقد قبض عليه، ووجدها نابليون فرصةً للتقرب من الشعب المصري فأعاده إلى مصر في سفينة إلى دمياط، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية مدة ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى القاهرة فاستقبله الشعب استقبالاً حافلاً، وكان نابليون يأمل أن يتعاون معه عمر فلم يفعل، واعتكف في داره، ولم يشهد أياً من المحافل والاحتفالات والأعياد التي كان يشارك فيها الفرنسيون.

وفي أغسطس من عام ١٧٩٩م غادر نابليون مصر سرّاً، فخلفه كليبر في قيادة الحملة.

كان كليبر لا يؤمن بنجاح الحملة؛ فقرر التفاوض مع العثمانيين للانسحاب من مصر، وبالفعل وقع مع العثمانيين اتفاق العريش مطلع عام ١٨٠٠م؛ الذي نص على انسحاب الفرنسيين خلال ثلاثة أشهر من مصر على أن يسمح لهم بالمغادرة بكامل أسلحتهم، ويضمان ألّا يتعرض لهم أحد في الطريق إلى فرنسة، وقد ابتهج المصريون بهذه الاتفاقية وتبرعوا من أموالهم بكل سرور بالمبلغ الذي طلبته منهم السلطات العثمانية لتمويل رحلة عودة الفرنسيين إلى بلادهم، ولكن الإنجليز عارضوا الاتفاقية وقالوا: إنهم لا يوافقون على خروج الفرنسيين إلا بعد أن يسلموا أنفسهم باعتبارهم أسرى حرب، عندها تراجع كليبر عن الاتفاق، وهاجم الجيش العثماني الذي كان يتأهب لدخول القاهرة فهزمه في عين شمس، إلا فرقتين من الجيش العثماني لم تقاتلا، واتجهتا نحو القاهرة بقيادة الوالي العثماني الجديد على مصر نصوح باشا.

وكانت هذه هي النقطة التي بدأت منها ثورة القاهرة الثانية؛ لأن الشعب المصري انتهز فرصة انشغال الجيش الفرنسي، ولبى نداء عمر مكرم الذي خرج من اعتكافه ونادى بالثورة، فاقتحم الشعب المعسكرات الفرنسية واستولى على ما فيها من أسلحة، وتجمهرت العامة في الشوارع وبيدها كل ما وجدته من سلاح؛ من البنادق إلى السكاكين والعصي. وهكذا أقيمت المتاريس، ووقف عليها كل سكان القاهرة لم يكد يتخلف منهم أحد، ووقف مع العامة بعض أمراء المماليك وجنود وضباط العثمانيين من الفرقتين اللتين ذكرنا أنهما تركتا المعركة واتجهتا إلى القاهرة .

وحررت القاهرة عملياً، ولكن الجيش الفرنسي كان ما يزال بقوته على الأبواب.

وكان أول ما فعله كليبر بعد أن انتهى من العثمانيين؛ فرضُ الحصار على القاهرة، فتوقف إمدادها بالمواد الغذائية من الريف، وحتى نهر النيل

ما عادوا يستطيعون الوصول إليه، فاعتمدوا على الآبار. وكان موقف المشايخ؛ مثل الشيخ السادات والشيخ الصاوي، وموقف العثمانيين والمماليك أيضاً موقفاً مشرفاً، وكان عمر مكرم مع المشايخ يطوف على المتاريس ويتجول في قلب المعارك الخطرة.

ومن الطريف أن العامة كانوا في غاية (التطرف) فحين طلب كليبر وفداً من المشايخ للصلح، عارضاً عليهم شروطاً منها: خروج العثمانيين والعفو عن المصريين وتأمينهم على حياتهم، وجاء وفد المشايخ وذكر هذه العروض للناس، كان ردهم بأن شتموهم ورموا عمائمهم على الأرض، واتهموهم بالارتداد وأن الفرنسيين رشوهم بالدراهم!

ومن المحتمل أن العامل الذي ساعد على رفض الشعب لأي مفاوضة تقود إلى إنهاء الثورة وبقاء الاحتلال الفرنسي هو، علاوة على كراهيته الشديدة للاحتلال، شعوره بالثقة بالنفس، وتقديره أن الفرنسيين في موقف ضعيف، خصوصاً مع انتشار الشائعات بقدوم جيش عثماني جرار، وأنه في طريقه إليه.

ولكن هذا التقدير لتوازن القوى كان غير صائب؛ إذ هاجم الفرنسيون ضاحية بولاق بالمدفعية وأحرقوها، وانتقموا من سكانها الذين كانوا قد وقفوا في وجه المدافع بشجاعة خارقة، فقتلوا منهم عدداً كبيراً في مجزرة وحشية جعلت زعماء الثورة في القاهرة يفاوضون كليبر، ويبرمون معه اتفاقاً نص على انسحاب العثمانيين والمماليك من القاهرة، وجلائهم عن مصر كلها. وهذا ما جرى بالفعل، وخرج مع العثمانيين عمر مكرم إلى الصالحية في الطريق إلى الشام.

ويعلل أحد مؤرخي حياة عمر مكرم؛ وهو الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي في كتابه (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) خروج عمر مكرم

بأنه كان حتى ذلك الوقت "يربط كيانه السياسي ومستقبله بدعامتي الحكم العثماني اللتين تتمثلان وقت ذاك في الوالي والأمراء المماليك".

وهو يقارن بين موقف مكرم الذي خرج من القاهرة، وموقف الشيخ السادات الذي بقي فيها محتملاً الاضطهاد والاعتقال والتعذيب، يقول الشناوي: "حقيقة أن عمر مكرم لم يكن رجل حرب وحقيقة أنه لم تكن لديه الوسائل أو الإمكانيات كي يمنع عن الشعب انتقام الفرنسيين، وحقيقة أن الأوضاع السياسية في مصر كانت واحدة عند هجرته من مصر أول مرة وعند ارتحاله عنها في المرة الثانية، ولكن كان الفرنسيون في المرة الأولى يوادون المصريين رياء ونفاقاً، وكانوا في المرة الثانية يحادون المصريين جهاراً واستكباراً، ولا ريب أن بواعث هجرة عمر مكرم مع القوات العثمانية والمملوكية كانت هي نفس الأسباب التي حملته على الهجرة الأولى، لكن يضاف إليها في ضوء ملابسات الموقف أن عمر مكرم أراد في هجرته الثانية أن ينأى بنفسه عن انتقام الفرنسيين منه. ومن واجب الزعيم أن يقف إلى جانب الشعب في وقت المحن والشدائد، وأن يشاركه آلامه وأتراحه ... ولا ينفي هذا المأخذ أن حياته جاءت حافلة بصدقه الثوري مليئة بالشجاعة والنزاهة زاخرة بالنضال"[(١)].

والمقارنة مع السادات جديرة بالتأمل في اعتقادي، فهذا الشيخ وقف موقفاً مبدئياً صارماً، وتحمل اضطهاد الفرنسيين، فشابه مكرم في مبدئيته، وزاد عليه بأنه لم يتصور - على ما يبدو - إمكانية العيش في المنفى. ولكن من جهة أخرى سنرى لاحقاً أن السادات الذي كان في غاية المبدئية في وجه الأجانب، كان في غاية الانتهازية مع الحاكم المحلي أي محمد علي، بخلاف عمر مكرم الذي مثل الشعب حقاً وفعلاً، وصمد صموداً أسطورياً في وجه إغراءات الفساد وإرهاب الطغيان حتى النهاية.

---

(١) عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، ص ٨٤.

عمر مكرم بعد انتهاء الحملة الفرنسية

قتل الجنرال كليبر على يد الشاب السوري سليمان الحلبي، الطالب الأزهري، فاستلم القيادة من بعده الجنرال مينو الذي اضطر أخيراً، بعد أن تابع السياسة المتعسّفة التي اتبعها أسلافه، إلى توقيع اتفاقية جلاء في يونيو ١٨٠١م تحت ضغط عسكري مزدوج إنجليزي عثماني.

وعاد عمر مكرم إلى القاهرة مع عودة السلطة العثمانية، وأعاده العثمانيون إلى منصب نقيب الأشراف (واستقر بهذا المنصب بعد أن أحبط المصريون محاولة للاستيلاء عليه من قبل نصَّابٍ تركي الجنسية). وهنا تبدأ في اعتقادي زعامته الشعبية الفذة كما تجلت في تمثيله للشعب في وجه القوة المتسلطة الداخلية وليس الاحتلال الأجنبي.

بعد انسحاب الفرنسيين دخلت مصر من جديد في فوضى، إذ انعدمت السلطة المركزية الحازمة، ووقع الشعب بين نيران الفرق العثمانية المختلفة والمملوكية المتطاحنة، ومن هذه الفرق نذكر الفرقة الألبانية التي كان أحد ضباطها رجلاً أمياً طموحاً داهية واسع المواهب، اسمه محمد علي.

بعد تبديل متكرر للولاة العثمانيين استلم الولاية في شهر مارس ١٨٠٤م أحمد خورشيد باشا، فجلب إلى مصر جنوداً قساة من الأكراد يسمون الدلاة أو الدالاتية، كانوا يعيثون فساداً في البلد، وقد جلبهم محاولاً الاستعانة بهم على التخلص من محمد علي والألبان.

وقد عجز خورشيد عن دفع رواتب الجنود، فلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الشعب، وأسرف الدالاتية في جرائمهم وتعدياتهم الوحشية ولاسيما حين تأخرت رواتبهم، حتى طفح الكيل بالناس ووقف المشايخ الوقفة المرتجاة منهم بصفتهم ممثلين لمصالح الشعب وقادة له، فحرضوا الرأي العام على إغلاق الحوانيت والمخازن والأسواق، وتجمهرت

الناس في حي الأزهر، وطلبوا من المشايخ أن يعطوهم الأمر بالزحف إلى مصر القديمة حيث مراكز الدلاتية، وحين أرسل خورشيد جماعة من العسكر تتفاوض مع المشايخ، رمتهم الناس بالحجارة من أسطح المنازل ولم يستطيعوا الوصول إلى الأزهر، فرجعوا إلى خورشيد، واستمرت المفاوضات بعد ذلك واستمر التجار في إغلاق الدكاكين محتجين على ما كان يثقل كاهلهم من الضرائب التعسفية، وباختصار اتحدت عامة القاهرة بجميع شرائحها مقررة أن تزيل المظالم بعد أن عجزت عن تحمُّلها، وفي هذه الأزمة تحول عمر مكرم إلى الزعيم الأول للعامة، وصار هو صاحب الكلمة بالتشاور مع المشايخ.

وفي مايو ١٨٠٥ قدم المشايخ برئاسة مكرم مطالبهم للوالي معتبرين هذه المطالب شروطاً، إن لم يحققها فلن يعترفوا بشرعيته والياً على مصر، ومن هذه المطالب:

١- عدم مرابطة القوات العسكرية في القاهرة ونقلها إلى الجيزة.

٢- منع الجنود من الدخول بأسلحتهم إلى القاهرة.

٣- عدم فرض أي ضريبة إلا بموافقة المشايخ.

ودبر خورشيد في أثناء ذلك مؤامرة لقتل عمر مكرم، لكنها لم تنجح.

ورأى عمر مكرم أن الأوان قد آن لإزاحة الوالي بالقوة من مركزه، وكان محمد علي يظهر لمكرم والزعماء تعاطفه معهم، وكراهيته لخورشيد ومظالمه، فقرر عمر مكرم والمشايخ أن يولوا محمد علي بدلاً من خورشيد، ويصف الجبرتي هذه الحادثة بقوله: "وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي، وقالوا له: إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية. فقال: ومن تريدونه يكون والياً؟ قالوا له: لا نرضى إلا بك فتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير".

كان عمر مكرم صاحب الاقتراح بتولية محمد علي، وكانت هذه نقطة تاريخية حاسمة؛ إذ يولى الوالي بقوة الشعب لأول مرة في تاريخ مصر، لا بقوة السلطة العثمانية أو بقوة المماليك، ونلاحظ أن عمر مكرم ساير التقاليد التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت؛ وهي تولية شخصيات عثمانية من خارج مصر، وكان الوالي عملياً يتم فرضه على السلطان الذي كان يصدر الفرمان بتعيينه، ولكن الذي كان يفرضه هو زعماء المماليك، ومن هنا كانت تولية محمد علي استمراراً ظاهرياً لتقاليد سابقة، وقطيعة فعلية معها. وتولية محمد علي على أساس شروط شعبية كانت واقعة لا سابقة لها؛ إذ لأول مرة تنصب العامة بأيديها والياً بناء على برنامج سياسي واضح، يهدف إلى تغيير الوضع الفاسد في جهاز الحكم في مصر.

ورفض خورشيد القرار متمسكاً بالقول: إنه هو الذي ولاه السلطان، ولن يترك منصبه إلا بأمر السلطان، واستعان خورشيد بالقوات العسكرية العثمانية، وبجزء من القوات الألبانية التي كانت تحت إمرة ضباط منافسين لمحمد علي، وبالدالاتية، وبدأ في مراسلة أمراء المماليك أيضاً.

ولا شك أن هذه القوة مجتمعة كانت تستطيع أن تهزم قوات محمد علي بسهولة لولا وجود هذه القوة الجبارة الجديدة التي يقودها عمر مكرم ومشايخ الأزهر، ألا وهي قوة عامة الناس في القاهرة الذين نصبوا المتاريس، وسهروا الليالي يحرسون ويتحركون من جهة إلى جهة، حتى إن القنصل الفرنسي العام دروفيتي قال: إن هذه المناظر ذكرته بباريس في أيام الثورة الفرنسية!

ومن الجدير بالذكر أن هذا الصراع لم يكن صراعاً قومياً، وكان العامة وقيادتهم معاً لا ينتابهم أي شك في ضرورة استمرار مصر ولايةً عثمانية تخضع للخلافة العثمانية في إستنبول، وإنما المسألة مسألة خلاف

داخلي مع جهاز الحكم الفاسد في مصر، ومن الأمور ذات الدلالة أن العالم التركي - الذي كان يتولى منصب القضاء في مصر - رفض رفضاً باتاً مناصرة خورشيد، وأقدم على قطع العلاقات معه، واقفاً مع إرادة الأكثرية التي رآها بأم عينه. ومن المفيد لمعرفة نوعية ذلك الذي كان يسيّرُ الوعي قيادة العامة والعامة نفسها أن نذكر رد السيد عمر مكرم على واحد من أنصار خورشيد، جاء يتفاوض معه، وهو عمر بك الألباني، فقد سأله هذا: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩/٤]؟ فقال له السيد عمر مكرم: "أولوا الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة، وهذا شيء من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه".

وفي اعتقادي أن هذا المستوى من الوعي الذي وصلت إليه العامة وقادتها في ذلك الوقت كان يمثل لبنة أساسية من لبنات الروح النهضوية الإسلامية الجديدة، وانبلاج نور فجر جديد بعد ليل السبات الذي دام بضعة قرون، انقضت في جور وفساد وتدهور للحالة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في مصر، فيذكر المؤرخون ومنهم عبد الرحمن الرافعي أن مصر في العهد العثماني سارت خطوة إلى الوراء، قياساً إلى وضعها في عهد الدولة المملوكية المستقلة قبل مجيء العثمانيين.

وكان عمر مكرم في هذه الأيام في نشاط لا يهدأ؛ يزور المواقع ويحمّس العامة الذين كان لهم في الحقيقة الدور الحاسم في إسقاط خورشيد؛ لأن جنود محمد علي الألبان لم يكونوا متحمسين لقتال جنود خورشيد، إذ كان جنود الأخير معظمهم من الألبان أيضاً، بل إن جنود محمد علي انسحبوا من مواقعهم حين لم يستطع أن يدفع لهم رواتبهم،

فقام العامة بأخذ مواقعهم، وليتهم اكتفوا بالانسحاب، بل إنهم بدؤوا بمهاجمة المنازل واستباحتها مستغلين خلوها من الحماة الذين كانوا في المعركة، فعادت بعض فرق العامة المكونة من رجال أشداء واشتهر منهم شيخ الخضرية في القاهرة حجاج الخضري، واشتبكت مع هؤلاء، وكانت حصيلة هذه المعارك الخلفية قتل ستين جندياً ألبانياً، فذهب محمد علي إلى عمر مكرم يرجوه أن يكف الناس عن جنوده، وتعهد بضرب عنق أي جندي يعتدي على الناس. فأرسل مكرم المنادين في شوارع القاهرة: "حسبما رسم السيد عمر أفندي والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها وإلا فلا يتعرضوا له".

وذكر فرنسيون شهدوا الأحداث عن كثب أن من شارك في تلك الهبة من السكان كانوا أربعين ألفاً، يطيعون السيد عمر مكرم طاعة عمياء وينفذون أوامره بحذافيرها.

ومن مظاهر العبقرية السياسية لعمر مكرم تعامله بمنتهى المهارة والدبلوماسية مع حركة قام بها السلطان العثماني في أثناء هذه المعركة، وهي أنه أرسل مندوباً معه مرسومان متناقضان: واحدٌ بتثبيت خورشيد والياً وإخراج محمد علي من مصر، وآخر بتثبيت محمد علي والياً وعزل خورشيد! وكلف المندوب بأن يقدّر على أرض الواقع من هو الأقوى ويظهر المرسوم المناسب! وهنا قرر عمر مكرم العمل على جلب المندوب إليه وإبقائه في وسط الجموع الحاشدة في القاهرة؛ لئلا يذهب أولاً إلى خورشيد، ونظم للمندوب استقبالاً حافلاً بحيث جعل شعب القاهرة بكامله يخرج لاستقباله والترحيب به، وحوصر خورشيد حصاراً محكماً فلم يستطع الخروج، بينما قاد (المرحبون) الضيف إلى بيت محمد علي، حيث كان عمر مكرم والمشايخ مجتمعين، فلم يجد المندوب بدأ من

إخراج المرسوم القاضي بعزل خورشيد وتثبيت محمد علي، وكان هذا ضربة قاضية لشرعية خورشيد.

وبإعلان مرسوم تثبيت محمد علي اقترح شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد الأمير، ومشايخ آخرون أن يلقي الشعب السلاح، وتفتح الأسواق، وتستأنف الحياة العادية، وأيد محمد علي هذا الاقتراح، ولكن عمر مكرم وقف ضده؛ لأن خورشيد ما زال معتصماً بالقلعة ورافضاً تنفيذ المرسوم، وكان ما يزال متصلاً مع قوى عسكرية مهمة ممثلة في المماليك وجيش علي السلحدار في مصر القديمة والجيزة، علاوة على قواته في القلعة، وكان من الممكن لو ألقى الشعب سلاحه أن يعود فينقض على السلطة دافعاً السلطان إلى إعادة تنصيبه من جديد، ومن المفيد أن نلاحظ في هذه اللحظة التاريخية أن عامة القاهرة هي التي ناصرت رأي عمر مكرم، إذ إن بعض المشايخ نادوا في المدينة بالأمان واستئناف البيع والشراء، وترك حمل الأسلحة في النهار والاقتصار على حملها في الليل، فرفض العامة هذا النداء، إلا قلة منهم استجابت لنداء المشايخ ففتحوا المحلات ورموا الأسلحة، فما كان من الجنود إلا أن عاودوا اعتداءاتهم! وحين ذهب المُعتدَى عليهم إلى السيد عمر يشتكون، طلب منهم الذهاب إلى الشيخين الشرقاوي والأمير فهما صاحبا الرأي بترك السلاح!.

وأخيراً أرسل السلطان حملة إلى مصر تتألف من ألفين وخمس مئة جندي، نزلت في الإسكندرية ومعها مرسوم بتثبيت محمد علي "حيث ارتضاه الكافة والعلماء"، ومرسوم آخر يطلب من خورشيد النزول من القلعة والذهاب إلى الإسكندرية.

وفي هذا الوضع الدقيق بادر عمر مكرم فعرض على خورشيد أن ينزل إلى داره، ويحميه هو من غضب العامة حتى يذهب إلى الإسكندرية،

وطلب عمر مكرم في الوقت نفسه من الشعب الاستمرار في الحذر "لأن القوم لا أمان لهم".

وأخيراً نزل خورشيد بالفعل في دار عمر مكرم، ثم غادر مصر إلى غير رجعة، واستلم محمد علي الولاية التي كانت في بدايتها مبنية على ميثاق من الشروط التي ذكرناها، والتي تحد من سلطته وتفرض عليه العدل وعدم فرض ضرائب إلا باستشارة العلماء. وسنرى بعد قليل كيف تخلص محمد علي من الزعامة الشعبية ليحكم مصر حكماً استبدادياً مطلقاً.

وقد كان لعمر مكرم مع زعماء الأزهر ومن خلفهم وتحت قيادتهم جماهير العامة الدور الجوهري في تثبيت محمد علي في حكم مصر، سواء ضد قوة المماليك التي كانت قادرة على إزاحته، لولا هذا الدور الجوهري للشعب المنظم المسلح ذي القيادة الواعية التي كانت حتى ذلك الوقت متحدة الصفوف، أم ضد محاولات العثمانيين نقلَ محمد علي من ولاية مصر إلى سالونيك، وتعيين وال آخر بدلاً منه في مصر.

"وليت العامّة شُكروا.."

عمر مكرم والشعب يوجهان اول هزيمة في تاريخ مصر لبريطانية العظمى

"وجهت بريطانية حملة عسكرية لمصر في مارس عام ١٨٠٧ بقيادة الميجر جنرال ماكنزي فريزر انطلقت من صِقِلِّيَّة، وضمت علاوة على الجنود الإنجليز، مرتزقة إيطاليين ومهاجرين فرنسيين معادين للثورة الفرنسية، وكان الهدف الأولي للحملة احتلال الإسكندرية.

ويذكر المؤرخون لهذه الحملة أهدافاً منها الحيلولة دون عودة فرنسة إلى مصر، وإنشاء حكومة مصرية عميلة لها، والضغط على السلطة العثمانية لجعلها تتخلى عن التحالف مع فرنسة ضدها.

وقد حمل أهل الإسكندرية السلاح في وجه الغزاة، ولكن الإنجليز رشوا الحاكم التركي أمين آغا فسلم البلد، ودخلتها الحملة في ٢٠ آذار (مارس) عام ١٨٠٧.

وفي المحطة التالية وصل الإنجليز إلى دمنهور، فقررت حاميتها الفرار على طريقة حامية الإسكندرية نفسها، وناشدهم السكان عدم الفرار فلم يستجيبوا لهم، وهربوا ليلاً بقيادة الحاكم (الذي كان برتبة (كاشف) وهو حاكم الإقليم الذي يقل مساحة عن المديرية) بل أخذ الكاشف جميع أسلحة الحامية ومدافعها وذخائرها، مانعاً بهذا السكان من استخدامها؛ فلا هو دافع ولا ساعد السكان على الدفاع!

أرسل سكان دمنهور رسالة استغاثة للزعيم عمر مكرم شرحوا فيها له ما جرى، وطلبوا منه الإغاثة، فعقد مكرم اجتماعات مع كبار المشايخ ومع نائب محمد علي، لأن الأخير كان يحارب المماليك في الصعيد، وأرسلوا إليه رسالة طلبوا منه فيها العودة لهذا الأمر الأهم والأوْلى.

ولكن محمد علي خاف خوفاً شديداً، وتباطأ في العودة إلى القاهرة، ظاناً أن البريطانيين لن يوقفهم شيء حتى يستولوا على القاهرة، وعندها يفر بجنوده إلى الشرق، ويستطيع أن يقدم عذراً للباب العالي أنه لم يكن في القاهرة حين دخلها البريطانيون فلم يشتبك معهم.

على أن عمر مكرم كعادته قرر أن يعتمد على أهل القاهرة، فأمر بتعطيل الدراسة في الأزهر كي يتفرغ المشايخ والطلاب المجاورون للجهاد، وطلب من الناس أن يحملوا السلاح ويستعدوا للقتال.

وكان في القاهرة جنود عثمانيون وضباط، باع أكثرهم ما عنده، واشترى ذهباً ولوازم ارتحال ناوياً الفرار، أما الأقلية فبقيت في القاهرة. واجتمع عمر مكرم والمشايخ مع من تبقى من موظفين وضباط عثمانيين،

وطلب عمر منهم ترك عاداتهم في النهب والسلب والوقوف مع الشعب في وجه الاحتلال الذي يهدد الجميع، وقرر الاجتماع حفر خندق وبناء استحكامات شمال المدينة حيث يتوقع مجيء الإنجليز، وذهب مكرم مع المشايخ والأعيان والقاضي إلى بولاق لبدء العمل في الخندق، ومعهم حشود العامة المسلحة، وبذل أغنياء الشعب أموالاً كثيرة في العمل، ومن الذين شاركوا في هذا العمل الأروام والشوام والأقباط، وكان عمر مكرم على رأس العمل يذهب إليه صبيحة كل يوم، وأعد لنفسه خيمة كان يظل فيها أحياناً طوال النهار، كما ذكر أحد الشهود الأجانب الذين كانوا هناك، وهو (فيليكس مانجا).

كل هذه الأعمال تمت ومحمد علي في الصعيد يتلكأ في المجيء إلى القاهرة.

بعد نجاح قائد الحملة في احتلال الإسكندرية بسهولة بالغة أقنعه القنصل البريطاني العام ميست أن يحتل مدينة رشيد؛ بهدف تأمين الإمدادات الغذائية من داخل مصر عن طريق النيل، وقد اعتقد البريطانيون - قياساً على ما جرى في الإسكندرية - أن الاستيلاء على رشيد سيكون نزهة سهلة. ولكن حاكم رشيد علي بك السلانكلي كان رجلاً نزيهاً مخلصاً، يختلف كل الاختلاف عن حاكم الإسكندرية الفاسد، فقرر المقاومة بقواته التي تقدر بنحو خمس مئة جندي وبالأهالي. ولعله احتذى بما فعله طارق بن زياد حين أحرق السفن، فأمر بإبعاد السفن لكيلا يستخدمها أحد في الهروب من المدينة عن طريق النيل!

ثم وضع هذا الحاكم خطة متقنة لاصطياد الإنجليز:

وصل الغزاة إلى رشيد فلم يواجهوا أي مقاومة، ودخلوا المدينة فوجدوا الشوارع فارغة، واعتقدوا أن الأهالي خافوا منهم فاعتصموا في بيوتهم، وكان الأهالي بالفعل في بيوتهم ولكن مسلحون ينتظرون إشارة

متفقاً عليها، وحين أطلقت الإشارة أخذ الإنجليز على حين غرة، وكان كثير منهم قد استلقى في الظل يستجم من عناء السفر، وكانت النتيجة قتل قائد القوة المهاجمة وهو الجنرال ووكوب، وقتل مئة وسبعون جندياً، وجرح مئتان وخمسون وأسر مئة وعشرون، بينما استشهد من أهل رشيد وحاميتها أربعون. وأرسلت هذه الأخبار إلى القاهرة مع الأسرى، مما أثلج صدر عمر مكرم والناس هناك طبعاً، أما القنصل المغرور ميست فعلق على المعركة بأن العالم بأسره سيدهش دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبي حديث.

ومن البدهي أن تزداد ثقة الشعب بنفسه بعد هذه المعركة، وأن يقرر الإنجليز الانتقام لهزيمتهم، وللانتقام توجهت حملة إنجليزية إلى رشيد بالفعل، مجهزة بالمدافع الثقيلة واحتلت قرية الحماد جنوب رشيد، لمنع وصول الإمداد إليها، واحتلت ربوة أبي مندور المطلة على رشيد بهدف ضربها بالمدافع. وعاد أهل رشيد إلى الاستنجاد بعمر مكرم، فدعا أهل القاهرة إلى اجتماع عام وقرأ عليهم رسالة الاستنجاد، ودعاهم إلى نصرتهم، فتطوع كثير من سكان القاهرة المسلحين، وسافروا رغم اعتراض نائب محمد علي الذي كان يريد أن ينتظروا حتى يعود محمد علي من الصعيد ويقرر أمر سفرهم.

وحين بلغت أخبار هزيمة الإنجليز في رشيد محمد علي ارتفعت روحه المعنوية، وقرر العودة إلى القاهرة، وكان أول ما فعله بعد عودته أن تصرف مع الزعماء والشعب بكل فوقية؛ وطلب منهم عدم التدخل في الدفاع عن البلد، وقال لهم: "ليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر". أي على الرعية دفع الأموال للعساكر فقط.

وهذه (الغيرة) من الشعب وإرادة تجريده لا من السلاح فقط، بل تجريده أيضاً من هذه (العادة الضارة) التي بدأ الشعب يتعلمها؛ وهي عادة

أن يبادر إلى اتخاذ قراراته بنفسه، ويتصرف باعتباره كياناً حراً ذا إرادة، وليس مجرد قطيع من العبيد الذين ينفذون بلا مناقشة أوامر السلطة؛ تشير إلى بدايات الارتداد عن منطق وروح تلك الثورة الكبرى التي أوصلته إلى السلطة عام ١٨٠٥ ولم يكن يحلم بها لولاها!

ومن البدهي أن يغار محمد علي من عمر مكرم الذي كان صاحب النفوذ الحقيقي على الناس؛ يأتمرون بأوامره ويكتبون له رسائل النجدة والشكوى من المظالم.

وطلب محمد علي من عمر مكرم ألف كيس لتمويل حملة يريد إرسالها إلى رشيد لمقاتلة البريطانيين، فنفذ عمر مكرم هذا الطلب، وآثر ألا يثير مشكلة معه كان من شأنها أن تقوي التحالف الذي كان قد نشأ بين الإنجليز وأمراء المماليك الأقوياء في الصعيد، مما يهدد بانهيار الجبهة الوطنية بأسرها.

وبعث أهل رشيد مرة أخرى استغاثة إلى عمر مكرم، لأن الإنجليز كانوا يضربون البلد بالمدافع، وتحركت من القاهرة فرقة ألبانية تتألف من أربع مئة من المشاة وألف وخمس مئة من الفرسان، وعدد كبير من أبناء الشعب المصري من دمنهور والبحيرة ورشيد، وقد شارك في القتال تاجران من أهل مكة، أنفقا مبالغ طائلة على المحاربين، ودارت معركة كبرى في الحماد قرب رشيد في ٢١ إبريل ١٨٠٧، أبلى فيها الشعب بلاء حسناً وأبدى فيها من ضروب البطولة ما أذهل البريطانيين، وجعلهم يطلبون الأمان، فرفض العامة هذا الطلب، واستمروا في القتال حتى انتهت المعركة بخسارة الإنجليز لألف جندي بين قتيل وجريح وأسير، وفر من تبقى منهم إلى الإسكندرية تاركين مدافعهم وأسلحتهم في أرض المعركة.

هذا الموجود الجديد في الفعل السياسي والعسكري الإسلامي: الشعب، كان من البديهي أن يُنكَر دوره من قبل محمد علي وزبانيته،

ويعلق المؤرخ الرئيسي لتلك الحقبة الجبرتي قائلاً: "وليت العامَّة شُكِروا على ذلك أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك!".

ومن العجيب حقاً أن الجنود الألبان الذين ظلوا في المؤخرة انتهزوا فرصة الحرب، لا للالتحاق بها بل لمتابعة المزيد من نهب الناس والاستيلاء على أموالهم بدعوى التأهب لصد البريطانيين! بل إن الجنود العثمانيين انتشروا في منطقة رشيد واستباحوها، زاعمين أنها دار حرب لأن البريطانيين نزلوا فيها! فخرج نقيب الأشراف في رشيد والتقى مع رؤساء الجنود وقال لهم: "أما كفانا ما وقع لنا من الحروب، وهدم الدور، وكلف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم، وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال، ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل، فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئاً، ونترك لكم البلدة؛ افعلوا بها ما شئتم".

من هذا نؤكد بوضوح أن الهزيمة لا تأتي شعبنا من خارجه، وبقوة خصومه وتقصيره هو أو ضعفه، وإنما تأتيه من داخله، ومن السلطات الغاشمة التي ابتلى بها ذاتها، وهذا ما يتكرّر دائماً.

والدليل أن أهل رشيد لم يفلح العدو الخارجي الإنجليزي في إخراجهم من ديارهم، وأفلح في ذلك الجنود العثمانيون! فقد هاجر كثير من أهل رشيد، ولجأت نساء رشيد وأطفالهم إلى القاهرة.

وصرح فريزر لرؤسائه بأن الحملة لا محالة ما كانت لتستطيع الدفاع عمّا تبقى لها من مواقع في الإسكندرية لو قرر محمد علي أن يشن عليها الهجوم، ولكن محمد علي قرر بدلاً من الهجوم أن يفاوض الإنجليز للجلاء عن الإسكندرية، وأن يستغل وجود الإنجليز في أثناء ذلك في نهب ما يستطيع نهبه من الناس، حتى كادت الناس أن تصل إلى درجة

المجاعة، فلاذت بعمر مكرم فطلب من محمد علي رفع الأتاوات التي طلبها من الناس وإيقاف المظالم، فكتب الأخير (أماناً) لطوائف الشعب، وكانت مفاوضاته مع الإنجليز قد أدت إلى اتفاقية للجلاء. وشنَّ حملة إعلامية قوية، مستعيناً ببعض الأعوان وبجهل السلطنة العثمانية، وقلة علاقاتها مع شخصيات الشعب المصري المؤثرة، أدت إلى اقتناع السلطنة بأن محمد علي هو صاحب الفضل الوحيد بإيقاع الهزيمة بالإنجليز.

وفي اعتقادي أن محمد علي كان سيقنع العثمانيين حتى دون هذه الدعاية أنه هو وحده من هزم الإنجليز؛ لأن العثمانيين لم يكونوا حتى ذلك التاريخ قد سمعوا في حياتهم أن الشعب - لا الوالي وجنوده المفصولين كلياً عن الناس، حتى في اللغة - يستطيع أن يقوم بأي دور مستقل أو أي دور على الإطلاق! فمن البدهي وفقاً لهذه المنظومة الفكرية ألا يهزم الإنجليز إلا والٍ وجنود ألبان!

وللقارئ أن يقارن بين إخفاق الحملة الإنجليزية حين ووجهت بتماسك داخلي وقيادة نزيهة، وبين نجاح الهجوم الإنجليزي عام ١٨٨١ على عرابي، حين دخل الإنجليز بسهولة بسبب التناحر الداخلي وبيع الخديوي بلده للأجنبي للحفاظ على عرشه الصوري الهزيل.

انقلاب محمد علي على الشعب وسبب نجاحه:

كان عمر مكرم قد غدا الشخصية الأولى في مصر، على الرغم من أنه ليس مملوكياً أو ضابطاً عثمانياً، على ما كانت عليه أسباب امتلاك الفرد للنفوذ في ذلك العصر. ولم يكن ذلك أيضاً بسبب نسبه الشريف؛ فقد رأينا كيف أسقط الشعب نقيب الأشراف خليل البكري حين انحرف عن قيمه العليا. إنما كان ذلك لأن الشعب رأى فيه العالم والمجاهد المخلص

في سبيل تحقيق العدالة، وتطبيق ما يقتضيه الشرع في آن واحد لا ما تقتضيه أهواء المتنفذين الفاسدة.

وكانت نزاهة عمر مكرم ونظافة يده مضرب المثل، والزهد في الدنيا يملّك المرء الدنيا! ولنستمع إلى شهادة واحد من أكبر مؤرخي العصر وهو عبد الرحمن الرافعي رحمه الله في كتابه (عصر محمد علي ص٨٣):
"ومن الحق أن نقول: إنه لم يكن من بين زعماء الشعب من كان يحسب له حساب كبير مثل السيد عمر مكرم، فإنه الرجل الذي كان يتمثل فيه دائماً تاريخ الثورة، فلم تلن قناته للمنافع والمغريات، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته، وأيّده في مسلكه بعض الشيوخ، ولكن أغلبيتهم قد انصرفت إلى أسباب المنافع، والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور، وأخذوا يقلدون البكوات المماليك في البذخ والرفاهية، فأذلتهم الدنيا، وضعفت نفوسهم أمام سلطة الحاكم ونفوذه".

وهنا سقط زعماء الشعب؛ إذ إن محمد علي اشتراهم بعد أن لم يجاهدوا أنفسهم، ومع أن كثيراً منهم كانت له مواقف بطولية في مواجهة الفرنسيين.

حين فسد العلماء انحدرت هيبتهم بين الناس، وما عادت لهم كلمة مسموعة، وهذا بالذات ما سعى إليه محمد علي قاصداً؛ إذ لم يكن يستطيع أن يحكم مصر حكماً مطلقاً - وهو ما كان يخطط له - مادامت العامة تحت قيادة هؤلاء العلماء الذين رفعوه إلى سدة السلطة على شرط أن يعود إليهم ولا يستبد بالأمر دونهم، ومما زاد الطين بلة تحاسدهم وتفرق كلمتهم، وهذا نتيجة منطقية لتكالبهم على الدنيا. يقول الجبرتي:
"وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد

الأمراء، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعزير والضرب، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفائض (...) زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور".

هذه هي النقطة التي بدأ منها التاريخ الاستبدادي لمحمد علي، وحين عم الفساد أوساط العلماء كان السيد عمر مكرم قد عزل عملياً، ولم يبق لمحمد علي إلا أن يبعده جسدياً من الساحة.

في عام ١٨٠٨ فرض محمد علي ضريبة جائرة على أنواع الغذاء، وزاد الأمر سوءاً أن النيل في ذلك العام كان منخفض المنسوب عن عادته، فطلب المشايخ من محمد علي أن يلغي بعض الضرائب الجائرة ويرفع المظالم لعل الله يرفق بالعباد ويغيثهم، هنا استطاع محمد علي ان يرد عليهم ويفحمهم: "أنا لست بظالم وحدي، وأنتم أظلم مني". روى الجبرتي هذا الحوار بالتفصيل، وفيه ذكّر محمد علي هؤلاء الزعماء بأنه حين أعفاهم من الضرائب لم يعفوا هم الفلاحين!

واستغل محمد علي الفرصة التي جاءته حين طلب منه السلطان الذهاب إلى الحجاز لمحاربة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ففرض على العامة مبلغاً هائلاً، ثم انقلب محمد علي على المشايخ فانتزع من أيديهم نظارة الأوقاف .

وقامت فتنة كبيرة في القاهرة عام ١٨٠٩ حين اعتقلت شرطة محمد علي طالباً أزهرياً كان قريباً لأحد المشايخ، وكانت العامة قد امتلأت غضباً من قبلُ من جور محمد علي، فهاجوا وساروا إلى الأزهر، وهنا خرج عمر مكرم من عزلته وطلب من الزعماء أن يوحدوا كلمتهم لإيقاف طغيان محمد علي عند حده، واتفق معهم ألّا يذهب أحد منهم إلى محمد

علي إلا بعد أن يستجيب لمذكرة جماعية كتبوها، يطالبونه فيها بإلغاء الضرائب وإطلاق سراح الطالب الأزهري.

وكانت هذه بلا شك حركة تمرد خطيرة على محمد علي، كان من شأنها أن توقفه عند حده بالفعل، ولكن محمد علي استغل ما يعرفه من استعداد عند كثير من العلماء للتخاذل وشق الصف والسعي إلى المصالح الذاتية على حساب المصالح العامة، وهذا ما دفعه إلى رشوة بعض هؤلاء، بأن أوهمهم بأنه سيقربهم هم على حساب الآخرين، وكان ممن شق الصف الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر والشيخان المهدي والدواخلي، وتظاهر محمد علي باحترام هؤلاء، وزعم أنه من بين الزعماء لا يحب عمر مكرم فقط، لأنه يعانده ويعارضه ويريد إثارة الفتنة في البلاد.

وأما الرعية؛ وهذه هي النقطة التي أريد من القارئ أن يتنبَّه إليها ليعرف كيف كان محمد علي يجازي هؤلاء الذين رفعوه إلى سدة الحكم - فقال عنهم: "ليس لهم عندي إلا السيف والانتقام"!.

وما كان من هؤلاء الزعماء إلا أن شاركوا محمد علي في الهجوم على عمر مكرم، وزعموا أنه ليس أكثر من نقيب للأشراف، وليس من مشايخ الأزهر، وانساقوا وراء حقدهم على عمر مكرم وحسدهم له، دون أن يقدروا أنهم حين يسلمون مكرم لمحمد علي لقمة سائغة فإنما هم يسلمون أنفسهم ويحطمون ما تبقى لهم من هيبة، ويتركون العامة من ثَمَّ بلا موجه ولا مرجعية.

هكذا اجتمعت الأسباب التي تمكن محمد علي من إقامة نظام شمولي في مصر، ليس فيه من قوة تستطيع أن تقف في وجهه (إذا كان قد حطم قوة المماليك إلى غير رجعة، فإنه ما كان ليستطيع أن ينتصر عليهم؛ فهم أقوياء بأنفسهم وبالدعم الإنجليزي أيضاً لهم - لولا وقوف العامة وقيادتها معه) ولا شك أن البرنامج الاقتصادي والعسكري الذي في ذهنه كان

يتطلب تمكينه من سلب مال الشعب حتى آخر درهم، واستنزاف قوته في أعمال السخرة حتى آخر نقطة عرق، والمغامرة العسكرية في الخارج حتى آخر نقطة دم، دون أن يلقى أي معارضة منظمة.

وقام محمد علي بمحاولة أخيرة لرشوة عمر مكرم واستمالته للدخول فيما دخل فيه غيره من الزعماء من فساد وبيع للضمير، فعرض عليه أن يرتب له كل يوم كيساً، وأن يقدم له عطاءً معجلاً قدره ثلاث مئة كيس، فرفض عمر مكرم رفضاً قاطعاً، ولم يتزحزح عن موقفه المطالب بإلغاء الضرائب الجائرة ورفع المظالم.

كانت مصر قد بقي عليها من المبالغ التي كانت تدفع للحكومة المركزية العثمانية أربعة آلاف كيس، فكتب محمد علي مذكرة للأستانة اختلق فيها أنواعاً من الإنفاق في المرافق العامة كان أهل مصر يعرفون أنها كاذبة لا أصل لها؛ ليبرر عدم الدفع،وطلب من العلماء شهادة الزور والتوقيع على المذكرة، فوقعوا إلا عمر مكرم الذي كان من الواضح أنه قرر فتح المعركة مع محمد علي، ولم يعد يستطيع السكوت بحال. وأعلن السيد عمر جهاراً أن محمد علي سارق مدلس، وقال لرسول محمد علي بحسب الجبرتي: "إن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر".

وهنا قرر محمد علي أن يعزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف وأن ينفيه، ولكنه لكي يضمن لنفسه الشرعية أمام الباب العالي - وربما أمام العامة - جعل العلماء بالذات هم الذين يحاكمون زعيمهم عمر مكرم ويحكمون عليه. فطلب منهم أن يعقدوا له (مجلس شرع)، وأدرك مكرم المؤامرة فلم يحضر المجلس، فأصدر محمد علي قراره بعزل مكرم عن نقابة الأشراف، وتعيين الشيخ السادات مكانه، وكان حاضراً في المجلس، ثم أمر بنفيه إلى دمياط.

وودعت العامة زعيمها بكل حزن؛ وصفه الجبرتي: "وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزناً على فراقه، وكذلك اغتم الناس لسفره، وخروجه من مصر لأنه كان ركناً وملجأً ومقصداً للناس، ولتعصبه على نصرة الحق".

ولنذكر في خاتمة هذا الاستعراض لحياة السيد عمر مكرم ما جرى للزعماء بعد ذلك، فقد وصلوا إلى الحد الأدنى من الأخلاق حتى إنهم لم يترددوا في تنفيذ أمر محمد علي لهم في التوقيع على مذكرة فاجرة مليئة بالأكاذيب والحقائق المقلوبة؛ لتبرير عزل مكرم عن نقابة الأشراف، اتهم فيها مكرم بعكس صفاته المجمع عليها، ولعل هذه المذكرة الفاجرة تعدُّ من أوائل البيانات الفاجرة التي سطرت في العصر العربي الحديث لتشويه سمعة الخصوم السياسيين. وقد وصل الفجور بالمشايخ أن يكتبوا للأستانة أن عمر مكرم سهَّل للإنجليز احتلال الإسكندرية، وأنه سعى لتدبير انقلاب لإسقاط محمد علي، وتولية واحد غيره "وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتحقيق الأغراض النفسية" كما قال الجبرتي.

ولنذكر هنا مع ذلك أن واحداً من علماء القاهرة الكبار وهو مفتي الحنفية أحمد الطحاوي كان من القلة التي ثبتت على الحق، ولم يؤثر فيه لا ترغيب ولا ترهيب، فرفض التوقيع على المذكرة غير آبه بعواقب هذا الموقف، فعزله محمد علي من إفتاء الحنفية بموافقة الزعماء الذين كرهوه بحسب تعبير الجبرتي "كونه تنحى عن الشرور وامتنع من شهادة الزور"، فكان رد فعله الوحيد أنه أعاد الخلع التي كانت قد قدمت له عندما تقلد منصب الإفتاء، وأعاد فروة للشيخ الشرقاوي كان الأخير قد ألبسها له، فسبه الشرقاوي وقال: "انظروا إلى هذا الخبيث كأنه يجعلني مثل الكلب الذي يعود في قيئه!".

وسقط المشايخ بعد هذا سقوطاً مريعاً من عين محمد علي، ولم يعد يحترمهم أي احترام ولا يقيم لهم أي اعتبار، وفي الحقيقة جلب سلوك هذه المجموعة من العلماء النهاية لنفوذ العلماء في مصر، فمنذ ذاك التاريخ فقدوا دورهم المستقل الذي ما كانوا فقدوه قط حتى في أحلك أوقات الاستبداد والطغيان.

وانتهت حياة بعض كبار المشايخ نهاية غير مشرفة، مثل الشيخ محمد المهدي الذي كان قد انصرف لجمع الأموال بأي وسيلة، فخذله محمد علي ولم يوله منصب مشيخة الأزهر، وحين مات قال فيه المؤرخ الذي عاصره وهو الجبرتي "رحم الله عبداً زهد في الحياة الفانية وعمل لما بعدها، ونظر إلى هذه الدار بعين الاعتبار".

وأما السادات فإنه ما كاد ينتقل إلى جوار ربه حتى صادر محمد علي ثروته، وقال للمشايخ الذين حاولوا أن يتوسطوا: "لا يخفاكم أن المتوفى كان طماعاً وجماعاً للمال والخزينة أولى!". وقد هدد محمد علي أرملة السادات بإغراقها في النيل إن لم تقر بكامل التركة.

وكذلك نكب محمد علي واحداً من المتآمرين على السيد عمر مكرم وهو الشيخ الدواخلي فنفاه.

وباختصار يلخص الجبرتي ما جرى لمصر حين خذل زعماؤها عمر مكرم بعبارة دالة: "إن السيد عمر كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلدة، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض".

ومن المحزن حقاً أن نعرف إلى أي درجة وصل انحطاط هيبة العلماء، وكانت هذه مصيبة عظيمة، لعل الأمة لم تزل إلى الآن تعاني آثارها، إذ إن مصر مركز من مراكز الإسلام، وما يحدث فيها يجد صداه في كل عالم الإسلام.

وبعد عشر سنوات من نفيه، وكان خطره قد زال وتثبتت سلطة محمد علي، عنَّ لمحمد علي أن يعيده إلى القاهرة، فما كاد النبأ يصل إلى سكان القاهرة حتى شاع فيهم السرور، وأقبلوا عليه زرافات ووحداناً مسلّمين ومهنئين، فخشي الشيخ المريض من أن يثير احتفال الناس به حفيظة محمد علي وغيرته من جديد؛ فاعتكف ولم يجتمع بأحد.

ولكن في عام ١٨٢٢ بعد أن عم السخط أهل القاهرة من ضرائب جديدة فرضت عليهم لم يتردد محمد علي في أن يعيد نفي عمر مكرم الذي كان قد طعن في السن إلى طنطا، لا خوفاً من عمر العجوز الهرم الذي صار، بل من خيال نفوذه الهائل الذي كان، والذي استند إلى حب الناس واحترامهم ولم يستند إلى البطش والتسلط شأن نفوذه هو، حيث مات بعد قليل في العام ذاته منفياً.

٢

نموذج خام للمثقف التأصيلي الفاعل:
عبد الله النديم

تمهيد:

شهاب ثاقب ظهر في مصر وانطفأ سريعاً شأن كل شهاب: شاعر ذو قدرة لا تصدق على الارتجال، عبقري سياسة، وقائد شعبي ومفكر، خرج من صفوف الشعب، واعتمد على ذاته في تعليم ذاته. رأى ببصيرته مسبقاً ما لم يره المفكرون حتى بعد عقود من موته، وقدم لأول مرة نموذجاً للمثقف الذي جمع الحسنيين: الوعي بضرورة الدفاع عن الهوية والوعي بضرورة العمل النهضوي التغييري لحالة السبات التي كان عليها المجتمع في عصره. إنه عبد الله النديم.

من أبرز صفات النديم التي أقنعتني بأهمية دراسة تجربته؛ وضعه الفريد بين المثقفين العرب السابقين له واللاحقين.

هذا مثقف نشأ في صفوف المجتمع الأهلي، وعاش بين هذه الصفوف، وتكلم لغتها بلا أي تصنع أو تعلم، فهي لغته التي لم يفارقها، وظل كذلك حتى النهاية. إنه لم ينتقل إلى لغة جديدة، ولم يتكلف العودة إلى اللغة الشعبية ليفهمه الشعب أو لأغراض أخرى (كما نجد في زماننا

مثل هذه الحالات التي ينطق فيها المثقف الحديث بلغة شعبية زائفة، ما هي في الحقيقة إلا ترجمة للغة المثقف نفسها!).

لعل الميزة الفريدة للثقافة العربية المعاصرة هي انقسامها الحاد إلى عالمين مختلفين، لا يكاد يكون بينهما نقاط اتصال، ولا يوجد بينهما حوار، وواحد منهما (يخرس) الآخر ويصادر تمثيله، ويمنعه من النطق: عالم (الثقافة المسيطرة)، وعالم (الثقافة السائدة)، الأول: هو عالم النخبة الحاكمة المرتبطة بوشائج التبعية مع المركز العالمي. والثاني: هو عالم المجتمع الأهلي الذي لم تستطع النخبة أن تحاوره أو تخترقه؛ لتوطن فيه رؤيتها للعالم ومقولاتها الكبرى عنه، ونتيجة هذا الفصام، ونتيجة احتكار النخبة لحق النطق، ظهر في المجتمع ناطق وحيد شرعي هو (المثقف) بحصر المعنى؛ أي هو الناطق الثقافي بلسان النخبة المنعزلة، وفي المقابل ظل المجتمع الأهلي بلا ناطق متوشح بلغته وعلاقاته، ناطق داخلي منه وعنه، وكل الصراعات الأيديولوجية التي شهدها القرن الماضي ظلت معزولة عن المجتمع الأهلي، إذ اتخذت جميع الأطراف المتصارعة من هذا المجتمع موقفاً عدائياً.

كان عبد الله النديم أول اختراق لهذا الوضع، فقد مثل محاولة نطق باسم المجتمع الأهلي، وعبَّر عن طموحه لأخذ موقعه في العصر، عبر عن تميزه وعن مشروعه النهضوي في الوقت نفسه، ومن هنا عددته أول نموذج للمثقف التأصيلي الفاعل، (المثقف) المفقود للمجتمع الأهلي، ومنذ انهيار الثورة العرابية، ونفيه، لم يظهر على الساحة العربية مثقف مماثل. وهذا النطق بلسان المجتمع الأهلي جاء من اندماج فريد في هذا المجتمع، ظهر بوضوح فائق حين أخفاه هذا المجتمع في أحضانه لمدة تسع سنوات لم تستطع النخبة أن تجده فيها، فقد كان كالسمكة في الماء، يلبس كل يوم لباساً جديداً من ألبسة مجتمعه بفئاته المختلفة، وينطق كل يوم بلسان فئة من

هذه الفئات، فقد استبطن هذا المجتمع، وشكل علم سيميولوجية تطبيقية له! لم يكن النديم ينطق بلغة المجتمع فقط، لقد كان هو (كلام) اللغة ذاتها بمعناها السيميائي المعاصر الذي يعدها أمَّ الأنظمة الإشارية التي تستوعبها، لا جزءاً منها! لقد نطق بكل لغات هذا المجتمع الإشارية.

في مقالتي هذه أريد أن أتكلم أولاً على عصر النديم، ثم على حياته، وأخيراً أريد عرض سمات مكونة من سمات وعيه، باعتباره مثقفاً تأصيلياً وصاحب رؤية لكيفية الفعل النهضوي.

والاستشهادات في المقالة كافة مأخوذة من المراجع التي يجدها القارئ في الهامش الأول في نهاية المقالة.

أولاً: عن عصر النديم: في التاريخ المصري في القرن الثالث عشر الهجري والقرن التاسع عشر الميلادي:

إن الباحث المتمعن في تاريخ مصر منذ الحملة الفرنسية حتى سقوط الخديوي عباس الثاني (وهو التاريخ الممتد على نحو قرن وثمن القرن) يذهله (صفاء) هذا التاريخ: إنه يشكل خريطة واضحة صافية، لا تشويش فيها للقوى الكبرى الفاعلة في بلادنا، وطبيعة العلاقات ما بينها. وإذا كانت هذه الحدود بعد هذا تداخلت وصار تمييزها أصعب، فهي في الفترة التي نتكلم عليها تقدم لنا نموذجاً صافيا للدراسة، يشبه تقريباً النموذج الصافي الذي يعمل عليه عالم الفيزياء، حين يجرد التجربة من الشروط العرضية المتدخلة، ولا يُبقي إلا على العوامل المؤثرة التي يريد دراسة تأثيرها معزولاً ليتمكن من فهمه، فالذي يريد دراسة تسارع الجاذبية تجريبياً يجرد الأجسام الساقطة من التأثير المشوش لمقاومة الهواء، والذي يريد دراسة ميكانيك التوازن، يفترض أن المادة الداخلة في معادلات التوازن لا تتشوه تحت تأثير القوى المطبقة عليها وهكذا..

هذا النموذج الصافي بصورة تكاد تكون مثالية يقدمه تاريخ مصر منذ الحملة البونابرتية وحتى تنحية الخديوي عباس الثاني، وإن القارئ لتاريخ العرب اللاحق سيرى في كل حدث تقريباً أنه مسبوق بحدث مماثل له في مصر في الزمن المذكور! فكأن تاريخ مصر في هذه الحقبة يشبه الخطاطة الأولية (الكروكي) التي يضعها الرسام خطوطاً عريضةً للوحة يملؤها لاحقاً، ويضيف إليها التفاصيل، ولكن لا يغير في الأساسيات العامة! ففي ذلك الزمان نرى تحالف الحاكم مع الأجنبي ضد الشعب، كما نرى تحالف الحاكم مع الشعب لموازنة تأثير الأجنبي، ونرى كيف يسعى بعض أهل الحكم لاستبعاد الشعب من ساحة الفعل بمجرد الخلاص من التهديد الخارجي، ونرى أيضاً كيف يجبر الاستعمار الحكومات - حتى تلك الجيدة من حيث النيات والإخلاص الشخصي للأفراد - على القيام بخطوات ضد الحركة الوطنية تحت التهديد بالإسقاط.

حتى الاحتلال الذي يموله البلد الضحية وجدناه في مصر؛ حين دفعت الخزينة المصرية نفقات جيش الاحتلال الإنجليزي الذي بدأ بصورته العسكرية السافرة عام ١٨٨٢م. ونجد في تاريخ الحقبة المذكورة ألواناً تكررت لاحقاً من العلاقة بين الجيش الوطني والشعب، فقد شهدنا الصدام بينهما كما شهدنا زماناً عبر فيه الجيش عن أمنيات الأمة. وكل هذه الحالات كما يرى القارئ تكررت لاحقاً في تاريخ العرب.

ظهر المجتمع الأهلي لأول مرة قوةً فاعلةً لها زعامة مستقلة مؤلفة من علماء عاملين في أثناء الحملة الفرنسية. وسبب هذا الظهور كان تقاعس الدولة العثمانية، وعجزها عن الدفاع عن بلد واقع تحت حكمها ورافق عجز وتقاعس السلطة العثمانية المركزية عجز وتقاعس القوة العسكرية المحلية المهيمنة ممثلة بالمماليك؛ لأنها كانت منهارة أخلاقياً عديمة الوعي بالمصلحة العامة، بل وصل بها الانحطاط إلى درجة أنها ما عادت

واعية حتى بمصلحتها الخاصة، المتمثلة في وجودها بالذات. وقد تجلى هذا في رفض أمراء المماليك المتصارعين توحيد قواهم حتى ضد عدو يهددهم جميعاً. وهذا وضع تكرر لاحقاً، فكأنك تستطيع أن تنسخه وتضعه حيث شئت في التاريخ العربي المعاصر! إنه انحطاط (إنسان ما بعد الحضارة) أو (إنسان ما بعد الموحدين)، على حد تعبيري مالك بن نبي رحمه الله! وهو الانحطاط الذي رأيناه في مثال ملوك الطوائف في الأندلس.

نتيجة تقاعس المركز العثماني والقوة المملوكية، تصدى رجال عظام من أولئك العلماء العاملين الذين لم يخل منهم تاريخنا - ولله الحمد على مر العصور - لقيادة جماهير (العامة) التي كثيراً ما نغمطها حقها ولا نرى أنها - رغم كل عيوبها - تحتوي بصورة كامنة على كل قوة هذه الحضارة. ومن هؤلاء العلماء نذكر ذلك البطل الكبير، الذي لم تستطع كل مغريات الدنيا أن تجعله يركع ويخون أمانة العلم وأمانة ولاية الأمر التي قلدته العامة إياها، وهو السيد عمر مكرم.

هذه القوة الشعبية أثبتت أنها قوة جبارة، فاقت بفضل إيمانها ونزاهة قيادتها القوة المحترفة للمماليك وللجيش العثماني الذي كانت له بعض الكتائب الهزيلة في مصر، وهذه القوة الشعبية تمكنت من إلحاق هزيمة كبرى بقوات الإنجليز في معركة رشيد، بعد أن ساهمت في إذاقة نابليون وخليفتيه الأمرّين، وبعد انسحاب الفرنسيين وهزيمة الإنجليز، قلّد العلماء الضابط العثماني محمد علي الولاية مرغمين السلطان في إستنبول على قبول ترشيحهم ضد مرشحه هو، بعد أن أخذوا على محمد علي عهداً بالعدل والحكم وفق شورى العلماء، ولولا هذه القوة الأهلية الهائلة لما استطاع محمد علي أن يتغلب على خصومه المحليين، الذين كان منهم الوالي العثماني الذي سبقه وفرق المماليك. على أن محمد علي

ما إن تقلد الولاية حتى تنكر لعهوده؛ فرشا من كان يقبل الرشوة من العلماء، وعزل ونفى من كان صلب العزيمة لا يلين مثل عمر مكرم.

ويكسر القوة الأهلية وحرمانها من أي مؤسسات وزعامات مستقلة عن الدولة، بدأ محمد علي أول محاولة في التاريخ العربي الحديث لبناء دولة قوية صناعياً وعسكرياً، على أساس نظام فردي مطلق، تحتكر فيه الدولة كل شيء؛ من الصناعة إلى الزراعة إلى التجارة، وهذه المحاولة تمت، شأن محاولات لاحقة كثيرة، على أساس التجاهل شبه التام للمنظومة التشريعية الإسلامية، وفي عزلة عن آراء العلماء، بل إن نفوذ علماء الأزهر الذي كان قد بلغ الذروة قبل مجيء محمد علي إلى السلطة ضرب ضربة قاصمة لم يستفق منها بعد ذلك، في رأيي، أبداً.

ولكن محاولة محمد علي الطموحة اصطدمت بالفيتو الذي وضعته الدول الكبرى، فهي لم تكن تريد دولة قوية تخلف الدولة العثمانية المريضة التي كانت نهباً للتدخلات الأجنبية؛ بسبب الديون والامتيازات المفروضة، والتغلغل المتزايد للنفوذ الثقافي لنخب جديدة متوجهة غرباً.

من هنا أجبر محمد علي بالقوة على التنازل عن مشروع دولة تخلف الدولة العثمانية، وقايض بقاءه على العرش واستمرار عائلته في حكم مصر بمشروعه الطموح. وهذه المقايضة بين المكاسب الشخصية والعائلية الهزيلة والأهداف الكبرى، ستمر بنا لاحقاً مراراً، ولعل أسوأ مثال لاحق عليها كان مقايضة مشروع الدولة العربية الكبرى عام ١٩١٦م بالبديل الهزيل؛ الذي هو الدول منقوصة السيادة التي نشأت في العشرينيات من القرن العشرين الميلادي في سورية والعراق والأردن. وقد أظهر أحفاد محمد علي تراجعاً ملموساً في القدرات الإدارية، وقدراً كبيراً من الاستهتار في التعامل مع السيادة الوطنية، فالخديوي سعيد وقع عقد حفر قناة السويس بشروط مجحفة كل الإجحاف. أما الخديوي إسماعيل الذي جاء بعده،

فكان من أكثر الحكام الذين عرفتهم مصر ظلماً واضطهاداً للشعب. ومن المدهش أن نرى كيف اجتمعت تربية هذا الخديوي الأوروبية مع نزعة للاستبداد المطلق اعتاد التراث الاستشراقي الأوروبي أن ينسبها إلى الثقافة الشرقية، والخديوي إسماعيل يقدم لنا أول مثال على تأثير ظاهرة الاستلاب المدمر في أعلى مستوى من مستويات الهرم السياسي في بلادنا! وهذه النزعة المنبهرة بشكل الثقافة الغربية دون مضامينها الأساسية؛ كالصناعة والعلم الطبيعي، قادت هذا الخديوي إلى سرف جنوني وكرم حاتمي مع أصدقائه من الفرنسيين والإنجليز بمقابل استغلال فظيع لا يرحم للأهالي، ويصف النديم مظالم هذا العهد الذي صودرت فيه أراضي مصر الغنية لصالح الملكية الخاصة للخديوي بطرق ظالمة، قادت في فترة قصيرة إلى أن يصبح شخصياً مالكاً لخمس أراضي مصر، لقد كان يحصل الضرائب من الفلاحين بطرق وحشية، معطياً الصلاحية للمحصلين أن يعذبوا ويقتلوا في هذا السبيل، وقد كان إملاق الفلاحين عاملاً في غنى المرابين الأجانب، الذين كانوا يستغلون بآن واحد فقر الفلاحين المدقع وجهلهم بالقراءة والحساب، وفي وصف بليغ لوضع مصر تحت حكم الخديوي إسماعيل يقول النديم: "ولو أن سائحاً جوياً صعد في درجات الهواء إلى حد يرى ويسمع من تحته أهالي البلاد، لرأى أمة تتقلب على جمر العذاب، على غاية من الاختلاط والاختباط، ولسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة، تزعج السامع، وتستفز الهاجع، وتفتت قلب من أودع ذرة من الإحساس الإنساني وما هي إلا مزيج نفثات تقذف بها الصدور المُوْقَرة، والقلوب المكتئبة، تصعد بها الأنفاس المحترقة"[1].

---

(١) نجيب توفيق، ص ١٨٧. قلت: من المؤسف أن نرى موقف "الإخوان" في مصر الذي أيّد إعادة الأراضي التي وزعت في الإصلاح الزراعي على الفلاحين إلى مالكيها. صاغوا التأييد لا على أساس اقتصادي أو مصلحي؛ بل على أساس شرعي مزعوم مهملين المبدأ الشرعي الذي يقول: إن الاغتصاب =

وقد أنفق الخديوي إسماعيل نفقات باهظة على شهواته الخاصة، وعلى أعماله الإنشائية التي كان معظمها مظهرياً استهلاكياً لا قيمة إنتاجية له، وشجعه مستشارون سيئون على الاستدانة من البنوك الغربية، ولا سيما الفرنسية والإنجليزية، وبحجة الديون فرضت الدول الدائنة رقابة على الاقتصاد المصري، بل عينت وزراء أوروبيين في الحكومة المصرية، وفي محاولة متأخرة لموازنة التأثير الأجنبي لجأ الخديوي إلى إنشاء (مجلس شورى القوانين) عام ١٨٦٦ وهذا المجلس كان محدود الصلاحية في الأصل غير أنه اكتسب أهمية متزايدة بعد ذلك.

وفي عهد الخديوي إسماعيل تكتل الضباط الوطنيون في الجيش ضد القيادة العسكرية التي احتكرها الشراكسة، وضد الوزارة التي هيمن عليها الأجانب وأداروها عملياً، وقد تفاعل الضباط مع مجموعة المثقفين التي تحلقت حول المفكر الكبير جمال الدين الأفغاني الذي وفد إلى مصر عام ١٨٧١، وهذا التحالف سمي مجازاً في وثائق تلك المرحلة (الحزب الوطني) على أن نفهم أنه تيار لا حزب بالمعنى الذي نعرفه الآن، وألّا نخلط بينه وبين (الحزب الوطني) الذي شكله مصطفى كامل لاحقاً، وقد كان من علامات ازدياد قوة نفوذ الوطنيين إقالة وزارة نوبار باشا الموالية للتدخل الإنجليزي الفرنسي، وتكليف شريف باشا بتشكيل الوزارة بعد استقالة وزارة لم تعمر طويلاً رأسها ولي العهد الأمير توفيق، وفي عهد شريف باشا ازدادت صلاحيات مجلس شورى النواب، وصار يتدخل في الميزانية مما يتناقض مع مصالح الدول الدائنة. وفي عام ١٨٧٩ عُزِل الخديوي إسماعيل في استجابة ظاهرية لمطالب الوطنيين بقيادة جمال

= مهما طال أمده لا يصبح حقاً! فالإخوان في غمار حقدهم الذي لا يخلو من مشروعية على النظام الناصري فقدوا الإحساس بالإنصاف؛ فهذه الأراضي انتزعت غصباً من الفلاحين على أيدي أسرة محمد علي، مما قاد إلى وضع لا إنساني من الاستعباد والإملاق لا يمكن أن يرضاه الإسلام.

الدين الأفغاني، ورضوخاً في الواقع لرغبة الإنجليز، وتولى الخديوي توفيق الذي كان - حتى ذلك الحين - على علاقة جيدة مع الوطنيين، وكان يعلن أنه تلميذ للأفغاني وأنه سيعتمد عليه في الإصلاح.

بعد كل هذه التطورات التي يفترض أنها منسجمة مع القيم الديمقراطية الغربية؛ إذ صارت الوزارة تأتمر بأمر المجلس النيابي وزال الطابع المطلق للحكم كان الفرنسيون والإنجليز أكثر من عارض هذه الديمقراطية، وأكثر من سعى إلى إعادة "نظام الاستبداد الشرقي"! وهذا ما سيتكرر كثيراً في التاريخ العربي اللاحق!.

سرعان ما تنكر الخديوي توفيق إذن للإصلاح والإصلاحيين، وضاق ذرعاً بالمجلس النيابي وبالوطنيين وذراعهم الضارب في المؤسسة العسكرية، وأقال شريف باشا الذي كان قد أنجز دستوراً عرضه على الخديوي فرفضه، ثم نفى جمال الدين الأفغاني من مصر، وفي خريف ١٨٨١ تحولت المواجهة مع كتلة الضباط الوطنيين إلى مواجهة صريحة، واستطاع هؤلاء أن يفرضوا بالقوة على الخديوي إقالة وزير الحربية المعادي لهم، وتعيين محمود سامي البارودي بدلاً عنه.

وتبلورت مطالب الوطنيين في نقطتين: إسقاط حكومة رياض التي خلفت شريف باشا، وأعادت المراقبة الثنائية على المالية. وإنشاء نظام دستوري(١).

لكن الخديوي أقال البارودي وعين بدلاً عنه داوود يكن، فنفد صبر الضباط بقيادة عرابي الذي قاد المظاهرة العسكرية الشهيرة إلى ساحة عابدين في يوم ٩سبتمبر ١٨٨١، وواجه الخديوي الذي كان يقف إلى جانبه القنصل البريطاني العام قائلاً عبارته المشهورة: "لقد خلقنا أحراراً

---

(١) نزيه حمزة، الفصل الأول.

ولم نخلق تراثاً وعقاراً، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم".

ويصف النديم هذه الحادثة في مذكراته: "ولما وصل عرابي إلى عابدين حاصر الخديوي والظالمين، فنزل إليه الخديوي وناداه فهرول إليه عرابي ولباه، فقال له: لِمَ فرقت في الجند التذاكر وجمعت حولي هؤلاء العساكر؟ فقال: نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة، وفتح مجلس شورى للأمة، ووضع حدود للحاكم والرعية، وسن قانون معاش لمعاش الجهادية. فقال الخديوي: هذا الطلب ليس من وظيفتك فلِمَ تظاهرت بشيعتك؟ فقال عرابي: لست أطلبه وأنا عسكري الصفة بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة"[1]. وقد كانت حركة أحمد عرابي - كما نرى - تزيد عن كونها مجرد حركة عسكرية، فقد شاركت فيها الجماهير الأهلية مشاركة ملموسة، فإذا كنا سنَعُدُّ حركة السيد عمر مكرم ضد الاحتلال الفرنسي حركةً شعبيةً صافية مستقلة عن الجيش، وحركة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ حركةً عسكرية صافية، فإن حركة عرابي جمعت الخصلتين. وهذا ما نريد إلقاء بعض الأضواء عليه من خلال الفقرة التالية التي تؤرخ لحياة عبد الله النديم.

ونتج عن المظاهرة سقوط وزارة رياض. وتشكلت وزارة جديدة برئاسة شريف باشا كان البارودي وزير الحربية فيها، ثم قدم شريف باشا إلى المجلس النيابي الجديد وزارته، وقدم مشروع الدستور في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٢؛ وفيه توسيع نظام الشورى والعمل على حماية المصالح العامة، وأن يراعي المجلس خير البلاد والحكومة، وألّا تفرض ضريبة إلا بعد موافقة مجلس النواب عليها، وأن تشكل لجنة تدرس مشروع الدستور. ولم تعجب قرارات المجلس فرنسة وبريطانية، فأرسلتا

(١) الدكتور محمد أحمد خلف الله، ص ٥٩ - ٦٠.

مذكرة مشتركة في ٧-٢-١٨٨٢ تقول: "إن الحالة الراهنة تهدد الخديوي وتحد من سلطته، وإنهما سوف تمنعان الأخطار عن حكومته".

ثم أرسلت الدولتان مذكرة أخرى تطلبان فيها أن يؤجل المجلس النيابي معالجة المسألة المالية[١].

ورفض النواب التدخل الفرنسي البريطاني، فاستقال رئيس الوزراء، وشكلت حكومة جديدة، كانت بمثابة الاستيلاء النهائي للوطنيين على الوزارة، وبداية ازدواجية السلطة مع الخديوي. كان محمود سامي البارودي رئيساً للوزارة، وأحمد عرابي وزيراً للحربية والداخلية.

هنا بدأت نذر التدخل العسكري الأجنبي تظهر، وبدأت الصحف اللندنية والباريسية تمهد للتدخل بالهجوم على المصريين واتهامهم بالتعصب الديني، وهو اتهام في غاية الغرابة ويستحق التأمل، إذ لا توجد أي وثيقة من وثائق الوطنيين فيها ولو ظل بسيط من (تعصب ديني)، وكل الخلاف بين الوطنيين والخديوي، وبين الوطنيين وإنجلترة وفرنسة، وأخيراً بين الوطنيين والضباط الشراكسة، كان واضحاً أنه يقوم على أسس حقوقية، وعلى أسس المطلب العام بالمساواة وحرية الرأي التي لا تكاد في مفهومها تختلف عن مطالب ميثاقيي كرومويل الإنجليز، وثوريي فرنسة عام ١٧٨٩ و١٨٣٠ و١٨٤٨! فكيف ألصقت بحركة كهذه تهمة التعصب الديني؟! هاهنا نرى الأمانة والنزاهة الاستعمارية في وصف حركات التحرر، فكما قال ضحية مزمن للظاهرة الاستعمارية وواصف دقيق لها هو مالك بن نبي رحمه الله: إن الاستعمار لا يرضيه أن يقتل الضحية، بل يريد أن يلطخ شرفها بالعار أيضاً!، وللقارئ أن يتذكر أمثلة على هذه الحقيقة فهي كثيرة.

---

(١) نزيه حمزة - الفصل الأول، نقلاً عن كتاب أمين سعيد (تاريخ مصر السياسي).

انتصر مجلس النواب إذن وجاء بالحكومة الوطنية وأعلن الدستور الجديد: "عمت البلاد موجة فرح شاملة، وسرت في النفوس هزة النصر التي لا تقدر وأمل الناس أن الحكم النيابي سيصلح مفاسد الماضي، ويرسم السعادة للحاضر والمستقبل، وتقاطرت الوفود إلى العاصمة من أنحاء البلاد تعبر عن شعور الغبطة لهذا الحدث الكبير"[١].

تطور الصراع بين الخديوي توفيق والوزارة الوطنية، وأعتقد أن الباحث المدقق في تاريخ تلك الفترة لن يرفض فكرة بسيطة توصلت إليها شخصياً تقول: إن هذا الصراع ما كان حتمياً بحال، وإن الذي قاد إليه هو فرط الكبرياء الاستبدادي عند الخديوي، وقصر نظر السلطنة العثمانية كما سنرى، وكانت نتيجة هذا الكبرياء مدمرة؛ فقد استعان الخديوي بالإنجليز الذين كانوا ينتظرون الفرصة، وفي هذا الصراع فقد الخديوي توفيق كل ارتباط روحي ووجداني بشعبه، فمما يذهلنا أن نرى أن الخديوي بالذات هو الذي زعم أن الجاليات الأجنبية في خطر، وأنها معرضة لاعتداءات شعبه، مما قدم الحجة للإنجليز لغزو مصر. وقد كان هذا الادعاء كاذباً بصورة مطلقة، والذي جرى أن رجال الخديوي دبروا عمليات اعتداء واسعة على الأجانب في الإسكندرية، ثم حين أراد مجلس النواب التحقيق فيها عرقل الخديوي هذا[٢].

وفي هذه الظروف عاد الخديوي توفيق إلى أصله البعيد: لقد رأى في نفسه من جديد ابن عائلة ارستقراطية ملكت مصر ملكية خاصة، وهاهي مصر تتمرد عليها، فانتقل إلى الإسكندرية ليكون إلى جانب الجيش الإنجليزي.

---

(١) الدكتور علي الحديدي، ص ١٧٣ نقلاً عن سليم خليل النقاش. (مصر للمصريين- ج٤).

(٢) مذكرات النديم، نشر الدكتور خلف الله، ص٦٨.

وشرع عرابي في بناء التحصينات ووزع السلاح واستنفر الشعب، وحين بدأ القصف الإنجليزي كان الخديوي يقول: "لتحرق الإسكندرية، حرب بحرب على رأس عرابي ورؤوس أولاد الكلب الفلاحين" ولم تكن الحرب أمراً خص الجيش فقط، فقد شارك الشعب المصري بنسائه وأولاده وكباره وصغاره. يقول الشيخ محمد عبده: "تحت نيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الإسكندرية ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى رجال المدفعية المصرية"[1].

وأصدر الخديوي بياناً أعلن فيه أن عرابي عاص وأن كل من يسانده عاص أيضاً، وتمكن الإنجليز من استصدار بيان يعتبر لطخة عار في تاريخ السلطان العثماني عبد الحميد يعلن فيه أن ممثله الشرعي في مصر هو الخديوي توفيق، وأن عرابي عاصٍ هو ورفاقه، وأنه يهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العثمانية، صحيح أن بصمات الإنجليز واضحة في بيان السلطان، ولكننا سنكون ساذجين إذا لم نلمح في البيان هذا التأثير المديد لمرض قديم في السياسة الإسلامية، بدأ برأي مالك بن نبي في صفين؛ أي مع نهاية العهد الراشدي وبدء عهد الملك العضوض القائم على نظرية تقول: "إنما أنتم وأموالكم ملك لي ولأبي"! ولا ترى الرأي الراشد الذي يقول: إن الولاية تكليف لا تشريف، وإنها مسؤولية، وإن الله يسأل الراعي عن رعيته التي هي أمانة يحفظها، وليست ملكية يحق له أن يبددها كما يشاء!

واستعملت الرشوة مع ذوي النفوس الضعيفة في الصف الوطني، وحين هزم الإنجليز هزائم نكراء في الإسكندرية استغلوا سذاجة عرابي، الذي صدق تعهد فرديناند ديلسبس مخطط مشروع شق قناة السويس بأن الإنجليز لن يخالفوا المواثيق الدولية، ويستعملوا القناة في الهجوم من

---

(١) نزيه حمزة، الفصل الأول نقلاً عن (مذكرات الإمام محمد عبده).

الشرق. خيانة المرتشين وهذا الهجوم من الشرق عبر قناة السويس قاد إلى هزيمة الجيش والأهالي في معركة التل الكبير، ودخل الإنجليز القاهرة ومعهم الخديوي توفيق الذي مر بين صفين من الجنود الإنجليز ليدخل مقر حكمه، وليبدأ عهد الاحتلال الإنجليزي الواقعي المستند إلى حكومة الخديوي الصورية. بعد هذا نفي عرابي ورفاقه وهرب خطيبهم وزعيمهم الأهلي عبد الله النديم إلى أحضان الأهالي، خائضاً تجربة تخفٍّ أسطوري دام تسعة أعوام.

ثانياً: حياة عبد الله النديم

ولد عبد الله النديم في الإسكندرية عام ١٢٦١ هجري١٨٤٥ ميلادي وتوفي عام ١٣١٤ هجري ١٨٩٦ ميلادي، كان أبوه مصباح بن إبراهيم شاباً أتي به في زمن محمد علي من قرية الطيبة بمديرية الشرقية، ليعمل نجاراً في ترسانة السفن الضخمة التي كانت واحدة من المنشآت الجديدة التي أقامها محمد علي وجزءاً من مشروعه الصناعي العسكري الكبير. وفي عام ١٨٤١ هُزم جيش محمد علي في الشام وأُجبر على التقهقر، وصدر فرمان ١٨٤١ من الباب العالي الذي خفض فيه تعداد الجيش المصري من٢٧٧ ألف إلى ١٨ ألف جندي، وأُغلقت المصانع الحربية التي كانت تمول الجيش، وكانت الترسانة من جملة ما أغلق، فسرح عمالها، وكان من بينهم مصباح والد النديم الذي انتقل إلى مهنة الخباز، وعاش في حي فقير بالإسكندرية. وحين كبر الطفل قليلاً أرسله أبوه إلى الكتاب، فأظهر ذكاءً في التعلم وحفظ القرآن، مما شجع أباه على أن يرسله إلى مدرسة الجامع الأنور، وكانت تنحى في دروسها منحى الأزهر، وأمضى النديم عدة سنوات يتلقى فيها العلوم الأزهرية المعهودة، ولكنه في النهاية لم يكمل الدراسة إذ استهوته حلقات الشعراء والزجالين

التي كانت موجودة في ذلك العصر، فتعلم فنون الشعر الفصيح والعامي، كما كانت في ذلك الوقت، وبدأ يدخل مع أولئك الشعراء الشعبيين (الأدباتية) في مساجلات شعرية كثيراً ما انتهت بانتصاره عليهم، والذي يظهر من شهادات معاصريه أنه كان صاحب موهبة شعرية لغوية كبيرة وصاحب قدرة على المحاججة المنطقية أيضاً، ولنتذكر هذه الموهبة اللغوية - المنطقية إذ يبدو لنا أنها من العوامل المكونة للمثقف الفاعل.

واستاء والد النديم لتركه طلب العلم قبل إكماله؛ فخيره بين أن يبقى طالباً فيستمر في الإنفاق عليه، وبين أن يستمر في غيه ومصاحبته للزجالين والأدباتية ويتركه في هذه الحالة ليعتمد على نفسه في العيش، فاختار النديم الحل الثاني.

وكأن عبد الله اختار لنفسه مهنة المنادمة، مدفوعاً إلى ذلك بموهبة خارقة في اللغة والارتجال الشعري والمحاججة، وفن طرح المسائل بشكل جذاب يستميل القلوب والمشاعر، وكل هذه المواهب صنعت منه واحداً من أعظم خطباء العرب عبر العصور كما تجمع على ذلك شهادات معاصريه. يقول أحمد تيمور عنه: "كان شهي الحديث، حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز، لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا" وقال عنه جرجي زيدان: "أما أخلاقه فكان باراً بوالديه وذوي قرابته وقصاده، ولم يكن يعرفهم فما أقرض شيئاً وطالب به، ولا رد يوماً سائلاً ولا خضع لعظيم قط، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأواسطهم، وكان ذكياً فطناً قوي الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ثائراً".

وشهادة جرجي زيدان في غاية الأهمية لنا فيما أعتقد في بحثنا عن العوامل التي كونت هذه الحالة الخام من المثقف التأصيلي الفاعل؛ فهو

قد ذكر خصلتين أراهما جوهريتين ليتوافر الاستعداد؛ ليتحول الشخص إلى مثقف من هذا النوع هما: الجرأة، والتعاطف مع "صغار الناس" وعدم الخضوع "لكبارهم".

ويقول أستاذه جمال الدين الأفغاني: "إنه ما رأى مثل النديم طوال حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة، وشدة العارضة، ووضوح الدليل، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خاطب أو كتب"[1].

خرج النديم من الإسكندرية إذن متوجهاً إلى القرى، ملتمساً الحلقات الأدبية ومجالس السمر التي كان يقيمها هواة الأدب من الأدباء ومن الأغنياء أيضاً، فاشتهر شهرة واسعة بحسن حديثه، وهذه الشهرة امتدت سنوات بعد اختفائه، حتى كان وهو متنكر متخف حين يتكلم يقولون: لولا أن النديم مات (وكانت هناك إشاعة أنه مات) لظننا أن هذا هو النديم، ولكن سبحان الذي لا يشبهه أحدا.

وقد عيَّره بعض شانئي الثورة العرابية لاحقاً بأنه كان فيه تهريج، بل قرأت هذا الرأي عند العقاد أيضاً، وسأبدأ الرد عليه بالاستشهاد بما قاله باحث هادئ منصف هو الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - الذي ذكر ما أُخذ على النديم من قَبوله لدور المساجل مع الأدباتية فقال: "والحق أن وضع المسألة هذا الوضع فيه كثير من التزمت والتعنت، كالذي تعرض على مسامعه الفكاهة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحوياً أو لفظاً لغوياً، وكمن ينتقد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا، والغني واسع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء. فالمسألة لا تجاوز أن تكون طرفة لطيفة، وفكاهة ظريفة، وقوانين الظرف تبيح من البحبحة في المجالسة ما لا تبيحه في مجالس الجد والوقار"[2].

---

(١) نجيب توفيق، ص١١٦-١١٧.

(٢) أحمد أمين، ص- ١٥٠.

وفي الحقيقة كان النديم يتصرف بما تجيزه أخلاق عوام المجتمع الأهلي فقد كان منهم، والمعترضون كانوا يأخذون عليه أنه لم يسر في حياته على أخلاق النخبة المسيطرة وسلوكياتها، ولم يتنبَّهوا إلى أن النديم كان مثقفاً مختلفاً عن مثقفي تلك النخبة. وأريد في هذه المقالة أن أحاول البرهان على أنه كان مختلفاً.

وفي تنقله تعرف على أحوال الناس ومعيشتهم في ذلك العصر، وعاشر مختلف أنواع الطبقات، وانطبعت في أعماق نفسه الحساسة في آن واحد لغة الشعب وآلامه، فعبَّر عنها أولاً ثم حاول أن يكون لسان آمالها لاحقاً،وهو يقول عن هذه الفترة في حياته: "أخذت عن العلماء وجالست الأدباء، وخالطت الأمراء وداخلت الحكام، وعاشرت أعيان البلاد وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة، وأدركت ما هم فيه من جهالة ومم يتألمون وماذا يرجون، خالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين، وألممت بما انطبع في صدورهم عن أشعة الغربيين، ورأيت أفكارهم عالية وسافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم، واختلطت بأكابر التجار وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة، واستخدمت في الحكومة المصرية وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كساني نحول الشيخوخة في زمن غضاضة الصبا، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء، فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين"[١].

---

(١) نجيب توفيق، ص ١٠١.

تكاد هذه الفقرة تلخص الأساس المعرفي؛ بمعنى الخبرة المكتسبة من التجربة ومن المطالعة، للبعد الأول من بعدي شخصية النديم مثقفاً تأصيلياً فاعلاً: البعد التأصيلي؛ فهو هنا عرف بعمق مكونات الذات الحقيقية، ومكونات المرجع الاستلابي معاً، لقد عرف واقع المجتمع الأهلي وثقافته، وعرف المنخلعين عن هذا المجتمع، وألَمَّ بالصورة العامة لعلاقات هذا المجتمع مع القوى والثقافات المحيطة به، وإن حياة النديم اللاحقة لتظهر لنا بوضوح تام أنه وقف بشموخ ووضوح رؤية في وجه الاستلاب للثقافة الغازية وعبَّر عن المصالح المادية للمجتمع الأهلي، وعن الهوية الثقافية المتميزة لهذا المجتمع متفوقاً بقدر كبير جداً على مثقفي "العصر اللبرالي" اللاحقين. (مصطلح (العصر اللبرالي) الذي جاء به ألبرت حوراني لذلك العصر في كتابه "الفكر العربي في العصر اللبرالي ١٧٩٨-١٩٣٩" هو التوصيف الصائب، وهو أدق من وصف (عصر النهضة)، ولكن جهد حوراني ذهب عبثاً مع الأسف، فحتى كتابه الذي صدر عن دار النهار في بيروت وترجمه كريم عزقول غُيِّر عنوانه إلى "الفكر العربي في عصر النهضة"!).

وهاجر النديم وسنه ١٧ عاماً إلى القاهرة، ونزل على صديق له محب للأدب يعمل مفتشاً في السكة الحديد، وهناك وجد الحكومة تبحث عن شبان ليتعلموا فن التلغراف فتقدم النديم لدراسة هذا الفن وأتقنه بسرعة. ثم عين (تلغرافياً) في مكاتب تلغراف مختلفة، وكان آخر مكان عين فيه هو قصر الأميرة خوشيار خانم أم الخديوي إسماعيل؛ وكانت امرأة واسعة النفوذ في عهد ابنها. وتعرَّف في أثناء وظيفته على شتى المنتديات الأدبية في القاهرة ومنها ندوة حسن البارودي والد محمود سامي البارودي، وندوة أحمد وهبي وغيرها. وفي القاهرة واصل في الأزهر دراسته الدينية واللغوية التي كان بدأها في الجامع الأنور في الإسكندرية.

وفي هذه الفترة وقع له واحد من أهم أحداث حياته، وهو تعرفه على مجلس الأستاذ جمال الدين الأفغاني الذي كان جاء إلى مصر عام ١٨٧١، ولا ريب - أن المثقف التأصيلي الذي ذكرت قبل قليل: كيف كوَّن أساسه المعرفي، هو من كوَّن مع جمال الدين الأفغاني الأساس المعرفي لمرحلته الثانية: مرحلة المثقف الفاعل.

قدَّم جمال الدين الأفغاني لتلاميذه لأول مرة فكرة أن العالم الإسلامي في وضع انحطاط، وأن المطلوب تجديده وإنهاضه على أساس تخليص العقيدة مما علق بها من شوائب البدع، والعودة بها إلى أصولها الصحيحة، ولم يكن الأفغاني مجرد مدرس، بل كان أيضاً مربياً يمتلك تلك الشعلة الروحية المتوهجة التي تنتقل طاقتها الهائلة إلى التلاميذ "فلم يكن يقف بالعبارة في شرحه عند ألفاظها ومعانيها بل يستخرج منها قوة حية تسري إلى النفس فتحركها إلى العمل، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التي تدار فتنبعث منها قوى الكهرباء لا يستقر عليها قرار"[١].

وأدخل الأفغاني على تلاميذه فكرة الحق في محاسبة الحاكم؛ فكان يؤنب المصريين على رضوخهم للاستعباد، ويحضهم على طلب حقوقهم المغصوبة[٢].

وفي مجلس الأفغاني تكونت نخبة مثقفة متحمسة لتغيير الوضع الاجتماعي المنحط "وصار يحملهم على الكتابة، ويمرنهم على الخطابة، ويرشدهم إلى إنشاء المقالات الأدبية والحكمية والعلمية في مواضيع مختلفة"[٣].

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٤٤.
(٢) نجيب توفيق، ص ١١٣.
(٣) د. علي الحديدي، ص ٤٤.

ويصف الشيخ رشيد رضا في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) نتيجة العمل التربوي للأفغاني أن تلاميذه أصبحوا يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم إذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته فسيصلحونها في أقرب وقت[1].

ودامت تلمذة النديم على الأفغاني أربعة أعوام، ولكنه فجأة طرد من قصر الأميرة خوشيار بعد أن غضب عليه كبير أغوات القصر، فخرج من القاهرة عائداً إلى سيرته الأولى من التنقل بين البلاد، معتمداً على موهبته الأدبية مخالطاً الفلاحين وأعيان الريف، حتى وصل خبره إلى مفتش الوجه البحري شاهين باشا الذي سمع أبياتاً مُغناة أعجبته فسأل عن قائلها، فقيل له: إنه عبد الله النديم، فأحضره وحين رآه "استقبح صورته إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ومال إليه فاتخذه نديماً لا يمل ورفيقاً حيث حل". (العبارة لأحمد تيمور من كتابه "تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر"[2].

وسأذكر للقارئ هنا مثالاً واحداً على قدرات النديم في ارتجال الشعر ليأخذ فكرة عن سبب الإعجاب الواسع بالنديم؛ فقد حضر اجتماعاً عند شاهين باشا تحامل عليه فيه الحاضرون وتحدوه أن يعارض دالية المتنبي:

أقل فعالي بله أكثره مجد ... وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

زعم واحد من حاضري المجلس أنه لا يمكن لشاعر أن يعارض قول أبي الطيب في القصيدة:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بد

فأمسك النديم بالقلم وكتب قصيدة أولها:

---

(١) د. علي الحديدي، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

سيوف الثنا تصدا ومقولي الغمد   ومن سار في نصري تكفله الحمد

وفيها معارضة بيت المتنبي السابق.

ومن عجب الأيام شهم له حجا   يـعـارضـه غـر ويـفـحـمـه وغـد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما   لتحفظ أعراض تكفلها المجد[١]

وعند شاهين باشا تعرف على واحد من الحاشية الخديوية هو تتونجي بك، فعينه وكيلاً لدائرته مما أتاح له فرصة التردد على القاهرة من جديد. وهناك عاد ليزور مجلس جمال الدين الذي كان قد قطع شوطاً بعيداً في تهيئة الحركة الإصلاحية النهضوية. وفي عام ١٨٧٩ عاد النديم إلى الإسكندرية ليساهم في تحرير صحيفتي (مصر) و(التجارة) بادئاً بهما نشاطه الصحفي اللامع، وكانت هذه العودة بداية للحقبة التي أسميها "الحقبة الفاعلة" في حياة النديم باعتباره أول نموذج قدمه تاريخنا للمثقف التأصيلي الفاعل.

في هذه النقطة أود التوقف قليلاً عند طبيعة العلاقة الفكرية بين جمال الدين الأفغاني والنديم.

لا شك أن النديم كان من تلاميذ جمال الدين الذين تأثروا به تأثراً كبيراً جداً، ولكن أكان هذا التأثر من نوع التقليد الأعمى والنسخ؟ أم كان تأثير أستاذ وجد استعداداً مسبقاً وخبرة وتجربة خاصة متميزة عند التلميذ فشجعه وصاغ تجربته ورؤاه بلغته واصطلاحاته الخاصة، ولكن تجربة التلميذ المتميزة جعلته يقولب أفكار الأستاذ ويعدلها كما يرى؟

لقد كتب الباحثون في فكر الإمام محمد عبده كثيراً عن الفروق بينه وبين أستاذه، ولكنني لم أجد فيما قرأت من كتابات عن النديم محاولة لإظهار الفرق بين النديم وبين جمال الدين.

(١) د. علي الحديدي، ص ٥٥-٥٦ نقلاً عن أحمد سمير، الذي شهد المجلس نفسه.

في مذكرات النديم التي نشرها الدكتور محمد أحمد خلف الله حديث عن جمال الدين، يتكلم فيه (بصورة قد لا تخلو من غرابة) عن جمال الدين على أنه "سبقه إلى تشجيع الخائفين"، بعد أن قص قصة جهوده النهضوية في مجال الجمعيات الخيرية والمدارس والخطب، يقول:

"وكان قد سبقني إلى تشجيع الخائفين الشيخ محمد جمال الدين، فإنه ألف حزباً من الشبان، وجمع إليه بعضاً من الأعيان، وبث فيهم روح الغيرة الوطنية وملأ آذانهم بالمفاخر الشرقية، فنبغ بحثّه أذكياء ونبلاء، ونفع بعلومه أساتذة فضلاء، غير أنه كان يستعمل وجهة خصوصية، ويؤمل رفعة ذاتية، ومزج بالاعتقاد ما وجه إليه الانتقاد، ثم عدل بهم عن أنديته الأدبية إلى المحافل الماسونية، فحقد عليه البعض ولكنه لزم الغض. ثم اشتهر بعض تلامذته بفساد العقيدة ومعارضة الدين الشديدة، إما بخطأ الفهم أو التلقين فانحرف عنه كثير من المؤمنين. ولما آل الأمر إلى الخديوي توفيق باشا وترأس رياض باشا كان أول ما بدأ به من العمل مصادرة هذا الرجل ورماه بفساد الدين، وجعله من كبار الملحدين، وأرسل إليه من تبعه واقتفاه، ثم قبض عليه ونفاه. ومع ما اعترى جمال الدين من النحوس فإنه أثر في كثير من النفوس. ولو حافظ على العقيدة ومشى في الناس بسيرة حميدة ونشر دعوته في البلاد بما له من الاستعداد، لأتى بكل غريب وقلب الحكومة في عهد قريب"[(١)].

وهذا النص عن جمال الدين الذي كتبه النديم في غمار تلخيصه لتاريخ مصر الحديث حتى الاحتلال - وقد كتبه في فترة التخفي - يدلنا بوضوح لا مزيد عليه أن النديم كانت له انتقادات على جمال الدين الأفغاني، ولم يكن يتبعه تبعية عمياء، فهو يأخذ عليه أنه لم يكن على عقيدة سوية كل السواء، وأنه عدل عن النوادي الأدبية، ودخل في

---

(١) د. محمد أحمد خلف الله، ص ٥٢-٥٣.

المحافل الماسونية، وأن بعض تلامذته (وأظنه يعني أديب إسحاق) كان فاسد العقيدة معارضاً للدين.

على أنه كما رأينا لم ينكر حسنات جمال الدين، وفي اعتقادي أن جمال الدين كان هو الذي بث فكرة بعث الإسلام في قلوب المسلمين، بعد أن غُطيت نواته الأصلية بشوائب عصور السبات الحضاري، غير أنه ما كان موفقاً في مفهومه العملي للتغيير، وإذا أحسنا الظن به فسنقول إن تعامله مع الماسونية كان ناتجاً عن حداثة عهد المسلمين بهذه البدع الأوروبية، وانخداعهم بشعاراتها البراقة؛ وقد كان لهم - لعمري - في الإسلام مندوحة لو عقلوا، فهو الدين الذي طرح أولاً فكرة المساواة بين البشر، وفكرة بناء نظام عالمي عادل لا عنصرية فيه ولا تعصب قومي. وسأكتفي في هذا المقال بهذه الإشارة إلى طبيعة التفاعل النقدي بين النديم والأفغاني، وأترك القارئ ليرى بنفسه فيما يلي من المقالة الشخصية الخاصة المتميزة للنديم في جانبيه؛ النظري الذي يخص رؤيته للواقع، والعملي الذي يخص رؤيته لآلية النهضة الحضارية المنشودة.

حين عاد النديم إلى الإسكندرية بداية عام ١٨٧٩ وجد اثنين من أصدقائه يعملان في جمعية سرية اسمها "مصر الفتاة" تهدف إلى القضاء على ديكتاتورية إسماعيل، وإقامة حكم الشورى. فحاول النديم إقناع الأعضاء بتحويل الجمعية إلى جمعية علنية تعمل للإصلاح. وكان أول نشاط قام به هو الكتابة في جريدتي (مصر) و(التجارة) فأُعجب القراء بمقالات النديم التي صاغها صياغة مرسلة من دون محسنات لفظية[1].

وفي اعتقادي أن الفعالية النهضوية للنديم تجلت في ثلاثة نشاطات

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٨٤ نقلاً عن كتاب أحمد تيمور (مصدر سابق).

مرتبط بعضها ببعض: نشاطه في تأليف الجمعيات الخيرية التي ترعى افتتاح مدارس جديدة، ونشاطه الخطابي، ونشاطه في الصحافة.

أسس النديم أول جمعية خيرية سماها (الجمعية الخيرية الإسلامية)، تولى فيها وظيفة نائب الرئيس، تاركاً الرئاسة للمحافظ، على أن يكون من أهدافها: التعاون على فتح المدارس للبنين والبنات مجاناً للفقراء، وبمصاريف محدودة للقادرين، وتقديم المعونات المالية للفقراء، ودعوة الناس إلى الاجتماع على هيئة ندوات أسبوعية ليتباحثوا في العلوم الدينية والمعارف، وليتزودوا بما يبعث الغيرة الوطنية في قلوبهم، وقد شدد النديم على أن تعنى المدارس باللغة العربية وآدابها، وبالأخلاق وبالتاريخ المصري والإسلامي وبالخطابة[1].

وكان النديم هو مدرس الإنشاء العربي والأدب "ولقد بدأت المدرسة شهرة بعيدة، وكانت أول مدرسة لها برنامج علمي وطني، وكانت أول مدرسة تعلم الخطابة تعليماً على أسس دقيقة، وتربي في الطلبة روح الاعتداد بالذات والثقة بالنفس، وتساعد على تكوين المواطن الصالح الذي يحب لغته ويتقنها، وكان مراد النديم من تدريب الناشئة على أساليب الخطابة والجدل بث روح النخوة والغيرة في أفكارهم"[2].

هذه المدرسة كانت تهدف إذن إلى تربية إنسان مجتمع ناهض، خرج من طور السبات إلى طور اليقظة والعمل، ومن طور السلبية إلى طور الفعل.

ولاقى إنشاء الجمعية والمدرسة صدى واسعاً في الرأي العام، وبدأ النديم نشاطاته الخطابية، وزاد عليها كتابة تمثيليات نقدية للتلاميذ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٢) نجيب توفيق، ص ١٢٥.

ليؤدوها، ومن عناوينها (الوطن طالع التوفيق، النعمان)، ومن الأمور التي تلفت الانتباه أن النديم دعا الأقباط إلى تكوين جمعية خيرية قبطية على غرار الجمعية الخيرية الإسلامية، فاستجابوا لدعوته[١].

وبعد هذا الوقت بمدة قصيرة نفت حكومة الخديوي الخاضعة للنفوذين الإنجليزي والفرنسي جمال الدين الأفغاني في أغسطس ١٨٧٩، وتفرق شمل الوطنيين، وعُيِّن رياض باشا رئيساً للوزراء، فضرب الوطنيين بيد من حديد، وخضع لما يريده الفرنسيون والإنجليز خضوعاً تاماً. ولكن الوطنيين كانوا قوة لا يستهان بها في الجيش كما قدمنا.

بعد أن أسس النديم جمعيته أقدم، رغم تحذيرات الناس وتخويفهم، على إقامة محفل للخطابة في ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع. وهرعت الناس إليه، فصار يخطب فيهم في مواضيع تتعلق بالشرق وأسباب تأخره، والغرب وأسباب تقدمه، ويتطرق إلى سياسة الحكومة بصورة رمزية. ثم شجع تلاميذه في الخطابة على ممارسة ما علمهم إياه، مما أحدث حركة اجتماعية واسعة في الإسكندرية، وصار يحضره كبار القوم علاوة على العامة. ولما كان الخديوي إسماعيل في ذلك الوقت في حاجة إلى موازنة الضغط الأجنبي الكبير الداعم لرياض، فقد بدأ يحاول التقرب من الشعب. ولم يُضع النديم الفرصة؛ فدعا الخديوي إلى زيارة مدرسة الجمعية فشجعه الخديوي بالفعل، ودعا الوجهاء إلى الانضمام إلى جمعية النديم، وإلى إنشاء مدارس على غرار مدرستها. وبفضل هذا التشجيع انتشرت الجمعيات والمدارس في البلاد. وقد لعب النديم بمهارة وَرَقَةَ التنافس بين الخديوي ورئيس وزرائه، وتوزيع السلطة بينهما وبين النفوذ الأجنبي. والملاحظ أن النديم ما كان يمانع في الاستعانة بأي قوة وطنية داخلية في صراعه الجوهري للحيلولة دون وقوع مصر فريسة

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٩٠.

للاحتلال الأجنبي، وهذا فرق جوهري بينه وبين الاتجاه اللاحق لمحمد عبده ولطفي السيد اللذين ما كانا يمانعان في الاستعانة بالاحتلال الإنجليزي ضد الخديوي بدعوى الإصلاح.

ومع أن النديم حاول ألّا يقطع شعرة معاوية مع رياض، فإن الأخير بدأ يدس الدسائس للنديم، ولكنه لم يلجأ إلى العنف الصريح معه، لأنه لم يكن آنذاك مطلق اليد بسبب القوة الكبيرة للوطنيين داخل الجيش.

وأخيراً أسفرت مؤامرات رياض عن استقالة النديم من الجمعية، وانتقل إلى النشاط الصحفي فأصدر العدد الأول من جريدته الشهيرة (التنكيت والتبكيت) في ٦ حزيران (يونيه) ١٨٨١، وهي أسبوعية هزلية ناقدة تولت إلقاء الضوء على مشاكل المجتمع المصري الكبرى؛ من تدخل أجنبي من جهة ومن تقليد المتفرنجين للأخلاق الأوروبية من جهة أخرى، ومن الأوضاع الاجتماعية المزرية المتمثلة في بؤس الفلاحين واستغلالهم، وخمول الطبقات المالكة، إلى آخر مواضيعه وأفكاره التي نذكر نماذج منها في الفقرة الثالثة من هذه المقالة إن شاء الله.

و"التنكيت" تناولُ وصفِ عادة أو وضع اجتماعي أو سياسي، و"التبكيت" تناول نقد هذا الوضع وتوبيخ أهله والقائمين عليه أو الساكتين عنه.

رافق ازدياد التوتر بينه وبين رياض باشا بداية الاتصال بينه وبين الوطنيين في الجيش بقيادة أحمد عرابي.

هؤلاء الوطنيون العسكريون تصدوا لقرار رياض بنفي النديم وحالوا دون تطبيقه. وعلى أثر هذا التدخل تحول النديم إلى النصير المدني لحركة الجيش، والمدافع في الصحافة وفي الحفلات الخطابية عنها، وتوثقت علاقته بأحمد عرابي. ويستطيع القارئ أن يرى أن النديم في الحقيقة كان

صلة الوصل بين جموع الشعب البسيط والجيش، وأن أسلوبه العفوية في البساطة في صحفه والذي لم يكن يبتعد عن العامية أحياناً، كان مجرد محاولة للوصول إلى الناس، وإلا فقد كان قادراً على الكتابة باللغة الفصحى العالية. ويحق لنا أن نتساءل هنا عن مدى صواب هذا الاجتهاد. وسنؤجل الحديث عن دفاع النديم عن اللغة العربية إلى الفقرة الثالثة من مقالتنا هذه بعون الله.

منذ انضمام النديم إلى حركة الجيش بدأ يكتب بيانات الضباط بنفسه، مثل البيان الذي يطالب فيه بإسقاط وزارة رياض، وتشكيل مجلس النواب، والتوقيع على البيان باعتباره توكيلاً لأحمد عرابي بالنطق بلسان الأمة (لعل القارئ يذكر هنا نشاطاً مماثلاً قام في مصر في أثناء ثورة ١٩١٩ لتوقيع توكيل سعد زغلول)، وقال بيان النديم: "إن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط، وعدلت عن الصراط المستقيم، ولم يكن مقصدها مؤدياً إلا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها (...) فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين في سلك الجهادية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم وذلك لا يتم إلا بسقوط وزارة رياض باشا، وتشكيل مجلس النواب، ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة. فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة إليكم في ضمن هذه النشرة، والكتابة المقصود بها أن أكون نائباً عنكم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد أحمد عرابي"[1].

وجاءت الوفود إلى بيت عرابي فكان النديم يقف ويخطب في كل وفد "وينظم القصائد الحماسية ويندب الوطن ويرثيه، ويحض على الاجتماع

---

(١) د. علي الحديدي، ص ١٤٢ نقلاً عن سليم النقاش، مصر للمصريين، ج٤ (مصدر سابق).

والتكاتف، ونبذ أضاليل الإفرنج، فأثرت قالته في النفوس وأشربتها القلوب"[(١)].

وفي مظاهرة الجيش في ميدان عابدين بقيادة أحمد عرابي في ٩-٩-١٨٨١ كان النديم موجوداً فاعلاً؛ يخطب في الصفوف ويثبت القلوب. يقول عرابي واصفاً دوره في ذلك اليوم "فجال صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوي السيد عبد الله النديم بين الصفوف ينادي ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩/٤٩] فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف، وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه في تلك الساعة"[(٢)]. وقد قادت هذه الحركة إلى عزل رياض وإعلان الحياة الدستورية، فَسَرَتِ الفرحة في صفوف الشعب "وقد حدث فعلاً أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ويبتهجون معاً لعهد الحرية العظيم الذي بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل" كما قال الكاتب الأجنبي بلنت الذي شهد الأحداث. وبتوجيه من أحمد عرابي غيَّر النديم اسم مجلة (التنكيت والتبكيت) فصار (الطائف)، وأصبحت هذه الجريدة جريدة الثورة ولسان حال مجلس النواب وأهم جريدة في عصرها، واتخذ منها النديم منبراً، بث منه آراءه في السياسة والاجتماع، وطالب بإنهاء التحكم الأجنبي باقتصاديات البلاد وتشجيع الصناعات الوطنية[(٣)].

وفي هذه المرحلة وصلت عبقرية النديم الخطابية إلى ذروتها؛ فقد

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣نقلاً عن تراجم الأعيان لأحمد تيمور.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٥ نقلاً عن كشف الستار لأحمد عرابي.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

كان يخطب في مهرجانات الوطنيين ولا يكتفي بالخطابة بل يعقب على كل خطيب. وكان يرافق كتائب الجيش في تنقلاتها؛ فيخطب فيها أيضاً مما رفع من شعبيته وشعبية عرابي إلى الذروة، وأثار غيرة رئيس الوزراء شريف باشا الذي كان يحتقر الشعب المصري والفلاحين. واحتقار الأهالي هذا كان في هذه الحالة ناتجاً عن التاريخ القريب الذي انحط فيه المجتمع الإسلامي إلى مجتمع طبقي؛ ابتعد كل الابتعاد عن مثل القرآن التي ترى أن أكرم الناس عند الله هو أتقاهم، وأنه ليس معيار الكرم العنصر أو الثروة، فشريف باشا وأمثاله كانوا يرون أنهم بالأصل التركي ينتمون إلى عنصر أعلى نوعياً من أهل البلاد، وكان هذا من أسباب الثورة العرابية (العصر العربي اللاحق شهد استمرار الانفصام بين السلطة والناس في بلاد عربية كثيرة على أسس نظرة عنصرية محدثة!)، وحين تمكن عرابي وأصحابه من إسقاط وزارة شريف وتنصيب الوزارة الوطنية بقيادة البارودي، احتفلت البلاد بهذا النصر وتوزعت فيها حفلات الخطابة وكان للنديم القدح المعلى فيها، وكانت البلاد في ذروة النهضة بحيث عد مراسل جريدة التايمز سبعةً وعشرين تجمعاً في السوق يناقشون الميزانية والوزارة والتدخل الأجنبي.

وأعتقد أن مالك بن نبي - رحمه الله - لو درس هذه الحالة فسيرى فيها تلك النهضة الحضارية التي كان يبتغيها والتي يستفيق فيها "مجتمع ما بعد الموحدين" من سباته، ويفكر كل فرد فيه في مصلحة المجموع.

وقد كانت الجمعيات الخيرية التي دعا إليها النديم، وساهم في إنشاء عدد كبير منها أسلوبه المبتكر لتحويل المجتمع من تراكم أفراد خاملين إلى خلية نحل فاعلة، فلم يكن عمل هذه الجمعيات مقتصراً على الخطابة أو على التعليم؛ بل كان لها دور اجتماعي في تطوير البنية الاجتماعية والنهوض بها عبر إشراك الناس في العمل العام، ومحاربة الفقر والآفات

الاجتماعية التي كانت قد انتشرت في مصر في ظل النظام الفاسد كآفات السكر والبغاء وغيرها. وأعتقد أنه لو أعطيت هذه التجربة الفرصة ولم تنته مع نهاية ثورة عرابي لقدمت صيغة نهضوية يُقتدَى بها، وإنها لتذكرني بتلك الجمعية الخيرية التي أنشأها الأستاذ حسن البنا - رحمه الله - في نهاية العشرينيات، وتحولت إلى حركة اجتماعية كبيرة جمعت التثقيف مع العمل الاقتصادي مع الرياضة، ولكنها انتهت مع الأسف في نهاية الأربعينيات بعد أن انحرف خط سيرها إلى ذلك المجال الوخيم العواقب: مجال المؤامرة والعمل السري.

ولا شك أن جرائد النديم كانت تكمّل عمله الإصلاحي الاجتماعي؛ ففيها حارب الخرافات وندد بانحطاط المعتقدات، فندد مثلاً بما كان يحدث في الموالد - كمولد السيد البدوي - من اعتداء على الأخلاق والفضائل[١].

ومع نشوب الحرب كان للنديم الصحفي والخطيب دور كبير في شحذ الهمم والحماس، وتقريع الخونة وأصحاب المصالح الأنانية، ثم في وصف المعارك عياناً، وما ترك ساحة المعركة حتى قرر عرابي التسليم. وقد كان للنديم دور في منع عرابي من تسليم مذل يقر فيه بأنه عاص. ومع دخول الإنجليز إلى القاهرة اختفى النديم مستعيناً بأصدقاء أوفياء ظلوا على اتصال به لمدة تسع سنوات، بل كان في هذه الفترة يمارس الهواية التي حرم منها أثناء عمله الدؤوب في حركة عرابي؛ فقد ألف عدداً كبيراً من الكتب في مواضيع دينية وأدبية وسياسية فُقِدَ أغلبها مع الأسف، ومن الطريف أنه تزوج في أثناء التخفي مرتين، وقد اختبأ مرة في بيت عمدة هو الشيخ محمد الهمشري وأثناء الاختفاء توفي العمدة، فنادت زوجة العمدة ابنها وقالت له: هل تخفر ذمة أبيك؟ قال: لا! وهكذا أكرمت الناس في مصر ذلك الرجل العظيم الذي قدم حياته فداء لها.

---

(١) نجيب توفيق، ص ٢٨٨.

وبعد تسع سنين من التخفي قبض على النديم ونفي إلى يافا في الشام، وهناك رحب به العلماء والأدباء والأعيان، ولم يطل الإقامة في هذا المنفى، فقد مات الخديوي توفيق وعفا عنه خلفه الخديوي عباس الثاني فعاد إلى مصر ليجد الاحتلال قد تغلغل في البلد ولكنه وجد أيضاً أن الخديوي الشاب الجديد غير راض عن سيرة أبيه، وضائق ذرعاً بالاحتلال وتدخلاته مما أعطى النديم فسحة للبدء في نشاط صحفي جديد عبر جريدة (الأستاذ) التي عادت إلى خطة جرائده القديمة في مكافحة الفساد الاجتماعي، والدعوة إلى الاستقلالية الثقافية والاقتصادية أيضاً، جالبة بهذا عليها وعلى محررها غضب الاحتلال وعملائه مثل كتّاب جريدة (المقطم).

على أن النديم كان له دور في تعليم شباب من الجيل الجديد، لم يشهدوا وقائع ثورة عرابي ودروس هذه الثورة. ومن هؤلاء مصطفى كامل، والعلاقة بين مفهوم مصطفى للسياسة ودروس النديم له تستحق وقفة أطول من أن تحتملها هذه المقالة[1]، ولكنني أظن أن دروس النديم لشباب (الحزب الوطني) الذي سيتأسس لاحقاً تناولت بندين رئيسين:

الأول: كيفية العمل مع الناس ولا سيما تنمية مهارات الخطابة عند هؤلاء الشباب، ومصطفى كامل كان بالفعل خطيباً مفوَّهاً.

والبند الثاني: كان الدرس السياسي الذي استقاه النديم من تكتيكات عرابي الذي كان يحتاج إلى السير على طريق ضيق كأنه الصراط المستقيم بين سلطة الخديوي والقوة الأجنبية. وقد ذكر النديم رأيه للشباب في أن استعداء الخديوي كان أمراً في غير صالح الثورة العرابية. وقد اجتهد مصطفى كامل كما هو معلوم في تطبيق هذا الدرس فبنى علاقات وطيدة

---

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي، ص ٣٦.

مع الخديوي عباس الثاني، وحتى عندما جنح هذا الأخير في نهاية عهده إلى التوافق مع الاحتلال، لم يقطع كامل معه شعرة معاوية.

ومن المحزن أن النديم مع دفاعه الشديد في جريدة (الأستاذ) عن الخديوي وسلطاته في وجه تدخل سلطة الاحتلال (التي ادعت في البداية أنها دخلت مصر للحفاظ على سلطات الخديوي التي اغتصبها الوطنيون!)، إلا أن الخديوي أُجبر من جديد على إصدار قرار بنفي النديم في عام ١٨٩٣، وبعد مرحلة من التنقل كان فيها النديم بلا مكان يظله، أقنعه مندوب السلطان بالسفر إلى إستنبول، حيث دخل في جو موبوء مملوء بالمؤامرات والدسائس، ووافاه أجله هناك في الرابع من جمادى الأولى عام ١٣١٤ هجري الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٩٦ميلادي رحمه الله.

ثالثاً: النديم: النموذج الخام للمثقف التأصيلي الفاعل

في هذه الفقرة أريد أن أبين لماذا كان النديم نموذجاً خاماً للمثقف التأصيلي الفاعل؛ أي إنه قدم أول طبعة ("غير منقحة"!) من نوع من المثقفين، أرى أن وجوده شرط لازم للمجتمع الذي يريد تحقيق هدفين معاً؛

الأول: الحفاظ على هوية ثقافية متميزة،

والثاني: النهضة الحضارية التي تبني مجتمعاً قوياً متماسكاً، قادراً على إثبات وجوده في عالم متقلقل.

وليكون المثقف من هذا النوع يجب أن يحوز على شرطين:

أولاً: وعي بضرورة الحفاظ على الهوية، وهذا يستلزم وعياً بالمكونات الأساسية لهذه الهوية، والأخطار التي تهددها.

ثانياً: تصور لطريقة تغيير وضع المجتمع من التفكك إلى التماسك،ومن التباغض إلى التحاب، ومن النوم إلى اليقظة، ومن الفقر المادي إلى الغنى، ومن العجز إلى الفعل، ومن الضعف إلى القوة.

وأريد البحث هنا في نقاط أساسية من عمل النديم الثقافي الذي تناول البعدين السابقين ودل على وعيه بهما:

■ أولاً في البعد التأصيلي:

- **الهوية المستقلة المتكاملة:**

كان النديم منتبهاً إلى أن عادات كل أمة تتناسب مع ظروفها وطبيعتها ومناخها وعقليتها ودينها. ومن هنا فإن انتقال المقلدين إلى تبني عادات غيرهم بلا روية قد يكون له تأثير هدام على الهوية الاجتماعية. يقول في جريدة (الأستاذ) في مقالة بعنوان (فصل في الأخلاق والعادات): "ولكن ينبغي لمن يغير عادته بعادة الآخرين أن ينظر في أصل عادتهم وفوائدها ومضارها، ثم في عادة الآخر كذلك. فإن رأى حسن عادته وأنها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها وإن لم تحسن في عين الخليط، وإن رآها ضارة بذاته أو وطنه أو الهيبة الاجتماعية غير منها ما لا يفقده الاعتقاد الديني والشعور الجنسي والغيرة الوطنية، فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سلم ذاته إلى من انتقل لعادته بلا حرب ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيان ما هي عليه من العادات وما لها من الأخلاق"[١].

وسأناقش بعد قليل نقد النديم للاستلاب الذي يجعل "الشرقي" يحتقر ذاته وينبذها، ولكنني هنا أريد أن ألفت نظر القارئ إلى انتباه النديم

(١) د. علي الحديدي، ص ٣٣٤.

إلى فكرة لم يكد المثقف العربي يتنبّه إليها؛ وهي أن مسألة تحديد ما نأخذ من العادات الغربية وما نتركه ليست مسألة انتقاء محض، لا يؤثر إلا فيما أُخِذ وما تُرِك، بل إن له تأثيراً على جملة البنية السلوكية الأخلاقية، وما يكمن وراءها من عقيدة.

فهو يدعو إلى دراسة دقيقة للعادة التي نريد تركها، وهل لها علاقة وطيدة بجملة البنيان الاجتماعي؟ ثم إنه يشير في النهاية إلى أن ترك العادات ونسيانها قد يقود إلى ترك الهوية بأسرها، ولا يسهل الرجوع إلى هذه الهوية بعد ذلك.

- **نقد الاستلاب:**

يقول جمال الدين الأفغاني في (خاطراته): "يعتقد الناشئ الشرقي، أن كل الرذائل، ودواعي الحطة، ومقاومات التقدم إنما هي في قومه فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، وكل مشروع وطني تتصدى له فئة من قومه، أو أهالي بلده، ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الأجنبي ولو اسماً، ويسارع لتقديس وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب، ويسهل له كل صعب في مطلبه، ويطلعه على هنات قومه وزللهم، وموقع الضعف منهم، وبالإجمال، يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب في جسم قومه"[(١)].

هذه الظاهرة التي يلقي عليها جمال الدين الأفغاني ضوءاً مبكراً تفاقمت بعد عهده كثيراً وهي ظاهرة الانبهار بالآخر المسيطِر، ونسبة كل الرذائل إلى الذات وكل الفضائل إلى الآخر، ولكن الأفغاني ذكر رذيلة عملية وخيمة تنتج عن هذا الاستلاب هي مساعدة الغازي على الأهل، وهذه الحالة الحدية لا تكاد توجد لاحقاً إلا نادراً ومع أقليات لفظتها

---

(١) الأصالة والتقليد لمحمد عمارة، ص ١٩٠.

الشعوب. والحالة الأعم هي حالة الانبهار مع بقاء الرغبة في الاستقلال، والسعي إلى التماثل مع الآخر بتحويل المجتمع وفقاً لنموذجه، وهذا السعي (الوطني) هو الذي ميز في الحقيقة الحياة السياسية والثقافية العربية في القرن العشرين.

على أنه ما من ريب في أن نقد ظاهرة الاستلاب هو المحور الأول في برنامج التيار الثقافي التأصيلي، والاستلاب ينعكس ثقافياً على شكل دعوة للتخلص من كل مكونات (الذات الحقيقية) المميزة، واستيراد كل المكونات المميزة للذات المرجعية. ومن هنا طالب المستلبون في الثقافة العربية بإلغاء كل مميزات الهوية من عادات وتقاليد وأحرف كتابة. بل طالبوا بتغيير اللغة بالذات حيث كان ذلك ممكناً، وهاجموا الأشكال الأدبية الموروثة؛ لا ليبدعوا أشكالاً أدبية جديدة من الداخل، بل ببساطة لينسخوا الأشكال الأدبية الغربية وجميع الصرعات الفنية التي تظهر في باريس ولندن دون أي نقد، بل هم يرون أنفسهم دون مستوى أن ينقدوا هذه الأشكال التي يرون فيها الكمال بعينه (وهم يستهجنون من ينقدها، وقد يميلون بغباء إلى وصفه بالتخلف والانغلاق والرجعية إلى آخره ..)

في قصة (حكاية عربي تفرنج) وهي موجودة في العدد الأول من جريدة (التنكيت والتبكيت) يقص علينا النديم بأسلوبه الفكه الساخر حكاية فلاح اسمه (معيط) ذهب ابن له اسمه (زعيط) إلى الخارج في بعثة علمية، وعاد بعد أربع سنوات فاستقبله أبوه على رصيف الميناء واندفع يحتضنه ويقبله فابتدره ابنه قائلاً: "سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دي قبيحة جداً"، فقال معيط: "أمال يابني نسلم على بعض إزاي؟"، فقال زعيط: "قول بون أريفيه وحط إيدك في إيدي مرة واحدة وخلص أنتم يا أبناء العرب زي البهائم". وقد يضحك المثقف العربي الحديث من هذه الصورة النديمية، ويتهم النديم بالإفراط في المبالغة وتسفيه انخلاع

المستغربين عن أهلهم وناسهم، ولكنني في الحقيقة لا أجد فرقاً جوهرياً في العقلية والمنطق - إن جاز لنا أن نسمي هذا المرض النفسي (عقلية ومنطقاً) - بين زعيط النديم والدكتور جليل القدر طه حسين الذي طالبنا بأن نأخذ كل ما في أوروبة حلوها ومرها خيرها وشرها، ولا بينه وبين عدد لا بأس به من مثقفي (العصر اللبرالي) الذين طالبوا بتبني الأحرف اللاتينية بدلاً من الأحرف العربية، ولا بينه وبين قدر كبير مهيمن الآن من أدباء الحداثة الذين يطالبون بشطب عمود الشعر العربي كأنه لم يكن. لا لتطويره من الداخل، بل لإحلال أشكال أدبية مستوردة، لا نحن أنتجناها ولا نحن نغيرها. فنحن نغير المستوردات إن جاز التعبير كما نغير السيارات، وإن لم يعجب هذا الكلام بعض هؤلاء فسأسألهم: هل تستطيعون أن ترونا تغييراً واحداً قامت به حركة الحداثة في الأدب والفن كان أصله محلياً من عندنا؟ "فالظاهرة الزعيطية" منتشرة الآن بعد اثني عشر عقداً من وصفها لأول مرة في جريدة (التنكيت والتبكيت).

- دفاع النديم عن اللغة العربية:

لعل النديم كان أول من طالب بإنشاء مجمع للغة العربية يقسم إلى أقسام: واحد يختص بالمواد اللغوية، وواحد يختص بالنحو والصرف والبيان والمنطق، وواحد يختص بالتاريخ وتقويم البلدان، وواحد يختص بالترجمة، وواحد يختص بالرياضيات. وذلك في صحيفة (الأستاذ) الصادرة في ٢١/ ٢/ ١٨٩٣[1]. وللنديم دفاع رائع عن اللغة العربية في وجه من يريد تضييعها، فقد كتب في مجلة التنكيت مقالاً هو من عيون مقالاته اسمه "إضاعة اللغة تسليم للذات" يقول فيه: "أيها الناطق بالضاد! بما تستبدل لغتك وما لها من مثيل؟ وإلى من تتركها وأنت لها كفيل؟ .. وما الذي استحسنته في غيرها واستقبحت مقابله منها؟ وأي

---

(١) نجيب توفيق، ص ١٣٥.

شيء طلبته منها ولم تجد له اسماً؟ لبيك أيها الأخ الشقيق- وإن لم نحمل في بطن واحدة - اللغة سر الحياة، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم. بها يترجم اللسان خواطر القلب، ويجلو بها بنات الأفكار، وبها يعشق المرء وإن كان دميم المنظر. وهي التي جذبت قلب أمك واستعطفت جانب أبيك، وتملكت فكر أخيك واستمالت صاحبك وألفت جارك بها، فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن (...) أسمعك تقول: إذا فقدت لغتي اعتضت عنها بأخرى! أجل إنك اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطن والمعتقدات الدينية!»[١].

فهو يعد اللغة من الذات وتضييعها تضييعاً للذات. ولعل القارئ يستنتج هنا كم كان هذا الرجل الخارج من صفوف عامة الشعب عميق التفكير، وكم ستبدو قامته باسقة مقارنة مع كثير من (مفكرين) و(أساتذة) تسيدوا الساحة الثقافية العربية لاحقاً، فسخروا من اللغة وسخروا من دعاة الحفاظ على الهوية.

وفي هذه المقالة المذكورة يشرح مزايا اللغة العربية من سهولة تركيب وعذوبة لفظ ورقة معنى. مزايا يطلبها عصر التمدن فلا يجد خيراً من العربية لغة تحققها، وهي لغة كثيرة المترادفات، مرنة يمكن التعبيرعن معنى واحد فيها بعدد كبير من الصيغ، إلى آخره...

فهو يرى إذن من جهة أن اللغة جزء جوهري من الذات تضيع الذات بضياعه، ويرى من جهة أخرى أن اللغة العربية لغة قادرة على مجاراة متطلبات التمدن.

وفي نشاطه المتعلق بفتح المدارس كان يركز على ضرورة الاهتمام باللغة؛ بحيث يخصص لتعليم العربية والوطنية والأخلاق ثلث الوقت،

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

هذا مع تأكيده على أنه لا يمانع في تعلم اللغات الأجنبية. ومن البديهي أن تعليم هذه اللغات شيء وإحلالها محل اللغة العربية شيء آخر.

وفي واحدة من رياداته الكثيرة دافع النديم عن استعمال اللغة العربية في تدريس العلوم، وهاجم من يزعمون أنها لا تصلح للعلم: "إذا حولنا طريقة التعليم باللغة الوطنية إلى تدريس باللغات الأجنبية أمتنا قوميتنا وجنسيتنا وديننا وأصبحنا أجانب بين قومنا".

وسخر من الذين بدؤوا يدخلون اللغات الأجنبية في كلامهم "أهو ده الكلام اللي يغم، بقى لما تتكلم بلغة ضيوفك وكل من جاء تاخدلك من لغته كلمتين حتى تركب لك لغة من هنا ومن هنا بقيت غريب في الديار وضيعت مجدك وشرفك ويبقى كل واحد يعرف لغته وجنسيته وأنت تائه لا تعرف لك لغة ولا مجداً ولا شرفاً"[1].

بقي الآن من موضوع اللغة أن نبحث استعمال النديم للعامية في بعض مقالات جرائده:

أعتقد بادئ ذي بدء أن النديم كان شاعراً شعبياً أولاً؛ فاستعمال اللغة الشعبية عنده لم يكن أمراً مصطنعاً شأن كثير من مثقفي عصرنا. وهو كما أسلفت نشأ في بيئة شعبية، وقد توطدت علاقته بالشعب مع مر الأيام، وزادت معرفته بمختلف شرائح الشعب المصري. فهو حين كان يتكلم بلغة الشعب فقد كان يعرف هذه اللغة لا بمفرداتها وألفاظها فحسب بل بالتجربة الحياتية التي تكمن وراء هذه الألفاظ. ولكنه بموهبته الخارقة كان مقتدراً أيضاً في الفصحى. ولعل النصوص الشعرية والنثرية القليلة التي مرت في هذا المقال تكفي القارئ ليعرف ذلك،

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

فهو كان طليعياً في استعمال الأسلوب الطلي السلس، الذي لا تحد من تلقائيته محسنات عصور الانحطاط الثقيلة (رغم أنه كان يجيد استعمال هذه المحسنات أيضاً لو أراد! ولك أن تقارن بين مقالاته السلسة في جرائده وأسلوبه المسجع في مذكراته عن تاريخ مصر). إن استعماله للعامية في بعض المقالات (وليس كلها) كان اجتهاداً منه في تحديد اللغة المناسبة للداعية النهضوي المصلح، وقد ظهر موضوع العامية والفصحى بصورة صريحة حين قرر مرة في جريدة الأستاذ أن يتحول إلى التفصيح الكامل فاعترض عليه كثير من القراء. قال النديم: "رأيت بعض المشتركين في الأستاذ أرسل محاورة بالكلام البلدي فخفت أن الكتابة تمشي بالبلدي فنحارب اللغة العربية بجيشين جيش الدخيل الأجنبي وجيش العامية فلذا جمعتكم لأخبركم أني مستعد لمخاطبتكم بكلام بسيط من جنس البلدي في سهولته، ولكنه عربي صحيح" وانهالت عليه بعد هذا القرار الرسائل تطلب منه الاستمرار على اللغة التي يعرفها بعض السامعين من غير المتعلمين، ولعلي هنا لن أبتعد عن الواقع إن افترضت أن من جماهير "الأستاذ" من كان يسمع الجريدة ولا يقرؤها بل تُقرأ عليه؛ إذ علينا أن نتذكر أن مصر آنذاك كانت أمية إلا قلة قليلة من المتعلمين! وفي هذه الحالة يكون سماع العامية أسهل طبعاً. غير أنني في الحقيقة لا أخفي أنني تمنيت حين قرأت نقاش النديم للمسألة لو كان نفذ قراره وكتب بلغة فصيحة مبسطة. وختاماً لمناقشتي الموجزة لهذه المسألة أقول: إن على القارئ ألّا ينسى أن النديم رغم إدراكه الكبير لأهمية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى، إلا أنه كان فيما يكتب في جرائده داعية سياسياً اجتماعياً يهمه بالدرجة الأولى أن تصل رسالته للجموع، ولم يكن يكتب لأغراض أدبية أو علمية بحتة.

- **الدفاع عن الفلاحين والطبقة الفقيرة:**

في اعتقادي إن من أسس النظرة الثقافية التأصيلية الشاملة احترام المجتمع الأهلي، وإن من شذوذات البنية الاجتماعية العربية الحديثة الكبرى انقسامها إلى شريحة مسيطِرة وشريحة مسيطَر عليها ولا علاقة بينهما؛ فالشريحة المسيطِرة تتبنى ثقافة غريبة لا علاقة لها بثقافة الجماعة الأهلية، وهي تجاهر حيناً وتسر حيناً احتقارها للأغلبية. أما الشريحة المسيطَر عليها وهي الجماعة الأهلية التي تشكل أغلبية المجتمع، فلها ثقافتها الخاصة التي أسميتها في مكان آخر (الثقافة السائدة). وإنها لمفارقة كبيرة، ولكنها واقع حقيقي أن في بلادنا ثقافتين متصارعتين سائدة ومسيطرة! الأولى سائدة في صفوف الأغلبية، والثانية مسيطِرة ولكن الأغلبية لا تتبناها.

كان النديم يدافع عن هذه الأغلبية (التي هي في الحقيقة ذاتنا الأصيلة لا أكثر ولا أقل!) ويرى أنها هي صاحبة الفضل على هذه الأقلية التي تحتقرها وتستعبدها: "تعال فانظر إلى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك، أخيك، أستغفر الله، خادمك الفلاح. انظر إلى ثوبه المهلهل ولبدته التي لا تستر يافوخه ورغيفه الذي لا تكسره قوتك، ومشه الذي تعاف النظر إليه، وارقبه وهو يسقي الزرع والطين إلى فخذيه والشمس تشوي وجهه وجسمه، يقطع يومه في عذاب وعمل وهو صاحب الفضل عليك وأنت لا تنظره إلا بعين المقت ولا تعامله إلا بيد الإهانة ولسان السب، مستقبحاً صورة عنونت بفلاح"[١].

وكما دافع النديم عن الفلاح وطالب بالاحترام الذي يستحقه، سلط الضوء على من يمصون دمه. لا من باشوات أسرة محمد علي ورجالهم

---

(١) د. علي الحديدي، ص ١٢٦، عن التنكيت والتبكيت.

فقط، بل من المرابين الذين يستغلون جهله ولا يكتفون حتى بالربا الفاحش الذي يأخذونه منه، بل يخدعونه في الحساب أيضاً.

ومن النقاط الفريدة في فكر النديم التي لا نكاد نجد لها نظيراً في عصره؛ دفاعه عن تمثيل الفقراء في مجلس النواب؛ لأن الأغنياء لو احتكروا هذا التمثيل لاستخدموه في زيادة اضطهاد الأغلبية المستعبَدة: " لا يخفاك أن الوطن فيه الذكي والبليد والغبي والنبيه والغني والفقير والأمير والحقير، فإن كان الانتخاب قاصراً على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالاً على الشعب والوطن (...) لا يخفاك أن ابن الغني مولع بالاستبداد والاستعباد فهو يميل إلى استخدام الفقراء بلا مقابل، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم، وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب، على أن أباه إذا كان من حكام البلاد فإنه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه (...) لا يميل للمساواة ولا يعترف للفقير بحق معه في الوجود فوجود مثله في مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم "[١].

ومن المدهش والمثير للتأمل أن نرى عكس هذا الرأي على طول الخط عند محمد عبده الذي ينقل عنه تلميذه السيد محمد رشيد رضا خطبة ألقاها عام ١٨٨٢ في أثناء الثورة العرابية طالب فيها بقصر حق الانتخاب على المتعلمين وعدم مشاركة الطبقات الدنيا في ذلك "إن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتغيير سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا إذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة، وصار لهم رأي عام، ولم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس، وإزالة امتيازاتهم

---

(١) د. علي الحديدي، ص ١٥٧ - ١٥٨، عن التنكيت والتبكيت.

واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الإنساني؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترت عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون»[1].

وفي اعتقادي أن الموقف الممالئ للأغنياء والمتساهل مع الاحتلال الذي وقفه عبده لاحقاً لم يكن بعيداً عن وجهة نظره هذه التي تؤجل إعطاء الجماهير حق تقرير مصيرها حتى تتعلم. وقد أجَّل محمد عبده ولطفي السيد كما هو معلوم حتى المطالبة بالاستقلال عن الاحتلال الإنجليزي في انتظار تعلم الشعب. وكما يرى دارس تاريخ مصر اللاحق للنديم بوضوح فإن تعبير الفلاح عن نفسه، وتقريره لمصيره، واستقلال البلد عن الاحتلال هو الطريقة للنهوض به حتى من الناحية التعليمية. وعند تيار السيد وعبده؛ الاستقلال وحق تقرير المصير السياسي لا يجوز أن يسبقا نشر التعليم العام. ولا شك أن التجربة أكدت صحة وجهة نظر النديم إذ كان الاستعمار النقيض لتعليم الجماهير وتطوير تجربتها السياسية، بحيث أن الجزائر حين استقلت كانت نسبة الأمية فيها ٩٣٪ وهي نسبة أعلى من نسبة الأمية في الجزائر عند بدء عهد الاستعمار قبل مئة وثلاثين عاماً!

- **رؤية النديم للظاهرة الاستعمارية:**

خلافاً لمثقفي (العصر اللبرالي) الذين غفلوا غفلة عجيبة عن الظاهرة الاستعمارية، فإن النديم برؤيته النافذة رأى أن الاستعمار هو العامل

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

الأول الذي سوف يفكك البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المحلية، ويحول البلد إلى جثة مقطعة الأوصال، تنهشها الذئاب الأجنبية وديدان الفساد المحلية التي كانت تلقى التشجيع ويزداد انتشارها مع ازدياد تغلغل النفوذ الاقتصادي والسياسي الأجنبي، وغزو العادات والقيم الغربية.

وقد صاغ النديم هذا التشخيص في العدد الأول من جريدة (التنكيت والتبكيت) وذلك في قصة ترمز إلى مصر تحت وطأة النفوذ الأجنبي الهائل. واختار عنواناً دالاً للقصة (مجلس طبي لمصاب بالإفرنجي).

"كان هذا المصاب صحيح البنية قوي الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل وبينما هو يتيه بحسنه ويدل بجماله صحبه أحد المضلين واستماله بنفاق تميل إليه النفوس فظن أهله أن هذا المضل من الأتقياء فسلموه جنة حياتهم فسار معه في طريق الفساد حتى مرض واصفرت أعضاؤه واجتمعت عليه الأطباء وبدؤوا يصفون له الدواء .."(١).

وقد عدد النديم مخاطر الاستعمار على الصناعة الوطنية ودعا إلى حماية هذه الصناعة. وكان بهذا من أول من ركز الأضواء على الدور السلبي للاستعمار في التطور الصناعي، ولا بأس هنا من المقارنة مع ناقد أوروبي مفترض للنظام الرأسمالي هو كارل ماركس الذي ظل حتى النهاية يؤكد هو ورفيقه إنجلز على أن الاستعمار الأوروبي يمهد السبيل لتحويل المستعمرات إلى بلاد صناعية!

- **هل يصلح الشرق للتعلم؟**

كانت جريدة المقطم الناطقة بلسان الاحتلال تدعي أن المصريين لا يصلحون لتولي الأعمال ولا يحبون المعرفة! ومن الغريب أن اللورد كرومر الذي كان الخصم العنيد لنشر التعليم في مصر اعترف بأنه ما مر

(١) نجيب توفيق، ص ١٦١ - ١٦٥.

بقرية مصرية إلا رأى أهلها يطالبون بتكثير المدارس! وفي رد النديم على هذه الجريدة استشهد بما أثبته المصريون من قدرة على التعلم والرقي العلمي والسياسي حين فتح الولاة أبواب التعليم (في عهد محمد علي وأول عهد إسماعيل) (الدكتور علي الحديدي- ص ٣٣٨).

- السوري والمصري:

لا بد من أجل تحديد الهوية الثقافية الخاصة من أن يحدد مصلح مصري مثل النديم موقفه من السوريين الذين كان بعضهم يتعاون مع الاحتلال الإنجليزي ويشتغل بوقاً له. فهل وقف النديم وقفة عنصرية عدائية من السوريين كما وقف سلامة موسى لاحقاً؟

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى في كتابه (تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة) يقول بكل استهتار في تعريفه للنديم: "هو أول كاتب مصري يعالج مشكلة القومية المصرية" وقد استنتج هذا من دفاع النديم عن الثقافة العربية الإسلامية، وهجومه على أعضاء البعثات الذين يعودون أغراباً منعزلين عن أمتهم!

كرس الدكتور المذكور للنديم في تاريخه لتطور الفكر السياسي أقل من صفحة شوه فيها فكر النديم تشويهاً مبيناً. فمن كل أعمال النديم اختار مسرحية اسمها الوطن قائلاً: إنه "فيها يبدو الوطن شخصية رمزية تنادي بالتعاون بين المصريين على اختلاف مللهم مستبعداً عن مجالها الأجانب وبخاصة السوريين الذين هاجمهم ووصفهم بأنهم دخلاء مرابون يسيرون في ركاب الاحتلال البريطاني"[(١)].

لم يذكر الدكتور مصطفى أي موقف آخر للنديم من السوريين غير هذا فزيف بتلخيصه المخل هذا الموقف الرائع للنديم الذي كان يعد

---

(١) تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، ص ٣٣.

السوريين والمصريين والعرب جنساً واحداً. ففي مقالته الشهيرة: "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" يقول مخاطباً بعض السوريين الذين تعاونوا مع الاحتلال: "أنا أخوك فلمَ أنكرتني؟ ما الشام ومصر إلا توأمان، أبوهما واحد يسوء الاثنين ما ساء أحدهما، فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم في مصر؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها؟ أبراتب قدره عشرون جنيهاً يبيع المرء منا أخاه ووطنه بل جنسه ودينه؟ (...) ولو اجتمعت كلمتنا وتوحدت وجهتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في وحدة الوطنيين وإعلاء كلمة الجنس العربي لحسدتنا المعالي"[1].

وفي المقالة نفسها ينبه النديم هؤلاء السوريين إلى أن جامعة الدين مع الاحتلال ستذلهم ولا تعزهم؛ لأن المستعمر لا يريد إلا أن يصل إلى غرضه، ثم بعد ذلك يساوي بالمعاملة بين الشعب المستعمَر أكان مسلماً أم مسيحياً! ولذلك لم يرتكب النديم الخطأ المحزن الشائع في عصرنا والذي يعد من البدهي أن المسيحيين العرب جزء من الحضارة الغربية (وهم في الحقيقة جزء لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية التي استوعبت جهودهم البنائية، كما استوعبت بتسامحها الحضاري الرائع الصابئة واليهود والزرادشتيين الذين أمرنا أن نسن بهم سنة أهل الكتاب في حديث عبد الرحمن ابن عوف) ومن هنا كانت علاقته مع الأقباط قوية، ودعاهم إلى السير في ركاب النهضة. وإلى ذلك العصر تنتمي كما رأينا اول جمعية خيرية قبطية أسست على غرار جمعية النديم الإسلامية.

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٣٥٣.

- **الإنسان!**

آثرت هنا في ختام حديثي عن البعد التأصيلي في شخصية النديم أن أتكلم قليلاً على بعد (الإنسان) باعتباره بعداً مكوناً للهوية أيضاً، ولا يتناقض معها.

لا تعني النظرة التأصيلية التي تدافع عن استقلالية الهوية الثقافية وتميزها، وعدم ذوبانها في الثقافات الأخرى - إنكاراً لوحدة الإنسانية في الأصل والجوهر الفطري الذي أكدت عليه عقيدة الإسلام.

وهذا الجوهر الفطري موجود وإن غطت على وجوده الأشكال المتنوعة التي يتجلى فيها، والانحرافات التي مرت بها البشرية فبعدت بها عن الفطرة، وكان من أبعد هذه الانحرافات وأشدها - بلا ريب - انحراف الحضارة المادية الحديثة التي أهملت الجانب الروحي، ولم تقر بالوجود إلا للجانب المادي الحسي الظاهر.

والهدف الذي هو الوصول لنظرة إنسانية شاملة لا عنصرية فيها ولا تعصب للذات هدف مطلوب للتأصيلي الحقيقي، والفرق بينه وبين المستلب هو أن وجهة النظر التأصيلية ترى أن القفز على واقعة التنوع لتقرير الوحدة لن ينتج عنه إلا هيمنة الثقافة الأقوى باسم النظرة الإنسانية. ومن خلال الاعتراف بالتنوع والتعامل المتسامح معه يمكن أن نصل حقاً إلى اكتشاف ما هو مشترك بين البشر، وقد ضربت لهذا في مكان آخر مثالاً هو مثال اللغات فإن اللغوي الذي ينطلق من أن لغته هي المعيار لمفهوم "اللغة" لن يرى في اللغات الأخرى إلا شذوذات وانحرافات عن الصواب، وحين ينطلق من كون كل لغة لها منطقها الخاص، سيكون مؤهلاً لفهم ما هو مشترك بين اللغات. والأمر مع الثقافات المختلفة هو هكذا: بعد الاعتراف بحق التنوع الثقافي، يمكن لنا أن ننطلق لنرى ما هو إنساني مشترك بين الثقافات.

وكثيراً ما تواجه شعوب مختلفة الثقافات والأديان ظروف الظلم والقهر فتشعر بالمشترك بينها كما رأينا النديم يستفيد من تجربة الهند مع الاحتلال الإنجليزي ويذكر بها[١].

وربما ظهر حر في أمة تضطهد حكومتها أمماً أخرى، فوقف ضد الاضطهاد كما رأينا فرنسياً يعرف مكان اختباء النديم ولا يبلغ عنه بل يساعده!

وقد رأينا في عصرنا شعوباً كثيرةً تساند قضايانا العادلة حتى مع ضعف دعايتنا الرسمية، ومؤتمر دوربان كان أحسن مثل على ذلك.

وهذا البعد الذي يحاور شعوب الإنسانية الأخرى، ويحاول أن يستوعب ما لديها من تجارب، إذ الحكمة ضالة المؤمن، كان عنصراً مكوناً في فكر النديم تجلى في محاوراته مع صديقه الفرنسي، ودراسته لتواريخ الأمم التي تجلت في رسالته لعرابي التي أراد أن يخفف عنه فيها مصاب الهزيمة؛ فذكر أمثلة من هزائم الشعوب والقواد[٢].

وفي الحقيقة؛ إن النديم الذي تحول إلى لسان حال الحركة العرابية كان يطلب من مواطنيه أن يعاملوا الأوروبيين في مصر معاملة طيبة تليق بمصر وبالمسلمين، وكان يفرق بين المتمسك بدينه والمتعصب: "أقدم خالص النصيحة لإخواني المصريين على اختلاف أديانهم أن يقرؤوا العواقب، وأن يبعدوا عن كل ما يكدر الراحة، وأن يعاملوا الأوروبيين المعاملة الحسنة، وبهذه المعاملة يظهر لنا الفرق بين التمسك بالدين والتعصب؛ فإن المتمسك بدينه يعاشر النزيل والمجتاز بالحسنى مع محافظته على أصول دينه وفروعه، فإذا انتهى من اجتماعه بغيره ذهب إلى

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٣٦٩.

(٢) د. محمد أحمد خلف الله، ص ٨١ - ٨٢.

معبده الخاص به. والمتعصب يحمل غيره على الأخذ بدينه ويلتزم الطعن في دين غيره، فيهيج النفوس ويحركها للعدوان. وهي طريقة ما سلكها المصريون خصوصاً ولا المسلمون عموماً من عهد ظهور الإسلام إلى الآن»[1].

ولا شك أن التسامح باعتباره موقفاً فكرياً - نفسياً هو الأساس للنظرة التي تستطيع أن ترتقي من مرحلة تقرير حقيقة التنوع الثقافي في العالم إلى مرحلة رؤية المشترك الإنساني.

■ ثانياً: بعد الفعالية في شخصية النديم:

ثمة بعد آخر لا بد له أن يكمل دفاعنا عن تميز الهوية وهو إثباتنا أننا، بهذه الهوية المتميزة، قادرون على البقاء والاستمرار في العالم! لقد كان لحضارات الشعوب الأصلية في (العالم الجديد) تميز وخصوصية وتجربة، ولكنها لم تستمر، بل أُبيدت، ولم يبق منها إلا ما ينفع المتاحف وكتب الإنثروبولوجية!

ومن هنا كان المثقف التأصيلي النموذجي هو المثقف التأصيلي الفاعل، هو المثقف الذي يكون له تصور عن طريقة النهوض بالمجتمع ليتغلب على عيوبه المزمنة التي تجعله ضعيفاً مفككاً عاجزاً عن الفعل، تتناقض مكوناته وتتضارب أجزاؤه، ويعرقل كل فرد فيه عمل الآخر بدلاً من أن يكمّله.

إنها إذن الثنائية التي لا بد منها: ثنائية الهوية والنهضة، ولا شك أن ضرورات النهضة ستفرض متطلباتها على تصورنا للهوية، فحينما نطرح النهضة الحضارية الشاملة ضرورةً لا بد منها، نتوقف عن

---

(١) د. علي الحديدي، ص ٣٦٢.

السير في المرحلة التأصيلية الدفاعية التي لا تريد تغيير شيء من أحوالنا وعاداتنا وأفكارنا، بدعوى أنها كلها جزء من هويتنا الثقافية الخاصة.

وقد قدمت فيما مضى من هذه المقالة أمثلة على أعمال النديم في التغيير الاجتماعي، وقد كان النديم يعتمد على البعد التربوي وبعد تنظيم المجتمع الأهلي في جمعيات خيرية تهدف إلى بث الوعي النهضوي الجديد، والتحقيق العملي لبرنامج النهوض الاجتماعي.

وقد قدم النديم بصورة مبكرة برنامجاً لإصلاح الأزهر، وتجديد اللغة العربية بإنشاء مجمع لغوي. غير أنه لم يكتف بالمشاريع، فقد عمل على تكوين مجموعة متعلمة واعية فاعلة تقوم بنشر دعوة اليقظة في المجتمع. وفي هذا الموضع أريد أن أذكر نقطتين لهما علاقة بهذا البعد الفاعل عند النديم:

النقطة الأولى: لم يكن النديم في مدارسه يكوِّن موظفين أو حافظين آليين للمعلومات؛ بل كان يخرج معلمين للمجتمع وخطباء دعاة للنهضة ومجادلين يدافعون عن فكرة اليقظة. ولهذا اهتم بتدريبهم على الخطابة، وأنشأ لهم التمثيليات الهادفة يقدمونها أمام الجمهور، إذ لا بد للفعل النهضوي الواعي من شريحة اجتماعية مخلصة تمتلك الوعي والقدرة على مخاطبة المجتمع. وعمل هذه الشريحة من المستحسن أن يكون بالتنسيق مع الدولة؛ ولا يضرب فكرة النهضة ويقضي عليها في المهد شيءٌ أكثر من تحويلها إلى حركة سياسية ذات أهداف فئوية خاصة، وقد شرح الأستاذ مالك بن نبي تجربة الجزائر مع هذا التحول المميت للحركة النهضوية[1]،

(١) الأستاذ مالك ذكر هذه التجربة ونقدها في مواضع عديدة أذكر منها كتاب (شروط النهضة) ولكاتب هذه السطور مقالة عن مالك بن نبي أشرت فيها إلى تحليل مالك بن نبي هذا.

وقد هرب النديم من العمل السري ولم يخض غماره، لأن النهضة لا تتصور بالعمل التآمري.

النقطة الثانية: إن أهم صفة شخصية لا بد من توافرها في المثقف الفاعل هي أن يكون واثقاً بنفسه، ويحمل نفسه على محمل الجد بصورة كافية! فلن يفعل المثقف إذا كان يعتقد أنه لن يؤثر شيئاً وأنه يصرخ في واد. وهذه الصفة مرتبطة بصفة أخرى، وهي ثقة هذا المثقف الفاعل بأهله وناسه، وأنهم قادرون إن توحدوا على أن يفعلوا ما يبدو، وهم متفرقون، مستحيلاً.

وأساس الفعل الوحدة، وأساس الوحدة الوعي بأولوية المصلحة العامة على المصلحة الخاصة والمزاج الخاص والحساسية الشخصية. وهذا الوعي يأتي من واحد من أمرين: عقيدة دينية راسخة، أو شعور غامر بتهديد وجودي للجماعة.

وقد كانت عند النديم هذه الصفة التي تجعله يرى في نفسه شخصاً قادراً على تغيير الوضع المزري لأهله، وقد استطاع أن يبث هذه الثقة فيمن حوله.

والمطلوب الآن مثقف على مستوى من الوعي والفهم لأحوال العالم، يزيد في اطلاعه بكثير على اطلاع النديم الذي لم تهيئ له الظروف فرصة كبيرة للتعلم. وكل مكتشفاته وحدوسه الصائبة تكاد تدين لعبقريته وموهبته الخارقة أكثر مما تدين لدراسته المتخصصة المتأنية للذات والآخرين!

خاتمة: النديم الآن!

لو كان النديم حياً فما البرنامج الذي سيتبعه لإخراج بلادنا من أدنى حضيض حضاري وصلت إليه، وقد تداعت عليها الأمم تداعي الأَكَلَة على قصعتها؟

أعتقد أنه كان سيبدأ حملة نهضوية علنية، لا تآمر فيها ولا أغراض سياسية فئوية؛ لقلب حالنا من وضع التفرق والتباغض، وضع يرى فيه كل منا أن أخاه هو العدو الحقيقي والأهم له، إلى وضع تآلف وخروج من الذات وتعاون على البر والتقوى؛ أي تعاون على النهضة!

إن من المحزن أن نرى شعبنا يثبت أفراده قدرة لا تصدق على التضحية بالذات في سبيل ما يراه الفرد صحيحاً، على حين أن هذا الشعب لا يستطيع أن يضحي بما هو أقل بكثير من الذات: يضحي بقليل من أنانيته وحساسيته تجاه أخوته لكي يستطيع أن يقوم بعمل جماعي ناجح معهم، يتقسم فيه العمل ويتراكم ويدعم بعضه البعض الآخر؛ أي يقوم بعمل صورته نقيض صورة عمل مجتمعاتنا القائمة: فنحن بفضل أنانيتنا وحساسيتنا الزائدة و(كرامتنا الشخصية) الزائفة نتقاطع فيما بيننا، وينظر كل منا بعين الحسد لنجاحات الآخر، ويسعى في تخريبها، ويسامح كل غريب ولا يسامح أخاه!.

أساس النهضة هو الإخلاص الذي ينظر فيه كل فرد لنفسه أنه يعمل لمصلحة تتجاوز ذاته، وأنه يهمه رضا الله عن عمله، ومن هنا يتبخر العامل الفردي.

ومن هنا كانت الفكرة التي تبعث النهضة الحضارية هي فكرة دينية، ولكنه الدين المفهوم على وجهه الصحيح دعوةٌ إنسانية للتواد والتراحم والبناء، وليس المفهوم الزائف للدين دعوةً للتباغض بين البشر!

مراجع المقالة

- أحمد أمين- فيض الخاطر- الجزء السادس- الطبعة الثانية- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٣-مقال "عبد الله نديم"، وهو مقال وضع لاحقاً في كتاب مستقل سماه أمين "زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث"، وتنكير لقب النديم خطأ فيما أظن إذ هو لقب لقب به وليس اسماً أصلياً.
- نجيب توفيق- عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية- مكتبة الكليات الأزهرية١٩٧٠- وهو كتاب فاز بجائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٤وقدَّم له مقدمة وجيزة المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الرافعي تاريخها ١٩٦٣. ومع الأسف هذا الكتاب القيم للأستاذ توفيق تم نسخ بعض فقراته بالحرف الواحد في كتاب الدكتور حديدي الذي سنذكره والذي صدر لاحقاً دون أن يكلف الدكتور المذكور نفسه بالإشارة إلى كتاب توفيق حتى باعتباره مرجعاً وهو شيء محزن مع أن كتاب الدكتور حديدي هو كتاب قيم أيضاً وليتأكد القارئ من ذلك سأذكر له أمثلة للمقارنة يستطيع أن يراجعها (توفيق ٣٤ حديدي ٢٠، توفيق ٣٥ حديدي ٢٢، توفيق ٣٧ حديدي ٢٧ هنا فقرتان نسخت إحداهما حرفياً، وفي الثانية ثمة سطو على أفكار المسكين توفيق في الصفحة نفسها نذكره بعد قليل، توفيق ٣٩ حديدي ٣٤) أما السطو على المعنى فتم على تحليل جميل للأستاذ توفيق والذي يقول في الصفحة ٣٧ "والنفس الحساسة تختزن حتى حفيف أوراق الشجر، وهفهفة الأغصان ودبيب النمال وحلاوة البسمات وأدق مجالي الجمال والقبح ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه" ويجيء الدكتور حديدي فيقول في كتابه الصفحة ٢٧

"وأحاسيس الفنان وعواطف الشعراء تختزن ما يمر بها من تجارب البؤس إلى جانب حلاوة البسمات وأرق معاني الجمال، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها في مقامه"، ومن العجيب حقاً أن يلجأ الدكتور حديدي إلى هذا السطو، وهو الذي يقول في مقدمة كتابه إن صلته بالنديم بعيدة عميقة تعود إلى أيام الطفولة، يومَ كان يقرأ لجده أعداد جريدة الطائف ومجلة الأستاذ!.

- الدكتور علي الحديدي- عبد الله النديم خطيب الوطنية- سلسلة أعلام العرب١٢٥- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٧.
- نزيه حمزة- عبد الله النديم سيرة عطرة وحياة حافلة- اتحاد الكتاب العرب- دمشق- ٢٠٠٠- والكتاب موجود نصاً قابلاً للتنزيل في موقع اتحاد الكتاب العرب على الإنترنت www.awu-dam.org
- الدكتور محمد أحمد خلف الله- عبد الله النديم ومذكراته السياسية- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٥٦.
- عبد الرحمن الرافعي- مصطفى كامل- مكتبة النهضة المصرية- ١٩٥٠-.
- الدكتور محمد عمارة- الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني مع دراسة عن حياته وآثاره- دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨.
- الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى- تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية- القاهرة ١٩٧٣.

٣

مصطفى كامل ومحمد فريد، وتجربة الحزب الوطني في مصر

تمهيد: تجربة الحزب الوطني الشاملة:

تشكل تجربة ما عرف باسم (الحزب الوطني) في مصر، الذي أسسه مصطفى كامل واحدة من أهم تجارب التيارات السياسية - الفكرية العربية، ليس فقط لأنها من أطولها إذ استمرت ستين عاماً، بل أساساً لأنها كانت تجربة شاملة أيضاً؛ مورست فيها تقريباً كل الأفكار الممكنة تقريباً التي خطرت على بال الفاعل -السياسي الاجتماعي في بلادنا للتخلص من المشاكل الكبرى التي تواجهها هذه البلاد، فكأن هذه التجربة (تلخيص) ليس للماضي الذي سبقها والحاضر الذي رافقها فقط، بل هي تلخيص للتجارب اللاحقة أيضاً، وإنها لتجربة فريدة جمعت بآن واحد ما لم يجتمع لاحقاً، فقد جمعت الأسلوب الدبلوماسي المتوجه إلى العلاقات مع الخارج، والمهارة الدبلوماسية في استثمار تناقضات الدول الأوروبية للضغط على الدولة المستعمِرة- إنكلترة لتنهي احتلالها، مع أسلوب الاعتماد على التحريض السياسي الوطني في الداخل ومحاولة استنهاض الشعب في وجه الاحتلال، إلى أسلوب العمل مع الدولة ضد الاحتلال الأجنبي، إلى العمل ضد الدولة وضد الاحتلال معاً (حين

تحالف الخديوي مع الاحتلال في "فترة الوفاق")، إلى أسلوب الاستنهاض الحضاري الذي لا يتوجه للفعل السياسي المباشر بل يتوجه إلى الفعل الاجتماعي، إلى التوجه الإسلامي العام على شكل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. ومرَّ الحزب الوطني بفترات مختلفة لجأ فيها بعض شبابه، وإن لم يكن ذلك بالضرورة بدفع من القيادة، إلى ممارسة العنف السياسي، ولم تخل الممارسة من جذور للنظرة الإقليمية، ومن جذور لنوع مبكر من (القومية العربية)، ومن ميل لنوع من (الاشتراكية العربية)، ومن توجهات لبرالية برجوازية، (وإن كنت أفضل تلخيص التوجه الفكري العام للتيار بأنه "لبرالية-وطنية-إسلامية")، ويمكن للمرء في اعتقادي أن يعد مركبات متناقضة أخرى كانت من مكونات ذلك التيار الكبير والمؤثر في السياسة والمجتمع المصريين، في الفترة الطويلة والمهمة جداً والمكوّنة للمجتمع المصري الحديث التي بدأت في السنوات التي تلت الاحتلال الإنكليزي (الاحتلال بدأ عام١٨٨٢ م وتجربة "الحزب الوطني" بدأت في السنوات الأولى من تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي) وانتهت مع قيام ثورة تموز (يوليو) (١٩٥٢م).

والقارئ لهذه التجربة يجد نفسه - في كثير من الأحيان - كمن يرى شريطاً سينمائياً وثائقياً ليس عن تلك الحقبة بل عن الحاضر، ولكن بأسماء أخرى للفاعلين الرئيسين، مما ينبئنا أن ثمة منطقاً واحداً للأحداث عندنا، لم يزل هو الذي يقرر السيرورة الاجتماعية بكل أبعادها، ومن هنا كانت فائدة إعادة النظر في هذه التجارب، إذ من شأنها أن تقنعنا بأننا نعيد أحياناً الأخطاء نفسها التي ارتكبت سابقاً، ونجرب حلولاً ثبت أنها غير مجدية، ونسير من جديد في طرق لا توصل إلى أي نتيجة إيجابية غير تضييع الوقت الثمين الذي يهدر في السباق الذي تخلفنا فيه بمسافات كبيرة عن الآخرين.

في هذه المقالة أريد أن أقدم نقاط علام أساسية، وبأكبر قدر ممكن من الاختصار الذي سأحاول ألّا يكون مخلاً بالموضوع - لتاريخ تجربة "الحزب الوطني" التي أسسها مصطفى كامل وأكملها محمد فريد، ثم سارت في طرق متنوعة بعدهما (تُوفي كامل في شباط (فبراير) عام ١٩٠٨م وفريد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩م) حتى انتهت مع غيرها من تجارب مع قيام ثورة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢م.

وسأبدأ المقالة بتقديم محطات رئيسة في حياة المؤسّسين، وأتطرق باختصار إلى أشخاص مهمين آخرين في حياة الحزب، وهم الشيخ عبد العزيز جاويش، وباني الحركة التعاونية في مصر والشخصية الاقتصادية الهامة عمر لطفي، ثم الرئيس الثالث والأخير للحزب حافظ رمضان، وسأستعرض بعض التجارب النهضوية المهمة التي قام بها تيار الحزب الوطني، والتي تؤهله إلى حد لا بأس به في اعتقادي لعده واحداً من أصحاب ما أدعوه "النهضات المجهضة"!. ثم أختم بصورة موجزة عمّا آل إليه الحزب بعد محمد فريد حتى عام ١٩٥٢م.

أولاً: مصطفى كامل سيرة فكرية- سياسية موجزة:

١- عن الرجل:

من هذا الشاب الناحل ضعيف البدن معتل الصحة، الذي لربما كان من أكثر الناس الذين ينطبق عليهم قول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام؟

هذا الشاب الذي قال فيه كاتب معاصر هو قاسم أمين حين توفي وهو في ربيع العمر: "١١ شباط (فبراير) ١٩٠٨م! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هو المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة

الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل»[1].

والذي قال فيه شوقي:

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني

يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين وروّع الحرمان

ذلك الشخص الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في زمنه وبعد زمنه، ولم يزل لعمله صدى إلى الآن - لم يكن أكثر من شاب يافع ولد في أسرة متوسطة الحال، لم تكن تنتمي إلى الأسر الأرستقراطية التي اعتادت أن تخرج السياسيين في مصر، ومن ثمَّ لم يعتمد في نفوذه الهائل العجيب إلا على قدراته الخاصة التي وهبها إياه الخالق عز وجل، وقد كانت من تلك القدرات الخارقة التي لا يجود الزمان بمثلها كثيراً، وهي التي دفعت معاصريه إلى أن يعجبوا به ويسلموا له بأحقيته في الزعامة السياسية مع أنه كان مؤهلاً لهذه الزعامة لا في السن ولا في الوضع الاجتماعي، فهو بحق أعجوبة أخرى من عجائب الدنيا جاءت بها مصر إلى جانب الأهرام.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي- (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) (تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م- ص ٢٧٠.

٢- بدايات نشاط مصطفى كامل السياسي- الفكري- الاجتماعي:

وُلد مصطفى كامل في القاهرة في ١٤ آب (أغسطس) عام ١٨٧٤م لأب كان مهندساً في الجيش المصري، ومنذ كان مصطفى تلميذاً يافعاً نال احترام الأساتذة بسبب اجتهاده وفصاحته واستقلاله في الرأي، وقد تعرف عليه علي مبارك وزير المعارف الشهير فأعجب به إعجاباً كبيراً وقال له مرة: "أنت امرؤ القيس!"، ولا شك أن مواهب مصطفى كامل الخطابية كانت متميزة للغاية، وهي تذكرنا بمواهب عبد الله النديم، وإن اختلفت شخصيتا الرجلين كل الاختلاف في طبيعتهما وفي مجالات عملهما.

يصف الشاعر خليل مطران تأثير مصطفى كامل العجيب في الجمهور الذي كان يسمع خطبه كما يلي: "وقف يتكلم وقد ضاق النادي على اتساعه بالناس، جلوساً ووقوفاً في الكراسي وفيما بينها، صامتين تشوقاً إلى ما سيسمعون، منتظمين انتظاماً طبيعياً ليس من عمل شرطي ولا ترتيب بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع (...) ولا غرو فإنه صوت مصر الحي ولسان ضميرها المجاهر"(١).

وقد استطاع مصطفى كامل بموهبته الكبيرة أن يستثمر مجمل الظروف المعقدة التي كانت مصر تمر بها لبعث الحركة الاستقلالية بعد أن ظنها الناس ماتت ميتة أبدية مع انهيار الحركة العرابية ودخول القوات الإنجليزية إلى القاهرة عام ١٨٨٢م. لقد بعث بحق الأمل الذي كان انطفأ وهو ما نراه في شهادة قاسم أمين عنه وتؤكده كل الشهادات المعاصرة له.

بدأ مصطفى نشاطه العام في وقت مبكر في المدرسة الثانوية حين أسس (جمعية الصليبة الأدبية) عام ١٨٩٠م، وكان ما يزال طالباً في

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

المدرسة الثانوية، ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية عام ١٨٩١م، وفي هذا السن الصغير تعرف إلى كثير من وجوه مصر السياسية والفكرية والأدبية البارزة، وكان يناقشهم مناقشة الند للند.

وقد فسر لشقيقه "علي فهمي كامل" اختياره لدراسة الحقوق بطريقة تدلنا على توجهه وما سيؤول إليه أمره: "عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها. لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم"(١).

وبالفعل فقد فهم النشاط الوطني على أنه مرافعة مكتوبة وشفهية، يهدف منها إلى استحثاث فعل ممن يتوجه إليهم بالخطاب ضد الاحتلال، ولكن مرافعاته كان فيها عنصر آخر غير المنطق الحقوقي الجاف، فقد كانت حافلة بالعاطفة الجياشة التي جعلت من بعضها أناشيد وطنية بالمعنى الحرفي للكلمة، كالنشيد الوطني الذي لحنه سيد درويش: "بلادي بلادي" ومقطعه الأول في الأصل جملة من خطبة شهيرة لمصطفى كامل.

وفي عام ١٨٩٣م أصدر مجلة أسماها (المدرسة) شعارها: "حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك"، والقارئ لأعداد هذه المجلة يلمس التطور الفكري لمصطفى، من كتابة مبتدئة غير مشذبة، يميزها مع ذلك تلك النزعة الوطنية العارمة التي ظلت تميزه حتى نهاية حياته، إلى كتابة أنضج تنبئ بمستقبله الذي آل إليه بوصفه محامياً مفوّهاً عن القضية المصرية، وخطيباً من أكبر خطباء عصرنا.

وفي المجلة نرى التوجه الديني الإصلاحي، ولعله كان أثراً غير مباشر من آثار مدرسة جمال الدين الأفغاني، ولا ننسى هنا أن مصطفى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

كان قد تعرف إلى عبد الله النديم تلميذ هذه المدرسة النجيب وخطيب الحركة العرابية المفوه حين عاد الأخير من المنفى، وأصدر مجلة (الأستاذ)، وفي عدد ٢٨ شباط (فبراير) من هذه المجلة تنويه بظهور مجلة "المدرسة"[١]

ففي عدد مجلة (المدرسة) الصادر في ١٥ حزيران (يونيه) ١٨٩٣م، نقرأ فقرة تحت عنوان "بأي كتاب نقتدي وبأي دستور نهتدي" تقول:

نقتدي بكتاب مجيد ودستور فريد شرعه لنا فاطر السماوات والأرض وما فرط فيه من شيء. كتاب شريف وقرآن منيف. الحق يقدمه والنور يحيط به من كل جانب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. كتاب يكفل لنا السعادة الدنيوية والأخروية (...) ألا ترى كيف أن المسلمين في صدر الإسلام ملكوا الأرض من مشارقها إلى مغاربها وتفردوا بالكلمة وتوحدوا بالسلطة، حتى علا مجدهم الفرقدين وغدت أنوار الشمس لا تغيب عن أملاكهم (...) كل ذلك باتباع القرآن الشريف الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فما بالنا معشر المسلمين لا نتبعه وقد علمنا أنه عنوان سعادتنا وقائدنا إلى طريق مجدنا؟. فلنجعله نبراساً في أعمالنا وسراجاً وهاجاً في حركاتنا وسكناتنا، ولا نكن كمن غره السراب، وهو يغتر بأقوال الحسدة المموهين والكفرة الخاسرين الذين يقولون: إن القرآن أنزل لعصر لا لكل الأعصار، ولقوم لا لكل الأقوام، بل لنعلم حق العلم أن في اتباع القرآن الوصول إلى أعلى المنائر في الحضارة والمدنية"[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢) "أوراق مصطفى كامل - المقالات - الكتاب الأول من ١٨٩٣ - ١٨٩٩م" - تحقيق وإشراف دكتور يواقيم رزق مرقص - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ - ص ٤٢.

وفي عدد آخر من المجلة (مؤرخ بربيع الأول ١٣١١هـ) يعود إلى هذه الفكرة في مقالة كتبها بعد عودته من فرنسة حيث أدى امتحان السنة الأولى في كلية الحقوق فيقول: "وقد يخطئ أعداء هذا الدين الخطأ الجم عندما يقولون: إنه إذا كانت مبادئه حقيقية فلم لم ترتفع للمسلمين في هذه الأيام كلمة، ولم سبقهم الإفرنج إلى التقدم؟ ويضيفون على ذلك أن العرب لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بقوتهم وشجاعتهم لا بنور دينهم وعظيم علومهم. فنجيبهم على هذا القول الفاسد وادعاء الباطل بأن العرب قبل الإسلام وبعده هم العرب، ولم يتغيروا وقوتهم ثابتة لم تتحول فلم لم يصلوا إلى الرفعة وعلو الشأن قبل الإسلام؟ لا شك أن بلوغ هذه المكانة التي بلغوها ينسب إلى تأثير هذا الدين الجليل. وأما السبب في عدم ارتفاع كلمتنا في هذه الأيام فهو لأن أكثرنا ترك قواعد الدين الجليل فعلاً لا اعتقادا؛ وأهمل أمر التربية الإسلامية"[١].

هذا الاعتقاد الإسلامي الإصلاحي لم يتغير في أسس الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى، وإن كان التركيز عليه مختلفاً بين الفينة والأخرى كما سنرى لاحقاً. وما أريد ملاحظته هنا أنه مختلف عن الأيديولوجية الإخوانية التي تبلورت في منتصف الثلاثينيات، والتي تقول في أطروحتها المحورية: إن حل مشاكل المسلمين يتمثل في استلام السلطة وتغيير القوانين القائمة لتتطابق مع أساس الشريعة الإسلامية، وضبط المجتمع ضبطاً كلياً يقلب المؤسسات الموجودة التي بني كثير منها على أساس النموذج الغربي، وتفترض هذه الأيديولوجية أن هذا البرنامج هو (الحل) للمعضلات كلها، لا حل دونه ولا إخفاق معه، لا ينفع دونه شيء ولا يضر معه شيء!، وهذه الأيديولوجية هي النسخة الإسلاموية من الأيديولوجية العربية العامة التي ستسود بلاد العرب في النصف الثاني من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥١.

القرن العشرين حتى التسعينيات منه، وسماها الفقير إلى الله في أماكن أخرى (عبادة السلطة) أو (فرط التسييس)، والسمة العامة لها هي الاعتقاد بالتأثير السحري للسلطة بالذات (للسلطة تحديداً وليس حتى "للدولة" التي هي مفهوم أعم) بحيث اختزلت كل المشاكل والحلول فيها: ففساد السلطة منه يتفرع كل فساد في المجتمع، وصلاحها هو صلاح لكل فساد، وهذه الطريقة في التفكير قادت إلى استقالة المجتمع من واجباته، وانتظاره للحل من السلطة الموعودة المرجوة أي إلى من "تكلمه بلغة الحقوق لا بلغة الواجبات" كما كان مالك بن نبي في مناسبات أخرى يقول.

مصطفى كامل كان يقرر هنا الحقيقة الواضحة للدور الحضاري العظيم الذي يمكن أن يقوم به الإسلام، لا عبر السلطة بل عبر الفاعل الاجتماعي، وقد انتظرت الساحة العربية طويلاً، بل حتى ما بعد عام٢٠٠٠ ميلادي لنرى تباشير هذه النظرة الجديدة في أقطار عربية عديدة.

وفي فقرة لاحقة من هذه المقالة سنذكر التقارب الذي حصل في الأربعينيات بين "الإخوان" والحزب الوطني.

على أن البصمة المميزة لشخصية مصطفى كامل في اعتقادي، وقد بدت هذه البصمة أيضاً واضحة في كتابات الشباب المبكر في مجلة (المدرسة)، هي بصمة (الوطنية).

لعل أحداً في عصرنا الحديث لم يتكلم عن الوطن والوطنية بهذه الحرارة والشاعرية كما تكلم مصطفى كامل، ولم تكن الوطنية بالكلمة الجديدة فقد ورثها مصطفى عمن سبقه، ولكن أحداً لم يركز عليها تركيزه، ولننظر إلى هذه المقتطفات من خطبه وكتاباته في شتى مراحل حياته:

في مجلة (المدرسة) آذار (مارس) ١٨٩٣: "محبة الوطن من الواجبات الإنسانية وإني أعتبر الآن من يقصر في محبة وطنه أكبر خائن

وأعظم مجرم، وكيف لا يكون أعظم مذنب وهو منكر للجميل عاص لوالدته الكبرى التي ربته في المهد صبياً؟"[١].

من خطبة له عام ١٩٠٤: "إنما الوطنية شعور ينمو في النفس، ويزداد لهيبه في القلب، ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته"[٢].

خطبة ألقاها في أكتوبر ١٩٠٧قبل وفاته بقليل: "بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر!"[٣].

وما هو منتشر في زماننا عند بعض الأوساط من ولع غريب بتسفيه كل استخدام لكلمة "وطن" أو "وطنية" بدعوى تناقضها مع الدين والانتماء الإسلامي، كان له نظائر على ما يبدو في زمان مصطفى كامل، وقد اهتم هو بإيضاح موضوع العلاقة بين الدين والوطنية؛ ففي خطبة له ألقاها في الإسكندرية في يونية عام ١٩٠٠ يقول: "قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً، ويفديه بروحه وما تملك يداه"[٤].

ولا بد للمرء في هذه المناسبة أن يشير إلى أنه من الأمور التي تثير الاستغراب حقيقة أن ينعى بعضهم على الناس قولهم بالدفاع عن الوطن، وظنهم أنها دعوى جاهليةٌ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يخبرنا أن

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤.
(٢) الرافعي - "مصطفى.." - ص ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

من قتل دون ماله فهو شهيد، هذا وهو مال يخصه هو، وفي دفاعه عنه مصلحة ذاتية، فكيف بمن قتل مدافعاً عن وطن يخص الجميع ولا يخصه وحده، ولعله لو وقف على الحياد لنجا بروحه وحفظ مصالحه الخاصة؟

على أن للحذر من بعض استخدامات النزعة الوطنية لتأجيج نار البغضاء بين الشعوب مبرراً، وإن كان هذا المبرر لا يجعلنا ننفي فكرة (الوطن) و(الدفاع عن الوطن) باسم الدين من منظومة قيمنا، حين يكون الوطن مستهدفاً من قبل احتلال أجنبي. وأعتقد أن مصطفى كامل لم يبحث في هذا الموضوع بتوسع، ولعله كان قميناً ببحثه لو امتد به العمر، ورأى من استخدم فيما بعد مفهوم (الوطنية المصرية) استخداماً سلبياً ليحاول فصل مصر عن محيطها العربي الإسلامي، وعن جذورها الحضارية بدعوى هوية زائفة مختلقة هي "الهوية الفرعونية".

٣- الظروف الدولية والإقليمية التي رافقت نشاط مصطفى كامل وتكتيكه السياسي

حين بدأ نشاط مصطفى كامل عام ١٨٩٠م كان قد مضى على الاحتلال ثماني سنوات، وكانت مصر ترزح تحت وطأة شعور ثقيل بالهزيمة والإحباط، ولم يكن من أحد تقريباً يفكر في بدء نهضة جديدة لحركة استقلالية من شأنها أن تحاول الوصول إلى ما عجز عنه عرابي ورفاقه.

كانت مصر ما تزال من الناحية الرسمية الشكلية تابعة للدولة العثمانية، وهذه النقطة كان مصطفى كامل يركز عليها كثيراً في حركته السياسية الدبلوماسية في دول أوروبة، وهذه النقطة كانت بلا شك مفيدة في محاججته الاحتلال، ولكنني لا أرى ما رآه بعض الباحثين الأوروبيين مثل (جولد شميت) من أن العلاقة مع الدولة العثمانية والتأكيد على الولاء

لها والدعوة اللاحقة للجامعة الإسلامية كانت شعارات مصلحية محضة بلا إيمان حقيقي. ويحسب زعم الأخير فإن "زواج الوطنية المصرية من الجامعة الإسلامية- العثمانية كان زواج مصلحة لا حب"(١).

في اعتقادي أن كلاً من مصطفى كامل ومحمد فريد كانا مؤمنين بفكرة (الجامعة الإسلامية)، وإن كانا في الوقت نفسه يرفعان شعار: "مصر للمصريين"؛ إذ لم يكن العثمانيون هم من يهدد أن تكون مصر للمصريين؛ إذ كانت مصر منذ أيام محمد علي قد استقلت فعلياً، ولم تبق لها إلا رابطة معنوية شكلية مع الدولة العثمانية، ولم تكن في مصر حركات قومية تكره العثمانيين وتتمنى الخلاص منهم كما سيكون عليه الحال في بلاد الشام في العقد اللاحق. ولكن مصطفى كامل على كل حال كان لا بد له من أن يجيب على هذه المسألة حين جرب الإنجليز الاصطياد في الماء العكر، كما فعل حين نشرت جريدة إنجليزية هي "الديلي جرافيك" مقالة في عام ١٩٠٦م تزعم فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الإنجليزي بالنير التركي! فرد عليها بمقالة يقول فيها: "إننا نريد أن تكون مصر للمصريين، ونرفض قطعياً كل نير أجنبي وكل سيادة أجنبية، وإن الذين يظنون أن الشعب المصري يمقت إنجلترة لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطأً جسيماً فإن الشعب المصري يمقت المحتل الذي قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأي دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأي حال من الأحوال"(٢).

---

(١) الدكتور زكريا سليمان بيومي - (الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية ١٩٠٧ - ١٩٥٣م) - الفاروقية لتوكيلات الطباعة والنشر - دون ذكر مكان النشر وهو على الأغلب القاهرة! - ١٩٨١م - ص ١٩٤.

(٢) الرافعي - "مصطفى.." - ص ٢٢٤. وانظر أيضاً حول علاقة الحزب الوطني بتركية: بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ١٩٤ - ٢٠٠.

كان لمصطفى كامل جريدة أسبوعية باسم "العالم الإسلامي" كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء[١]، وعن مفهومه لـ "الجامعة الإسلامية" نشر مقالاً في جريدة الطان الفرنسية يقول فيه:

"لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوربة تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي(...) إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوربة -أي الحرب الدينية- لا وجود لها بالمرة، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل إنسان، وإنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة، فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية، بل بالتعليم والنور، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانوناً اجتماعياً فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل، أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر فإني أؤكد أن بلاداً كثيرة في أوروبة تعرف التعصب العنيف الممقوت، في حين أن مصر لا تعرفه، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود، ولا اشتراكيون ولا فوضويون، ولا شيء من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضاً"[٢].

---

(١) الرافعي - "مصطفى.." - ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

وإذا قيل: إن دعوة مصطفى كامل للجامعة الإسلامية هي (دعوة مصلحة)، فنحن نرى في هذا المقال الذي كتبه مصطفى كامل أن الأسباب التي في ذهنه لهذه الجامعة هي حقاً أسباب وجيهة، ومن ثمَّ فإن هذه (المصلحة) ليست من نوع المصلحة العابرة، بل هي مما يمكن أن نسميه (المصلحة الاستراتيجية) للبلاد الإسلامية، وهذا لا يعني شيئاً آخر غير أن دعوة مصطفى كامل لهذه الجامعة كانت قناعة راسخة عنده ولم تكن مسألة (تكتيك سياسي) عابر. هذا مع أن علينا أن نضع في أذهاننا دوماً أن مصطفى كامل قدم المثال الأول - فيما أعتقد - للدبلوماسي العربي الذي يفهم (البراغماتية) الغربية ويتعامل معها، فقد كان يكلم كل حكومة أوروبية بلغة تفهمها هي لغة المصالح، ولكنه في هذا الطريق ترك بلا شك انطباعاً مضللاً عند من يقرأ أقواله التي نشرها في صحف أوروبة وقالها في محافلها كما لو كانت تمثل وجهات نظره النهائية، وهي في حقيقتها صيغة دبلوماسية موجهة لمستمعين معينين، ولك إن شئت ألّا تقبل بهذه الطريقة، ولعل مصطفى كان يحس أحياناً بعبث هذا الطريق الذي جربه للحصول على حقوق مصر عبر العمل الدبلوماسي في أوروبة، أو جعل هذا العمل مساهماً على الأقل في تحقيق هدف طرد الاحتلال الإنجليزي، ولكنه بالتأكيد لم يتركه حتى النهاية، بل لم يتركه خليفته محمد فريد كما سنرى، ولم يتوقف إلا مع الجيل اللاحق من أنصار الحزب الوطني.

بدأ مصطفى كامل نشاطه السياسي المؤثر مترافقاً تقريباً مع استلام الخديوي عباس حلمي الثاني منصبه عام ١٨٩٢م، خلفاً لوالده (الخديوي توفيق) الذي كان قد تحالف مع الإنجليز ضد العرابيين، مقدماً واحداً من أول الأمثلة في عصرنا على تحالف السلطة مع الاحتلال الأجنبي ضد المعارضة! أما الخلف عباس حلمي الثاني فكان شاباً يافعاً حين استلامه للسلطة الناقصة بحكم سيطرة الإنجليز وإدارة "اللورد كرومر" لكل صغيرة

وكبيرة في البلد، وقد افتتح عهده بمجموعة من الصدامات مع الاحتلال كانت جميعها تنتهي بتراجع إجباري يفرض عليه، غير أنه في هذه المرحلة المبكرة قرر أن يستعين بالشباب الوطني المتحمس الذي كان مصطفى كامل رمزه الألمع والأكثر موهبة خطابياً وسياسياً.

وكان مما استفاده مصطفى من عبد الله النديم أن العرابيين أخفقت حركتهم حين اصطدموا بسلطة الخديوي[١]، فاهتم من ثمَّ في عمله أن تكون علاقات الوطنيين مع الخديوي جيدة، وأن ينسقوا الجهود ضد الاحتلال معه، وهذا ما تم بالفعل حتى مرحلة لاحقة حين عاد الخديوي إلى التحالف مع الاحتلال في "فترة الوفاق".

وفي اعتقادي أن بذرة الخلاف بين الخديوي الجديد والوطنيين كانت موجودة منذ البداية، غير أنها لم تظهر إلا فيما بعد، وتتمثل هذه البذرة في اصطدام تقاليد الحكم الفردي الأسرية عند الخديوي مع النزعة الدستورية لمصطفى كامل ومن أتوا بعده من الوطنيين.

كانت استراتيجية مصطفى كامل السياسية تعتمد على التنسيق مع الخديوي، وإحراج الاحتلال عبر تذكيره الدائم بأنه إنما دخل مصر بدعوى الدفاع عن حقوق الخديوي ضد المتمردين عليه، والآن هاهو الخديوي بنفسه يقف ضده! وفي الوقت نفسه كان مصطفى كامل يؤكد على الوضع القانوني لمصر بصفتها تابعة رسمياً للسلطنة العثمانية، وهي ورقة أخرى يمكن استخدامها ضد الاحتلال دون أن يعني هذا في اعتقادي أن مصطفى كامل لم يكن يؤمن بضرورة وحدة المسلمين لأسباب تقدم ذكرها، فالمسألة لم تكن مجرد مسألة مصلحية، وإن لم يخل الأسلوب الدبلوماسي الذي اتبعه مصطفى كامل في الخارج من التباس،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦ - ٣٧.

إذ إن صيغه الموجهة للرأي العام الأوروبي لم تكن واضحة دوماً في هذه النقطة، وهو هنا أيضاً يقدم واحداً من أول الأمثلة في العصر الحديث على الالتباس بين المبادئ والتكتيك السياسي، فيصعب على المتابع أحياناً أن يعرف العقائد الحقيقية من التصريحات الإعلامية التي تمليها التكتيكات الظرفية للسياسي العربي!.

لم تكن إنجلترة وحدها هي الدولة الأوروبية صاحبة المصالح في مصر؛ فقد ورثت معها دول أوروبية عديدة امتيازات مقننة، وكان من أسباب ذلك تلك المأساة- المهزلة: مسألة الدَّيْن الخارجي المورروث من عهد الخديوي إسماعيل، وقد ترافقت هذه الامتيازات مع نقص خطير في السيادة الوطنية، حتى كان الأجانب إن كانت لهم خصومات قضائية مع المصريين، لا يحاكمون في المحاكم المصرية العادية بل جُعل لخصوماتهم تلك محاكم خاصة تسمى (المحاكم المختلطة)، قضاتها من أجناس مختلفة، ولم يكن من السهل محاسبة مواطني الدول الأجنبية، وقد استفاد من هذه النقطة -للمفارقة- الوطنيون أيضاً حين كانوا يصعّبون على الحكومة محاكمة جرائدهم واتخاذ الإجراءات القمعية تجاهها، بجعلها مملوكة اسمياً لمواطنين أجانب. ومن الأمثلة على ذلك جريدة "مصر الفتاة" التي أسند بعض أعضاء الحزب الوطني ملكيتها الصورية للألماني أوجست كاين؛ للتملص من قانون المطبوعات الصارم الذي أصدرته حكومة بطرس غالي، وقد استعملت إنجلترة نفوذها عند الحكومة الألمانية حتى استطاعت أخيراً إغلاق الجريدة[1].

كان رهان مصطفى كامل منصبّاً بصورة رئيسية على فرنسة لأسباب عديدة منها سبب شخصي هو إتقانه اللغة الفرنسية إذ درس الحقوق في فرنسة، ولكن السبب الموضوعي لذلك كان التنافس الفرنسي الإنجليزي

---

(١) بيومي - (الحزب الوطني..) - ص ٢١٥.

على النفوذ في مصر الذي تحول ذات يوم إلى صراع مسلح في أثناء حملة نابليون، وكان من أولى أعمال مصطفى كامل السياسية في فرنسة قيامه بالاتصال بالبرلمان الفرنسي عام ١٨٩٥م بتقديمه عريضة تطلب من فرنسة أن تساعد مصر في استعادة حريتها واستقلالها وفيه: "هل لفرنسة أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسة ليس بالفخار القليل لها، فلتحي فرنسة محررة الأمم"[١].

يشير مصطفى هنا على عادته النفعية إلى وقائع تفيده، والواقعة المفيدة هنا كانت مساندة فرنسة للثورة الأمريكية ضد الإنجليز، ولكنه تجاهل كل التجاهل (الأمم) التي كانت تقع تحت وطأة الاستعمار الفرنسي؛ مثل بعض (الأمم) الإسلامية القريبة من مصر كالجزائر مثلاً، بل تجاهل (أمته) هو بالذات، وما لاقته من أهوال على يد "محررة الأمم" هذه عندما احتلت مصر، ولكنه الفهم البراغماتي للسياسة وللدعاية السياسية، أضف إلى ذلك سبباً أهم يميز النخبة الفكرية المصرية في (العهد اللبرالي)- كما يسميه ألبرت حوراني- وهو عدم فهم ظاهرة الاستعمار، وهذه الملاحظة قالها كاتب هذه السطور سابقاً، ولعل الاستثناء الكبير كان عبد الله النديم متبِعاً ومطوِّراً أفكار أستاذه الأفغاني، ومخالفاً كل المخالفة أفكار زميله في التلمذة على الأفغاني محمد عبده.

ومن غير المفيد في هذا المقال الذي نريد لحجمه أن يكون محدوداً قدر الإمكان، التعداد التفصيلي لأعمال مصطفى كامل الدعائية في أوروبة، حيث كان في كل دولة يسمعها ما يرضيها (كأن يمدح النمسة مثلاً في جريدة نمساوية ذاكراً واقعة تعلم الخديوي عباس الثاني قبل استلامه للسلطة في فيينا ومؤكداً أنه نهل من مبادئها وإلى آخره...) وقد

---

(١) الرافعي - "مصطفى.." - ص ٥٢.

كان مصطفى كامل كتب ونشر رسالة بالفرنسية في أوغسطس ١٨٩٥م بعنوان "أخطار الاحتلال الإنجليزي"، وهو يبدؤها بشعاره الجميل الذي أصبح من شعارات الحزب الوطني "أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا" على أنه هو أساس مطالبه السياسية الاستقلالية، وفي الحقيقة تعتبر هذه الرسالة بمثابة (دليل) لمن يريد أن يقوم بما يعمله هو من تحريض البلدان المختلفة على إنجلترة، وإقناعها أن من مصلحتها السعي لإنهاء الاحتلال الإنجليزي لمصر، يذكر مثلاً أن استيلاء إنجلترة على مصر يعني إضرارها بتجارة البلدان الأوروبية الأخرى، كما هي بالنسبة إلى المسلمين أمر خطير لأن من يستولي على مصر يهدد مكة، ثم يعود إلى ذكر تفاصيل في أضرار الاحتلال على مصالح أوروبة في إفريقية إلى آخره، وهذه الرسالة ترينا أن نشاط مصطفى كامل الدبلوماسي واسع النطاق في أوربة كان مبنياً حقاً على دراسة وبحث علمي ومعرفة بلغة الحضارة الغربية الحديثة التي تفهمها، فهو من هذه الناحية يقدم مثالاً للدبلوماسي العربي اللبرالي الحاذق لم يتم تجاوزه من بعد عهده، ولكنه أهمل إهمالاً تاماً تقريباً مبدأ التنسيق مع شعوب المستعمرات المقهورة، وإن كان يجب علينا أن نقرر هنا -والحق يقال- أن ما سُمي لاحقاً بـ (حركة التحرر الوطنية) في البلدان الواقعة ضحية للاستعمار لم تكن قد ظهرت بشكلها الجلي بعد، ومن جهة أخرى فإن التكوين الثقافي والاجتماعي لمصطفى كامل كان يجعله يميل تلقائياً إلى التعامل مع النخب الحاكمة في بلاد الغرب، لا إلى التعامل مع الحركات الاجتماعية- السياسية المتمردة التي كانت تزداد قوتها تدريجياً على عهده، وقد استشهدنا في هذا المقال بافتخاره بخلو مصر من الاشتراكيين والفوضويين الذين كانوا يعكرون السلام الاجتماعي لأوروبة، وسنرى على عهد محمد فريد بعض التغير في هذه السياسة[1].

---

(١) الرافعي يسمي هذه الرسالة في كتابه "مصطفى .."- ص ٥٥ "أخطار الاحتلال =

وسنكتفي هنا بذكر بعض المحطات الرئيسية فقط من تلك الأعمال الدعائية: عقد مصطفى كامل صداقة مع الكاتبة الفرنسية النشيطة (جوليت آدم) وكانت هذه الأخيرة تدعم نشاطاته وتقدمه للمحافل السياسية الفرنسية، وتوزع مقالاته على الجرائد هناك، وقد زارت مصر في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤م واستقبلها الوطنيون والخديوي المتحالف معهم آنذاك.

ولكن فرنسة وصلت إلى ذروة تحديها للنفوذ البريطاني عام ١٨٩٨م حين كادت كتيبة فرنسية تصطدم بالجيش الإنجليزي في السودان في بلدة (فاشودة)، ولكنها تراجعت فَجَلَتْ عن البلدة مما خيب آمال الوطنيين الذين كانوا يراهنون على فرنسة في المساعدة على إجبار الاحتلال الإنجليزي على الرحيل. وكانت هذه الحادثة صدمة شديدة لمصطفى كامل وأنصاره، أما الصدمة النهائية فجاءت عام ١٩٠٤م مع (الاتفاق الودي) الذي سلمت فيه فرنسة رسمياً لإنجلترة بوضعها في مصر، بمقابل اعتراف الأخيرة لفرنسة (بحقوقها) في المغرب!

واعتباراً من "حادثة فاشودة" بدأ الخديوي يغير سياسته المتحدية للإنجليز ويحاول التفاهم معهم، على أن هذه السياسة، التي قادت إلى ابتعاد تدريجي لمصطفى كامل ورفاقه عن الخديوي - لم تتوضح بشكل صريح إلا بعد (الاتفاق الودي) المذكور أعلاه عام ١٩٠٤م، حين بدأ

= البريطاني" وهي في كتاب "أوراق مصطفى كامل"- ص١٦٦ معنونة باسم "أخطار الاحتلال الإنجليزي" وأنصح القارئ بقراءة هذه الرسالة ليرى الخطة التي بنى عليها مصطفى عمله، وليستطيع أن يقارن مع (وطنين) معاصرين راهنوا بطريقة مماثلة على العمل الدبلوماسي شأن (السلطة الوطنية الفلسطينية) الحالية، وفي اعتقادي أن مصطفى كامل كان أحذق من هؤلاء اللاحقين بكثير وأذكى وأقدر على العمل الدبلوماسي المبني على أسس علمية منهجية، وللقارئ -بعد هذا- أن يقارن النتائج العملية التي تمخضت عن المحاولتين.

الخديوي يشارك في الاستعراضات العسكرية الإنجليزية، ويقف تحت العلم الإنجليزي إلى جانب المعتمد البريطاني.

٤- العمل المحلي لمصطفى كامل

ومن الجدير بالذكر، ونحن نستعرض بصورة موجزة حياة مصطفى كامل، أن نذكر ما نريد العودة إليه في فقرة لاحقة من أنه اشتغل في مصر بنشاط اجتماعي ذي أهمية بالغة هو بناء المدارس، وكان بمساعدة أصدقاء له من الأثرياء يؤسسون هذه المدارس التي تنسجم مع الدعوة الإصلاحية إلى نشر التعليم، علماً أن هذه المدارس كانت تتولى تعليم الدروس في التاريخ الإسلامي، وتركز على تعليمهم الخطابة (مما يذكرنا بمدارس عبد الله النديم) واللغة العربية التي اهتم بها مصطفى كامل اهتماماً كبيراً، مخالفاً بذلك جزءاً مهماً من التيار اللبرالي الذي عاصره وتلاه، والذي كان يزري باللغة العربية، ويدعو إلى تجاوزها إلى العامية، أو يدعو إلى كتابتها بالأحرف اللاتينية.

وفي عام ١٨٩٩م استورد مصطفى كامل مطبعة لتطبع له جريدة خاصة به، صدر عددها الأول في ٢ كانون الثاني (يناير) عام١٩٠٠ م هي جريدة "اللواء" الشهيرة، وقد كان لهذه الجريدة تأثير واسع حتى إن مصطفى كثيراً ما كان ينسب إليها فيسمى "صاحب اللواء".

في أيار (مايو) عام ١٩٠٦م وقعت حادثة صغيرة من المفيد ذكرها لتبيان انقسام النخبة السياسية المصرية في موضوع العلاقات مع تركية والجامعة الإسلامية؛ وهي المعروفة (بحادثة طابا)، وخلاصتها أن تركية أرادت مد سكة حديد من معان إلى العقبة ولهذه الغاية قام الجنود الأتراك باحتلال (طابا) الواقعة على الطريق، فلبست إنجلترة لباس القوة الحامية لحقوق مصر، وطلبت من تركية أن تأمر جنودها بإخلاء طابا. وقد خذلت

الدول الأوروبية تركية في هذه المسألة ولم تقبل أن تدعمها، مما أجبرها في النهاية على الجلاء عن هذه البلدة.

أما المصريون فوقف معظمهم متعاطفاً مع تركية بلد الخلافة الإسلامية كما كانوا يرونها وفي طليعتهم مصطفى كامل، وأما الجناح اللبرالي الذي كان يمثله أحمد لطفي السيد فقد أيَّدوا إنجلترة معللين ذلك بضرورة "المحافظة على المصلحة المصرية"، وهي الحجة عينها التي دفعت بالسيد لاحقاً إلى تحدي الرأي العام المصري مرة أخرى، ودعوته إلى عدم تأييد الثورة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١م، وعندها أيضاً اصطدم به تلاميذ مصطفى كامل برئاسة محمد فريد(١).

أهم الحوادث التاريخية الفاصلة التي رسخت بصورة نهائية عداء المصريين للمحتلين، ورسخت في الوقت نفسه الأثر الهائل لشخصية مصطفى كامل السياسية - كان حادثة (دنشواي) ١٣ حزيران ١٩٠٦م وهي في حقيقتها مجزرة نفذها الإنجليز ضد فلاحين أبرياء، وكان يمكن أن تمر ببساطة لولا عبقرية مصطفى كامل في الدعاية الوطنية.

وقصتها أن بعض الضباط الإنجليز كانوا يتجولون في الريف المصري في بلدة دنشواي، فعنّ لهم أن يصطادوا بعض الحمام فأصابت طلقاتهم النارية إحدى الفلاحات فسقطت جريحة، فما كان من الفلاحين إلا أن هجموا على الضابط الذي أطلق النار فهرع رفاقه لمساعدته، وجاء "شيخ الخفر" ومعه الخفر لإنقاذ الضابط، فظنهم الضباط قادمين لمساعدة الأهالي فأطلقوا عليهم النار فأصابوا ثلاثة، عند ذلك رشقهم الفلاحون بالحجارة وضربوهم بالعصي، وما جرى بعد ذلك كان أن الخفر حجزوا الضباط حتى جاء البوليس فأخذهم إلى المعسكر الإنجليزي، إلا أن واحداً منهم كان قد فر من المكان وقد شُجَّ رأسه، وبعد مسافة طويلة من الركض

(١) انظر: بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ٣٥ - ٤١.

في الشمس سقط من الإعياء، ثم توفي لاحقاً وأثبت الكشف الطبي أنه مات نتيجة ضربة الشمس لا نتيجة الجرح. وحين هرع الجنود الإنجليز للنجدة وجدوا فلاحاً مصرياً يقدم كأس ماء لهذا الجريح، فطعنوه ببنادقهم وقتلوه وذهب دمه هدراً فلم تتم محاكمة قتلته. ولو كان الاحتلال يريد العدل لعد الحادثة مجرد مشاجرة ولكن الإنجليز أقاموا محاكمة ميدانية لم تتوافر فيها أدنى شروط المحاكمة العادلة، قضت بإعدام أربعة من الفلاحين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً على واحد، وبالأشغال الشاقة سبع سنين على ستة، وبسنة مع خمسين جلدة على ثلاثة، وبخمسين جلدة على خمسة. وكان رئيس المحكمة هو رئيس الوزراء اللاحق بطرس غالي، وأعضاؤها يتألفون من ثلاثة إنجليز ورابع هو أحمد فتحي زغلول وسكرتير المحكمة كان مصرياً أيضاً.

كانت المحكمة هي (المحكمة المخصوصة) وهي محكمة استثنائية أنشئت عام ١٨٩٥م متخصصة "بالجنايات والجنح" التي تقع من الأهالي على جنود الاحتلال، وقد نفذ الحكم في اليوم التالي لصدوره بحضور الأهالي معبراً عن "الدرجة العالية من التحضر والمدنية" التي بلغها الاستعمار. ولكن من المذهل رؤية من شارك في هذه الجريمة من مصريين ومنهم "وطنيون لاحقون" كفتحي زغلول، ومنهم محام هو الهلباوي لم يتردد في استعمال ذلاقة لسانه الآثمة في دعوة المحكمة لإنزال أقسى العقوبات بهؤلاء الفلاحين، ولعلنا لا نتجاوز المنطق العلمي إن قلنا: إنه في هذه المأساة تحالفت قوتان من طبيعة واحدة ضد أولئك الفلاحين الأبرياء: العنصرية الاستعمارية والطبقية المحلية، وكلتاهما لا تعدان الفلاحين من جنس البشر الذين لهم حقوق وكرامة إنسانية.

كان مصطفى كامل عند وقوع هذه المأساة في باريس، فقرر أن يشن حرباً إعلامية شعواء على الاحتلال فبدأ بمقالة كبيرة نشرها في جريدة

(الفيجارو) الفرنسية بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) أورد فيها وقائع الحادثة بالتفصيل، وبين تناقضها مع ما كان يدعيه اللورد كرومر من أن الفلاحين يحبون الاحتلال، وأن الأمراء والكبراء هم وحدهم من يعادي الاحتلال[1]. وكان لهذه المقالة دوي كبير، وأُعيد نشرها في كثير من الصحف بما فيها الصحف الإنجليزية، وقام بعض النواب الأحرار في البرلمان الإنجليزي يحاسبون الحكومة على ما جرى، وبعد ذلك ذهب مصطفى كامل إلى لندن وقابل كثيراً من السياسيين والبرلمانيين والصحفيين.

ومن الأحداث التي تجدر بالذكر في هذه الزيارة مقابلته لعدد من الهنود مسلمين وهندوس ومستشرقين، وقد أشرت في مكان آخر إلى أن مصطفى كامل لم يكن مهملاً لمشاكل الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي، ولكنه كان يركز على العلاقات مع من يمكن أن يحالفه من قوى أوروبة كما قلنا، وهذه الحالة مازالت مستمرة على كل حال حتى زماننا هذا؛ إذ قلما يهتم العرب أو المسلمون أو مناضلو العالم الثالث بتنسيق كفاحهم، بل يحاورون القوى الكبرى منفردين، وقد باءت بالإخفاق "حركة عدم الانحياز" التي نشأت عن مؤتمر باندونغ. ولعل مالك بن نبي كان من مفكري العرب القلائل الذين حملوا فكرة التنسيق الأفروآسيوي على محمل الجد، فحتى التيار اليساري اللاحق كان يركز في الواقع على التحالف إما مع الاتحاد السوفييتي و"الدول الاشتراكية"، أو مع الحركة الاشتراكية في البلدان الغربية[2].

(١) انظر الترجمة الكاملة لهذه المقالة في: الرافعي - "مصطفى.." - ص ٢٠٤-٢١٣.

(٢) اهتم مالك بن نبي بهذه الحركة كثيراً وراهن عليها، وللقارئ أن يراجع كتابه "الحركة الأفروآسيوية" ولكنه في أماكن أخرى من كتاباته نقد لجوء زعماء العالم الثالث إلى "منطق الحقوق"؛ حين قصروا أعمالهم على مطالبة الدول الغنية بالمساعدة، ولم يعملوا هم شيئاً ليستثمروا إمكاناتهم الذاتية ويعتمدوا على أنفسهم باعتبارهم وحدة واحدة في سبيل تجاوز الهوة بينهم وبين البلدان المتقدمة صناعياً.

وكان نشاط مصطفى كامل في أوروبة في الرد على جريمة دنشواي مثار إعجاب كبير عند المصريين، وكان النقطة التي تحول فيها مصطفى كامل إلى بطل وطني، وواحد من ثلاثة مؤسسين كبار لمصر الحديثة في القرن العشرين (هو وسعد زغلول والرئيس جمال عبد الناصر).

بعد هذه الحملة الشعواء على السياسة الإنجليزية في مصر قررت إنجلترة التخلص من اللورد كرومر وتهدئة خواطر المصريين، وفي عام ١٩٠٧م استبدل كرومر بالدون جورست الذي اتبع سياسة التقرب من الخديوي مما أبعد هذا الأخير عن الوطنيين.

وبعد الازدياد الكبير في نفوذ مصطفى كامل في مصر وشهرته في الخارج، أسس جريدتين يوميتين واحدة بالإنجليزية "ذي إجبشيان ستاندرد"، وأخرى بالفرنسية "ليتندار إجبسيان"، وقد ساهم الخديوي وبعض الأغنياء ومحمد فريد في رأس مال الشركة الصحفية التي تصدرهما.

هدفت الجريدتان إلى مخاطبة الرأي العام الأوروبي علاوة على مخاطبة الجاليات الأجنبية في مصر، وقد استمرت الجريدتان في الصدور حتى توقفت الفرنسية عام ١٩٠٩م وسبقتها الإنجليزية، ولم تنجح - إلا بشكل محدود - محاولة أخرى لإصدار صحيفة فرنسية.

٥- تأسيس الحزب الوطني

إذا كنا منذ عهد الخديوي توفيق وأيام جمال الدين الأفغاني وتلاميذه والحركة العرابية نتكلم عن "الحزب الوطني" في مصر، فإن علينا برأيي أن نفهم مصطلح "الحزب" هنا بمعناه اللغوي العام الموروث، وليس بالمعنى الاصطلاحي الحديث الذي يعني مؤسسة ثابتة لها نظام داخلي وبرنامج سياسي وهيئات تقودها وتنظمها. (الحزب الوطني) كان حتى عام

١٩٠٧م تعبيراً عن تيار غير منظم مناهض للاحتلال الأجنبي، وسمته العامة أنه يريد التجديد في الإسلام، وإزالة الشوائب التي علقت به في عصور الانحدار الحضاري، وبث الروح النهضوية في الشعوب الإسلامية، وفي الحقيقة إن هذا الأساس الفكري استمر ملازماً تيار (الحزب الوطني) حتى النهاية.

في عام ١٩٠٧م قرر مصطفى كامل أن ينشئ هيئة منظمة باسم (الحزب الوطني)، كانت في حقيقتها حزباً على طريقة أحزاب الديمقراطيات البرلمانية أي إنه حزب يسمح بقدر كبير من الحرية في الاختلاف في المواقف الجزئية بين أعضائه، وفي نشوء تيارات ضمن الحزب يختلف بعضها مع البعض الآخر في بعض الأفكار وفي نوعية الارتباط بالقوى الاجتماعية والسياسية الأخرى، وهذا المفهوم لكلمة (حزب) يختلف بالطبع عن المفهوم الذي تأخذه الكلمة حين تسمي تلك المنظمة الأيديولوجية المنضبطة انضباطاً حديدياً تحت قيادة قليلة العدد ويتماثل فيها الأعضاء في المعتقدات نفسها، ولا يسمح لهم ولا هم يسمحون لأنفسهم بأي تميز فردي، وهذا الشكل الآخر الذي هو (الحزب الأيديولوجي) ستشهده مصر بعد ذلك بقليل مع نشوء الأحزاب الاشتراكية والأحزاب المتأثرة بالفاشية، ومع التحول في حركة الإخوان عام ١٩٣٥م الذي جعلها (حزباً أيديولوجياً) أيضاً[١].

وانعقدت "الجمعية العمومية" للحزب الوطني في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٧م بدار (اللواء)، وكان المدعون يقاربون الألفين. وقد ألقى مصطفى كامل - كما هو متوقع! - خطبة هامة تكلم فيها على طبيعة

(١) راجع ما ذكرناه عن هذا التحول في (الإخوان) من حركة نهضوية اجتماعية إلى حزب أيديولوجي في مقال "حسن البنا- آفاق النهضة وحدودها"- مجلة "الجسور"- العددان ١١و١٢.

الحزب ورؤيته للعالم فقال: "إننا لسنا حزباً سياسياً فقط بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمي إلى الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصري جاهلاً تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، هو يرمي قبل كل شيء إلى أن يكون المصري إنساناً بأسمى معاني الكلمة، وأقصد بالمصري ليس فقط ذلك الذي نراه في المدائن يجد ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمى عمل تقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو هو ممثل النشاط المصري، ومصدر كل خير ونعيم، فليحي عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلاً حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته"[1].

لعل ذكر الفلاح هنا لا يمثل افتراقاً ملموساً لمصطفى كامل عن الليبراليين الآخرين، إذ لا يزال الفلاح عنده ينتظر "أبناء وطنه المتعلمين" لإنهاضه، وهذه النهضة لا نرى وصفاً تفصيلياً لها، أو لآليات ملموسة لتحقيقها في هذا الخطاب التأسيسي، ولكننا سنرى في فقرة لاحقة أن بعض خلفاء مصطفى في الحزب كان لهم ريادة في ميدان البدء في عمل ملموس لتغيير حال الفلاح المصري، وإن كان التغيير الكبير سينتظر حتى عهد "الضباط الأحرار" لتنفيذ إصلاح زراعي مهم بلا شك، وإن كان قابلاً للنقاش في طرق تنفيذه والنتائج الاجتماعية والاقتصادية التي تمخضت عنه.

كان هذا التأسيس الرسمي للحزب الوطني آخر أعمال مصطفى كامل تقريباً فقد توفي بعد أقل من ثلاثة أشهر من ذلك في ١٠ شباط (فبراير)

---

(١) الرافعي "مصطفى.." - ص ٢٦٠.

عام ١٩٠٨م، وأحدثت وفاته دوياً هائلاً في مصر كما قدمنا، وانتخب الحزب الوطني محمد فريد رئيساً له خلفاً لمؤسسه الكبير.

ثانياً: سيرة موجزة لحياة محمد فريد والمرحلة الثانية من نشاط الحزب الوطني:

١- محمد فريد قبل بدء نشاطه المشترك مع مصطفى كامل:

وُلد محمد فريد عام ١٨٦٨م لعائلة تنتمي إلى النخبة الحاكمة؛ إذ كان أبوه من كبار الموظفين في مصر من حاشية الخديوي، وقد اشتهر بالنزاهة ونظافة اليد مع الكفاءة، فقد عينه الخديوي مراراً برتبة محافظ ومدير، وخلع عليه رتبة باشا ومنحه وساماً من الدرجة الأولى لإدارته بكفاءة (للدائرة السنية) وتوفي عام١٩٠١م.

والعائلة تنحدر من أصل تركي؛ إذ إن جدها الأعلى كان من موظفي الحكومة العثمانية الكبار، وجاء إلى مصر في أوائل سني الفتح العثماني.

فمحمد فريد إذن كان من أصل يؤهله للتقلب في النعيم والتمتع بطيبات الحياة، لولا أن نفسه الوعرة وأخلاقه الرفيعة التي شهد له بها معاصروه أبت له إلا أن يسير في طريق صعبة كانت لا تعد صاحبها إلا بسجن أو نفي أو ضيق معيشة، وحقٌّ ما وصفه به تلميذه وكاتب سيرته عبد الرحمن الرافعي: (محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية).

كان محمد فريد طالباً جيداً وتخرج في مدرسة الحقوق (وكانت تسمى "مدرسة الإدارة") عام ١٨٨٧م. وبعد تخرجه تقلب في المناصب الرسمية حتى وصل إلى مرتبة وكيل نيابة عام ١٨٩٥م. وكان ميّالاً إلى الكتابة فكان ينشر المقالات موقعاً بالأحرف الأولى من اسمه؛ لأن أباه كان ينهاه عن الكتابة في الصحف والاشتغال في السياسة، ومن الواضح أنه كان منذ

البداية يكره الاحتلال ويحتقر أعوانه من المصريين، وكان من أوائل ما كتبه تأريخٌ لمحمد علي بعنوان (البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية) وأصدره في كتاب عام ١٨٩١م، ثم أصدر كتاباً ثانياً في عام ١٨٩٤م بعنوان (تاريخ الدولة العليَّة العثمانية)، وله لاحقاً مجموعة من المقالات عن تاريخ الدولة الرومانية، كان قد نشرها في مجلة (الموسوعات) في عامي ١٩٠٠ و١٩٠١م وصدرت في كتاب مستقل بعنوان (تاريخ الرومان) عام ١٩٠٢م، وله كتابات عديدة أخرى غير الكتابة السياسية التي رافقت نشاطه العام، وهي كتابة لم يتوقف عنها حتى نهاية حياته.

والملاحظ في هذه الكتابات ذات الطابع العلمي العام أنها تعكس ثقافة تاريخية واسعة، وقد ظهر هذا الاتجاه الثقافي في مشاركته بمجلة (الموسوعات) التي أصدرها مع أحمد حافظ عوض ومحمود أبي النصر عام ١٨٩٨م (وظلت تصدر حتى توقفت في العدد التاسع عشر عام ١٩٠١م)، وتضمنت مواضيع قيمة من شأنها أن تعطي القارئ فكرة واسعة عن أحوال العالم. وفي كتاب الرافعي عن محمد فريد بعض عناوين المقالات التي كتبها في المجلة، وهي تدل القارئ على ما ذكرناه من نظرة واسعة لأحوال العالم والسياسة العالمية. مثلاً "إنجلترة وفرنسة في إفريقية"، "كيف ضاع استقلال جزر الهاواي"، "الروسية في آسية"، "مطامع أوروبة في الصين"، "مسألة قناة نيكاراجوا"[1].

ولو شئت أن أستعير مصطلحاً من مصطلحات ياسين الحافظ (دون أن أقر إساءة استعماله له!) هو مصطلح (الوعي الكوني) فسوف أقول إن

---

(١) عبد الرحمن الرافعي "محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية" (تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩) - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٤٨ م - ص ٢٦.

محمد فريد كان يمتلك (وعياً كونياً)؛ أي معرفةً بما يجري في العالم وأحواله، وما وصلت إليه علاقاته السياسية، علاوة على ما وصل إليه الغرب من علم نظري وتطبيقي، ومع الأسف سنشهد لاحقاً مع نشوء الأيديولوجية الحزبية الإسلامية تدهوراً متزايداً في هذا (الوعي الكوني)، نرى الآن بعض نتائجه الكارثية من عمى أو قصر نظر قاد بعض المتحزبين المتدينين إلى سياسات تنم عن جهل كامل بالعالم، وما فيه من تلاوين مختلفة وتناقضات وقوى متناحرة.

وفي عام ١٨٩٦م استقال محمد فريد من المنصب الحكومي بعد أن سخطت عليه الحكومة لتعاطفه مع جريدة "المؤيد" في قضية بينها وبين الاحتلال، وقامت بنقله إلى بني سويف.

وقد حاز بسبب ذلك على تقدير الوطنيين واحترامهم، واشتغل بعد تركه للوظيفة في المحاماة.

٢- محمد فريد في تيار مصطفى كامل الوطني:

تعرف محمد فريد إلى مصطفى كامل عام ١٨٩٣م حين أنشأ الأخير (مجلة المدرسة)، ثم أصبحا صديقين حميمين حين تقابلا في باريس عام ١٨٩٥م، وقد أنشأا مع الدكتور محمود لبيب محرم جريدة أسبوعية باللغتين الفرنسية والألمانية.

إن كثيراً من أعمال مصطفى كامل التي ذكرناها حين استعرضنا بصورة موجزة حياته كان محمد فريد مشاركاً فيها، فنحن نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المحطات الخاصة في حياته التي سبقت تعرفه على مصطفى كامل والتي تلت وفاة الأخير.

أهم هذه المحطات كان انتخابه رئيساً للحزب الوطني في شباط (فبراير) عام ١٩٠٨م.

كان انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب الوطني أمراً دل على شعبيته في صفوف هذا الحزب، ولكن هذا الانتخاب تم مع وجود منافسين له كانوا غير راضين عن انتخابه واضطروا للإذعان لرأي الأكثرية، وعلى رأس هؤلاء شقيق مصطفى كامل: علي كامل وهذا الشقيق (على ما تذكر بعض الدراسات عن تلك الفترة) كان وثيق الصلة بالخديوي عباس حلمي الثاني، ولا ننسى أن استلام محمد فريد لرئاسة الحزب ترافق مع اتباع ذلك الخديوي "سياسة الوفاق" مع الاحتلال، وكانت علاقته سيئة مع مصطفى كامل، واستمرت كذلك مع محمد فريد الذي تميزت شخصيته بالاستقلالية المطلقة وصعوبة تطويعه[1].

كان الحزب الوطني مع ذلك في ذروة قوته، وكان نفوذه متسعاً شاملاً لعنصري الشعب المصري: المسلمين والأقباط (كان السياسي القبطي الكبير ويصا واصف، الذي سيلعب لاحقاً دوراً مهماً في ثورة ١٩١٩م وفي حزب الوفد، من أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطني).

بعد استلام محمد فريد زعامة الحزب الوطني عمل على الضغط على الخديوي ليوافق على عمل دستور للبلد؛ فأرسل له عريضة تطلب منه إنشاء مجلس نيابي ونظام دستوري، وقد قام الحزب الوطني بتوزيع عشرات الآلاف من نسخ العريضة في مصر لتوقيعها، وقدم الحزب للخديوي الدفعة الأولى من التوقيعات، وكانت تتألف من خمسة وأربعين ألف توقيع، ثم قدم له دفعة ثانية تتألف من ستة عشر ألف توقيع، وتظاهر الخديوي بالرضا عن هذه الحركة الدستورية، ولا ننسى هنا أن الدستوريين المصريين كانوا قد تشجعوا من إعلان الدستور في الدولة العثمانية ١٩٠٨م، ولكن الخديوي كان في الحقيقة ممتعضاً من هذه الحركة، وكذلك الإنجليز الذين أعلن معتمدهم في مصر السير إلدون

---

(١) المصدرنفسه، ص ٥٤.

جورجست أن المصريين غير مؤهلين بعد للحصول على نظام نيابي ودستور. وقد احتج محمد فريد على هذا الإعلان وطلب من المصريين في جريدة "اللواء" ألّا يدعوا اليأس يتسرب إلى قلوبهم بسبب تصريحات المعتمد الإنجليزي. ومع توطد العلاقات بين الخديوي والإنجليز، كانت العلاقات بينه وبين محمد فريد تسوء.

ولعل المعاصرين يفيدهم أن يعرفوا (ليقارنوا مع الحاضر ومع بعض العرب المعاصرين!) أن محمد فريد كان يوضح على الدوام أن الأمة تطالب الخديوي حاكمها الشرعي بالدستور، وهي لن تقبل بحال أن تطلب الدستور من الاحتلال: "إننا لا نطلب المجلس النيابي من إنجلترة، بل نطلبه من حاكم البلاد الشرعي"، "إذا كان لا يمكن منحنا المجلس النيابي إلا بعد استشارة إنجلترة وكان قبولها شرطاً واجباً وضربة لازب، فنحن نعلن جهاراً بأننا نفضل عدم الحصول على الدستور مؤقتاً على أن نأخذه بهذه الصفة التي يكون من ورائها القضاء المبرم على استقلال البلاد"[1].

ولم يتوقف محمد فريد عمّا هو معهود من زيارات مستمرة لأوروبة، كان يقوم فيها بتعريف الرأي العام الأوروبي بالمسألة المصرية، وبالاتصال بالطلبة المصريين المقيمين هناك الذين كان لهم دور كبير في النشاطات السياسية في ذلك العهد.

وفي منتصف عام ١٩٠٨م دخل إلى الحزب الوطني كاتب ممتاز كان له أثر مهم في الحياة الثقافية والسياسية المصرية في الثلث الأول من القرن العشرين؛ هو الشيخ عبد العزيز جاويش، وذلك مع استلامه رئاسة تحرير (اللواء) وقد استمر يرأس تحرير جريدة الحزب الوطني حتى عام

(١) انظر في هذه النقطة: بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ٤٦ - ٥١.

١٩١٢م. وقد تعرض جاويش أكثر من مرة للمحاكمة بسبب ما كان ينشر من مواد في الجريدة، وأول حكم صدر عليه كان في أغسطس ١٩٠٨م، حين قاضته الحكومة لنشره أخباراً في غير صالحها عن قلاقل جرت في السودان، ثم حوكم مرة ثانية في يونيو عام ١٩٠٩م لمقالة عن ذكرى دنشواي وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر.

وقررت الحكومة المصرية أن تتبع أسلوب الشدة مع المعارضة والصحافة بعد أن كانت متسامحة معهما نسبياً طيلة فترة ما قبل "سياسة الوفاق"؛ فأعادت في مارس عام ١٩٠٩م قانون المطبوعات القديم الذي صدر عام ١٨٨١م أيام ثورة عرابي بعد أن كان قد بطل العمل به. وقد احتج الحزب الوطني والرأي العام على هذا القرار، وتظاهر الطلاب وبعض التجار والعمال ضد تقييد حرية الصحافة، فقُدِّمَ بعضهم إلى المحاكمة وحُكِم عليهم بالحبس، ثم أصدرت الحكومة في يوليه ١٩٠٩ م قانون النفي الإداري وفيه تقرر أن من حق السلطة الإدارية نفي الأشخاص الذين ترى أنهم خطر على الأمن العام.

على أن الاحتلال قرر أن يقدم بعض التنازلات الشكلية لإسكات صوت المعارضة، فجعل جلسات "مجلس شورى القوانين" و"الجمعية العمومية" علنية، وعدل قانون "مجالس المديريات" بحيث زاد صلاحياتها، وجعل من حق "مجلس شورى القوانين" سؤال النُّظّار (أي الوزراء)، ولكن الوزير من حقه عدم الرد "إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك"!.

وفي عامي ١٩٠٩ و١٩١٠م كثَّف محمد فريد من نشاطاته الخارجية؛ فزار الآستانة لأول مرة في حياته في أبريل ١٩٠٩م وأجرى اتصالات مع سياسيي تركية، محاولاً إقناعهم بعدم إعطاء الاحتلال الإنجليزي أي شرعية، وكان محمد فريد دوماً، على ما يبدو لمن يقرأ وثائق تلك

المرحلة، يريد وضعاً لمصر يشابه وضعها أيام محمد علي؛ أي وضع استقلال ذاتي مع ارتباط شكلي بالدولة العثمانية[1].

وحضر محمد فريد "مؤتمر الشبيبة المصرية" بجنيف في سبتمبر ١٩٠٩م، وألقى فيه خطبة باللغة الفرنسية، ثم زار باريس ولندن متابعاً دعايته السياسة المعتادة.

وفي أوائل سنة ١٩١٠م تقدم المستشار المالي البريطاني بول هارفي بمشروع لمد امتياز شركة قناة السويس أربعين عاماً، مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة للحكومة وجانب من الأرباح، فشن محمد فريد حملة شعواء على المشروع، مما اضطر الوزارة تحت ضغط الرأي العام إلى عرض المشروع على (الجمعية العمومية) التي رفضته، مع المرافعات التي قام بها سعد زغلول باشا وزير الحقانية آنذاك لصالحه!

ومن الأحداث الهامة التي عكست تصاعد التوتر بين الحكومة والشعب المصري في هذه الفترة، قيام أحد الطلبة وهو إبراهيم الورداني وكان له علاقة بالحزب الوطني بقتل بطرس غالي رئيس مجلس الوزراء، وقد قال في المحاكمة إنه فعل ذلك لتوقيع غالي اتفاقية السودان ١٨٩٩م، ولرئاسته المحكمة المخصوصة في دنشواي، ولإعادته قانون المطبوعات، وتأييده لمشروع مد امتياز القناة، وقد كان من الواضح أن هذه الجريمة سياسية لا علاقة لها بأي نزعة طائفية، ولكن الإنجليز استثمروها ليجعلوا الأقباط يتنكرون للحركة الوطنية. وقد أثَّرت هذه الدعاية بعض التأثير ولم تزل آثارها حتى قيام ثورة ١٩١٩م.

---

(١) انظر: الرافعي "محمد فريد.." - ص ١١٠ وبيومي "الحزب الوطني.." - ص ١٩٦.

كان محمد فريد كثير النشاط في أوروبة في عام ١٩١٠م وكانت الحكومة تعد له فخاً؛ ففي حزيران (يونيه) ١٩١٠م صدر قانون جديد لقمع الصحافة يحيل تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات، بعد أن كانت من اختصاص محاكم الجنح، وفي أغسطس ١٩١٠م أصدر المحرر في (اللواء) علي الغاياتي ديواناً شعرياً أسماه (وطنيتي) كتب مقدمته محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش، فما كان من الوزارة إلا أن انتهزت الفرصة، وأحالت الثلاثة إلى محكمة الجنايات؛ فحكمت على الغاياتي غيابياً بالحبس سنة مع الشغل، وعلى جاويش بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ، وأما فريد فحوكم بعد عودته من أوروبة.

وكان فريد قد دعا إلى مؤتمر في باريس، وكان من المدعوين شخصيات أوروبية كثيرة، ولكن في آخر لحظة قررت الوزارة الفرنسية منع عقد المؤتمر في باريس، فنقله محمد فريد إلى بروكسل. وانعقد هناك بنجاح وصدرت الأبحاث التي ألقيت فيه في كتاب. ثم عاد فريد إلى مصر في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م وحوكم وحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع النفاذ، ودخل محمد فريد السجن رافضاً الوساطات مع الحكومة التي عرضت عليه العفو إن طلبه من الخديوي، ولكنه لم يقبل.

وبعد خروجه من السجن تزايدت الصدامات مع الحكومة، وعطلت جريدة (العلم) التي خلفت جريدة (اللواء) في النطق باسم الحزب، وكان مما عمله الحزب الوطني تحت قيادة فريد في تلك السنة مناصرته لأهل ليبية ضد الغزو الإيطالي، وانعقد المؤتمر الوطني للحزب في آذار (مارس) ١٩١٢م وألقى فيه فريد خطبة هاجم فيها سياسة الحكومة وسياسة الاحتلال، فاستدعي للتحقيق في دار النيابة، ثم أُقيمت دعوى عمومية عليه وعلى مدير جريدة "العلم" ومدير جريدة (اللواء) (كانت هذه الجريدة في هذا الوقت لا تنطق بلسان الحزب، بعد أن قامت مشاكل قانونية بين

ورثة مصطفى كامل وبين فريد فأسس الأخير جريدة (العلم) بتهمة التحريض على كراهية الحكومة وبغضها وازدرائها في خطبته الأخيرة، وحوكم معه الصحفيان المذكوران من (العلم) و(اللواء) لنشرهما الخطبة، وقد حكمت المحكمة على فريد بالحبس سنة مع الشغل غيابياً، وبالحبس ثلاثة أشهر على الاثنين الآخرين.

وقبل صدور الحكم بقليل هاجر محمد فريد إلى المنفى في ٢٦ آذار (مارس) سنة ١٩١٢م مختاراً، بعد أن قدر رفاقه أن الحكومة قررت أن تدخله في سلسلة من القضايا حتى تبقيه في السجن.

اتجه محمد فريد إلى تركية فوصل إلى الآستانة في ٣١ آذار (مارس) ١٩١٢م. وعند وصوله استقبله الشيخ عبد العزيز جاويش الذي كان هناك يصدر جريدة (الهلال العثماني)، وكان معه حشد من الطلاب المصريين، ولكن الحكومة التركية آنذاك لم تكن هي حكومة السلطنة القوية المستقلة التي يعتمد عليها، بل كانت حكومة تتلاعب بها عناصر موالية للإنجليز، وأحس فريد بذلك فغادر هو وعائلته تركية سريعاً، أما الشيخ جاويش الذي لم يقبل أن يصدق أن الحكومة التركية يمكن أن تسلمه، فقد ذهب ضحية حسن ظنه، إذ سلم بالفعل إلى الحكومة المصرية في إحدى المكائد التي دبرت للحزب الوطني.

وعاد محمد فريد إلى التنقل بين الأقطار الأوروبية، أما الأحوال في مصر فكانت تتصاعد في اتجاه إخماد كل صوت للحزب الوطني الذي كان قد تلقى مع خروج زعيمه من البلاد ضربة قاصمة، قلصت نفوذه إلى أبعد الحدود، فقد حُكم على بعض نشطاء الوطنيين من الطلاب ومحررين في جريدة (اللواء) في قضية ملفقة بعد هذا مباشرة بأحكام سجن قاسية للغاية (بلغت أحياناً خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة)، ثم عُطلت جريدة "اللواء" نهائياً وتلتها (العلم)، وقد ظهرت

بعد (العلم) جريدة (الشعب) وعدت لسان حال الحزب الوطني. فوقفت لها الحكومة بالمرصاد أيضاً، وهددتها بالتعطيل إن هي نشرت مقالات الزعيم المنفي.

كان محمد فريد في الخارج يحاول تنظيم الطلاب حتى يصبحوا حين عودتهم إلى مصر شعلاً للحزب الوطني متوهجة يصعب إطفاؤها، وكانت الحكومة على العكس من ذلك تجتهد في مراقبة الطلبة، وقد أنشأت لهذا الغرض جهازاً خاصاً.

في تلك الفترة بدأت علائم انتهاء (سياسة الوفاق) بين الخديوي والإنجليز، وذلك مع تعيين معتمد إنجليزي جديد هو كتشنر الذي اتخذ سياسة معادية للخديوي على عكس سابقه، وبدأ الخديوي يوسط أناساً للصلح مع فريد الذي كان في غاية التشكك به، بل الواضح من مذكراته أنه كان يبغضه بغضاً شديداً.

في عام ١٩١٣م قرر اللورد كتشنر إنشاء مجلس جديد يحل محل كلا المجلسين (مجلس شورى القوانين) و(الجمعية العمومية)، وأُجريت انتخابات الجمعية الجديدة التي سميت (الجمعية التشريعية)، ورغم معارضة الحزب لهذا الإجراء الجديد الذي هو أيضاً تحايل على مطلب الدستور والمجلس النيابي، فإن الحزب هذه المرة أثبت أن عنده نظرة واقعية لإمكانيات الواقع فقرر دعم بعض المرشحين الذين أثبتوا استقلالية في الرأي، ومن بين هؤلاء الشخصية التي ستحتل الواجهة في الأحداث قريباً ألا وهي شخصية سعد زغلول، رغم أنه سابقاً ما كان محسوباً على الوطنيين بحال، والسبب على ما يظهر كان واقعة قريبة تمثلت في صدام سعد مع الخديوي عام ١٩١٢م مما جعل الأخير يجبره على الاستقالة من منصبه الوزاري (وزير الحقانية)، ومن أسباب موقف الحزب بعدم مقاطعة الانتخابات، كان التجربة الملموسة مع المجلسين السابقين اللذين أريد

لهما أن يكونا مجرد (ديكور) وتابع للحكومة، فانقلبا عليها في مسائل مهمة، كمسألة تمديد امتياز قناة السويس. ومع ذلك لم تسجل الجمعية الجديدة لنفسها أي إنجاز يذكر حتى قيام الحرب عام ١٩١٤م حين علقت جلساتها إلى أجل غير مسمى.

وحين قامت الحرب توجه فريد من جديد إلى الآستانة، وهناك التقى بالخديوي وتصالح معه وطلب منه أن يعلن الدستور مقدراً أن الإنجليز لن يعترضوا عليه بسبب الحرب، وفي ذلك الوقت كان أحد أعضاء أسرة محمد علي يشغل منصب "الصدر الأعظم" في الآستانة، وكان يطمح إلى تولي منصب الخديوي في مصر، وكان الشيخ جاويش على ما يظهر من أنصاره وقد آلت جملة هذه التناقضات في الآستانة إلى هجرة الخديوي وفريد كليهما مجدداً إلى أوروبة الغربية، أما بريطانية فاتخذت خطوة حاسمة في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) هي إعلان الحماية على مصر وقطع علاقتها الشكلية مع تركية، وخلع الخديوي عباس الثاني وتولية السلطان حسين كامل مكانه.

ومن الواضح أن محمد فريد في أيامه الأخيرة كان قد نفض يديه من الأتراك، بعد أن فهم تغير وضع الدولة العثمانية كلياً مع صعود العناصر التي لا علاقة لها بالتوجه الإسلامي إلى سدة السلطة، وتخلي جمعية (الاتحاد والترقي) التي تحكم فعلياً عن فكرة الجامعة الإسلامية وتبنيها للفكرة الطورانية على حين كان هو يقول دوماً: "إن الدولة بغير الخلافة لا قيمة لها"، وكما كان فريد خصماً للفكرة الطورانية، فقد كان خصماً للقومية العربية كما تجلت في ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦م[١].

---

(١) محمد فريد (أوراق محمد فريد) - المجلد ١ - الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٨م - مقدمة الدكتور عاصم الدسوقي - ص ٤٣.

وتبقى الحقيقة المريرة أن محمد فريد مع كل إخلاصه ومواهبه كان قد فقد كل إمكانية للتأثير على الأحداث في مصر.

وكان الحزب الوطني في مصر قد فقد تأثيره أيضاً بعد الضربات الموجعة التي قامت بها الحكومة ضده من اعتقالٍ لأهم أعضائه وإغلاق لصحفه، وحين قامت ثورة ١٩١٩م فوجئ فريد بها، وإن كان قد سُرَّ بها طبعاً[١].

وازداد عليه المرض حتى توفي في المنفى بعد ذلك بمدة قصيرة في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩م في برلين.

ثالثاً: محطات نهضوية في تجربة الحزب الوطني المصري:

كان مصطفى كامل قد اكتشف في وقت مبكر أن عقد الأمل على أوروبة في تحقيق أهداف الأمة خطأ فادح، وبعد (حادث فاشودة) حين سأله صحفي فرنسي: "هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادث فاشودة؟" أجابه: "كلا إننا لم نيأس (...) ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا، فإننا يائسون كل اليأس من أي تعضيد يأتينا من أوروبة، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة"[٢].

ونرى هنا أن مؤسس الحزب الوطني كان لا يرى أن طريق الاستقلال الوحيد هو العمل الدبلوماسي في الخارج، بل طريقه الأهم هو العمل في الداخل لإحداث نهضة اجتماعية شاملة الأبعاد، وإن كان في هذا

---

(١) الرافعي - (محمد فريد..) - ص ٣٦٣.

(٢) الرافعي - "مصطفى.." - ص ١٥٤.

التصريح قد اقتصر على تعليم الشباب مبادئ الوطنية، فإن نشاطات الحزب النهضوية تجاوزت حدود التحريض السياسي، وفي هذه المقالة أريد أن أعرض بإيجاز لنشاطين مهمين قام بهما الحزب الوطني في السنوات القليلة التي كان عنده مجال للحركة فيها، هما نشاطه في (نادي المدارس العليا) ونشاطه في ميدان (النقابات والتعاونيات).

١- نادي المدارس العليا وتعليم الأميين:

أنشئ النادي عام ١٩٠٥م وقد كان للحزب الوطني الدور الأساسي في إنشائه، وقد جمع له التبرعات وحث الأغنياء على دعمه، وقد زاد عدد أعضائه بالتدريج حتى وصل في عام ١٩١١م إلى ٨٥٨ عضواً، واستمر النادي قائماً حتى قيام حرب ١٩١٤م حين أمرت السلطة العسكرية البريطانية بإقفاله.

وقد كان النادي بمنزلة (جامعة حرة) تلقى فيه المحاضرات، وتنظم فيه نشاطات الطلبة، وكان له تأثير كبير في طلبة الحقوق بالذات، ومن الأمور ذات الدلالة أن الحكومة حاولت حمل النادي على طرد محمد فريد من عضويته بعد نفيه فرفض ذلك رفضاً باتاً.

وكان للحزب الوطني أثر نهضوي هام في العمل الأهلي لمكافحة الأمية، وأنشئت مدارس مختلفة للفئات الشعبية في شتى المحافظات سميت (مدارس الشعب)، لم يقتصر التدريس فيها على تعليم الأوساط العمالية القراءة والكتابة، بل تعداهما إلى تعليم الدين والصحة والاحتياطات العامة وتربية الأطفال والمعاملات والشؤون الاجتماعية والحساب وتاريخ مصر والتاريخ الإسلامي، وجغرافية مصر والأخلاق والآداب[1].

---

(١) بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ٢٣٣.

٢- النقابات والحركة التعاونية:

إذا كان مصطفى كامل لم يعر طبقة العمال اهتماماً يذكر، وكان سعد زغلول معروفاً بعدائه لنقابات العمال، فإن محمد فريد تميز باهتمامه بهذه الشريحة، ومع انتقال زعامة الحزب الوطني إليه فقد خصها بجملة من المقالات ينتقد فيها الحكومة لإغفالها إصدار التشريعات الكفيلة بضمان حقوق العمال، وقد طالب بحماية العمال، وتنظيم عمل الأطفال، وتحديد ساعات العمل، وأيّدت صحيفة (اللواء) إضراب عمال الترامواي عام ١٩٠٨م.

وفي عام ١٩٠٩م أسس عضوان في الحزب الوطني هما علي ثروت ود. محجوب ثابت نقابة عمال الصنائع اليدوية، ثم ازداد عدد النقابات حتى أصبح عددها إحدى عشرة نقابة تضم ستة آلاف عامل في سنة ١٩١١م[١].

وقد تأثر فريد بتجربة حزب العمال البريطاني، وقال في خطاب ألقاه في الجمعية العمومية للحزب: "نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطئ رأسها أمامها ولقد أصبح حزب العمال في إنجلترة من الأحزاب المسموعة الكلمة بهمة من كرسوا حياتهم لخدمة هذه الطبقة من الأهالي مثل كير هاردي وأخواته"[٢].

ونلاحظ هنا خروج فريد على ما ألفناه من تجاهل مصطفى كامل للقوى الاجتماعية السياسية الجديدة في أوروبة (وكان حزب العمال لم يصل بعد إلى السلطة في بريطانية).

وتوجه فريد أيضاً إلى أكثرية مصر من الفلاحين، وقد كان مصطفى كامل يأسف لحالة الفلاح المصري المزرية، وقد رأيناه في استشهاد سابق

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

يتكل على "المتعلمين" لتحسين أحوال هذه الطبقة، ولكن محمد فريد هو الزعيم الذي شهد عهده اهتمام الحزب الوطني بالتأثير في الفلاحين ودفعهم إلى النهوض لتغيير أحوالهم بأنفسهم، عبر فكرة "النقابات الزراعية" وفكرة "التعاون"، وكان الشخص الذي قام بالدور الأكبر في ذلك هو عمر لطفي الذي كثيراً ما يُنسى دوره الاجتماعي النهضوي المهم في مصر مطلع القرن العشرين.

ظهرت فكرة التعاون في مصر سنة ١٩٠٨م على إثر الأزمة المالية التي انتابت البلاد سنة ١٩٠٧م، وبدأت الدعوة إليه في نادي المدارس العليا على يد عمر لطفي - رحمه الله - رئيس النادي[١].

إن عمر لطفي كان من العقليات التي تفكر في حل للأزمات الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية السيئة يستند إلى عمل محلي دؤوب للمعنيين بالمسألة، وليس إلى الاستدانة من الخارج مثلاً، أو إلى الاكتفاء بشتم الحكومة على تقصيرها في إعطاء المواطنين حقوقهم!

وعلى مبدأ "الحكمة ضالة المؤمن!" فقد فكر لطفي في اقتباس نظام التعاون الأوروبي، وسافر إلى إيطالية حيث اجتمع بالسنيور لوزاتي الذي كان أكثر الإيطاليين اهتماماً بالتعاون، وعاد إلى مصر فألقى في نادي المدارس العليا محاضرة عن التعاون ومزاياه وقواعده التي يسير عليها في ألمانية وإيطالية، ونصح بالبدء بالتعاون في التسليف لأنه كفيل بإنقاذ البلاد من آفة الربا الماحقة. وبالفعل أسس أول شركة تعاونية؛ هي شركة التعاون المالي التجارية بالقاهرة، ثم أسس جمعية تعاون زراعية بطنطا، ثم تزايدت هذه الجمعيات. وقد توفي عمر لطفي عام ١٩١١م - رحمه الله - بعد أن كان قد رسخ

---

(١) الرافعي - "محمد فريد.." - ص ٢٩٦.

مبدأ الاستقلال الاقتصادي أساساً للاستقلال السياسي وقد قال: "عندي أن أساس الاستقلال والحرية في كل أمة هو الاستقلال الاقتصادي"[١].

وفي اعتقادي أن هذه الأفكار التي قدمت في مطلع القرن العشرين، والتي تهدف في جملة أهدافها إلى مكافحة الربا، هي أقرب إلى مقاصد الإسلام الشاملة من الأفكار الضيقة التي شهدناها في العقود الأخيرة حول "البنوك الإسلامية"، لأن الأولى تهتم بشيئين جوهريين تهملهما الأخيرة: الشيء الأول هو مكافحة الفقر والتفاوت الاجتماعي، والثاني هو التطوير المستقل للاقتصاد والاعتماد على البعد الإنتاجي والطاقات المحلية، والأمران مهملان في فكرة البنوك الإسلامية، التي تركز بصورة ضيقة للغاية على فكرة واحدة هي عدم الربح عن طريق الفوائد المصرفية، ثم لا يهم بعد ذلك طبيعة النشاط الاقتصادي للبنك: أهو منتج أم طفيلي؟ ولا الدور الاجتماعي لهذا الرأسمال في توطيد العلاقات الاجتماعية ومكافحة الفقر والعطالة عن العمل وإلى آخره...مما قد يدلنا على أن المسلمين في كثير من مناحي تفكيرهم غدوا أضيق أفقاً من أسلافهم النهضويين!

هذا "وقد كان ساعد طلعت حرب الأيمن في الدراسات التي سبقت إنشاء بنك مصر، والتي صاحبت خطوات البنك بعد الإنشاء والإعداد لشركاته، الدكتور سيد كامل عضو الحزب الوطني الذي بقي مغموراً مغموط الحق في وقت كان فيه صرح بنك مصر يعلو ويرتفع"[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٢) بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ٢٦٠.

خاتمة: الحزب الوطني بعد محمد فريد

تلاشى تأثير الحزب الوطني الفعال في المجتمع المصري بعد وفاة فريد، وتسلم حزب الوفد القيادة السياسية للأكثرية في مصر، وقد يكون السؤال مشروعاً عما إذا كانت إنكلترة لم تدفع قصداً بتلك (القيادات المعتدلة) إلى الواجهة في ثورة ١٩١٩ التي كانت إلى حد كبير فعلاً شعبياً لم يخطط له أحد، ولكن (الوفد) تمكن من أن يركب موجته مسيراً الحركة باتجاه خاص به يفتقد إلى شمول الرؤى التي قدمتها تجربة الحزب الوطني، ولعل من الجدير بالذكر هنا أن أغلب قيادات "الوفد" جاءت من حزب (الأمة) الذي تميز بالولاء للإنجليز والعداء لفكرة الجامعة الإسلامية والعلاقة مع الدولة العثمانية. على أن الوفد حاول أن يضم بعض الشخصيات من أعضاء الحزب الوطني وأشهر هؤلاء كان مصطفى النحاس زعيم الحزب بعد سعد زغلول.

أما الحزب الوطني فتحول بعد وفاة محمد فريد إلى شيع متصارعة[١].

وفي عام ١٩٢٣ انتخبت جمعية عمومية محدودة العدد حافظ رمضان رئيساً للحزب، وهو محام ينتمي لأسرة ثرية، وقد اتهم سابقاً بالتقرب من الخديوي، وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يعارض ترشيحه للرئاسة، وقد ترك الشيخ جاويش في نهاية حياته الحزب وانصرف إلى عمله في وزارة المعارف.

وتميزت سياسة الحزب الوطني في عهد حافظ رمضان بالتشدد الشكلي النظري عبر الشعار الشهير "لا مفاوضات إلا بعد الجلاء"، وهو شعار يرفض كل مفاوضة مع الإنجليز قبل جلائهم عن مصر، وظلت هذه

(١) انظر حول صراعات الفترة التي سبقت انتخاب رمضان لرئاسة الحزب: بيومي - "الحزب الوطني.." - ص ٣٠٠ - ٣٠٤.

السياسة نظرية، بل إن حافظ رمضان لم يتردد بسبب عدائه للوفد في مساندة حكومات غير شعبية مثل حكومة إسماعيل صدقي عام ١٩٣٠، ثم شارك رمضان في وزارة محمد محمود عام ١٩٣٧، ووزارة حسن صبري عام ١٩٤٠ دون استشارة الجمعية العمومية للحزب[١].

مع ذلك فإن الراديكالية شبه اللفظية للحزب ظلت تجذب الشباب، ومع دخول جيل شاب للحزب في الأربعينيات انتعش دور الحزب الوطني، وبالذات مع أولئك الشباب الذين سموا أنفسهم "شباب اللجنة العليا للحزب الوطني" بقيادة فتحي رضوان، وقد أصدروا صحيفة أسموها (اللواء الجديد): كان لها فعل في الحركة المعادية للإنجليز بعد الحرب العالمية الثانية.

ولم يخل بعض شباب الحزب الوطني من نزعة متطرفة ليست بجديدة؛ فقد كانت موجودة منذ أيام الحزب الأولى، ولم يتردد بعضهم في استعمال العنف ضد الخصوم السياسيين.

ومن الأمور ذات الدلالة التقارب الملموس بين الحزب الوطني في هذا الطور وحركة الإخوان المسلمين، وقد صرح المرشد العام حسن البنا أن عضواً من الحزب الوطني حاول أن يضمه إلى الحزب، فقال له: إن العمل في الإخوان كالعمل في الحزب الوطني[٢].

وقد تحالف الفرع الطلابي للحزب مع طلاب الإخوان في إطار الحركة الطلابية، وضد التحالف بين طلاب الوفد والطلاب اليساريين، وكان هناك مفاوضات لتوحيد التنظيمين بين البنا وفتحي رضوان، وبعد وفاة البنا اختلف الطرفان في أسلوب العمل، وإن بقي الحزب الوطني في

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

مقدمة القوى المعارضة لحل الجماعة والداعية إلى عودة الإخوان لمواصلة النضال في سبيل قضية البلاد، كما قال فتحي رضوان في كلمة ألقاها عام ١٩٥١ في ذكرى مصطفى كامل[١].

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

٤

حسن البنا
آفاق الفاعلية وحدودها

أولاً: مقدمات عامة: لماذا البحث من جديد في تجربة البنا؟

أريد في بداية هذه المقالة عن تجربة حسن البنا - رحمه الله - وهي مقالة قصد منها أن تكون حلقة في سلسلة تأريخية-تحليلية لتجارب نهضوية أُجهضت أسميها "نهضات مجهضة" - أريد أن أتطرق إلى مجموعة من القضايا المتعلقة بالموضوع أرى من المفيد التطرق إليها:

١- حين أتكلم على تجربة البنا فإنني لا يعنيني مجرد التأريخ لحياة هذه الشخصية المهمة فقط، بل يعنيني أساساً دراسة منهج الرجل الذي اتبعه في تغيير الواقع: كيف نشأ وتطور، وكيف كانت العلاقة بين حقيقة ما فعله وتصوراته هو عن هذا الفعل، ثم أريد محاولة وضع ما يسمونه أحياناً (السيناريو التخيلي) لما كان يمكن للحركة أن تأخذه من مسارات أخرى، وهل كان الإخفاق محتوماً، وهذا يتضمن التطرق إلى أسباب إجهاض تجربة كان فيها جوانب إيجابية هي من مسالك النهضة الشاملة في رأيي، هذه الأسباب التي يحصرها بعضهم في العوامل الخارجية فقط، ويرى البعض الآخر من الكتّاب والفقير إلى الله منهم أنها تضمنت

أيضاً عوامل داخلية تخص الحركة ذاتها؛ في رؤيتها الفكرية وفي استراتيجيتها وتكتيكها. وفي هذا المقال سأعرض رأيي في أن إخفاق تجربة الإخوان يعود لكونهم ارتكبوا خطأين جوهريين كافيين لوأد كل حركة نهضوية في بلادنا: الخطأ الأول هو الطابع الحزبي للحركة، والخطأ الثاني هو استعمالها للعنف.

٢- ليس بحثنا لهذا الموضوع لأسباب أكاديمية صرفة؛ فالباحث عندنا غارق من قمة رأسه حتى أخمص قدميه في هم تلمس الطرق الممكنة للخروج من أزمة المجتمع والحضارة الإسلاميين، والبحث يتضمن على الدوام هماً مؤرقاً لم يزل هو هو منذ عهد الجبرتي والطهطاوي، ألا وهو إشكالية تجاوز الوضع الدوني لهذه الحضارة وهذا المجتمع بين حضارات ومجتمعات العالم.

٣- إن من أول الذين انتبهوا إلى الجديد النوعي الذي جاء به حسن البنا مقارنة مع المدرسة الإصلاحية التي سبقته مباشرة (الأفغاني-عبده-رضا)، كان مالك بن نبي، وهو يذكر الجوانب التالية لهذا الجديد في كتابه (وجهة العالم الإسلامي):

أ- إن البنا أنشأ حركة قامت على التأليف بين أعضاء المجتمع تأليفاً يحمل معنى المشاركة في الأفكار والأموال.

ب- إن زعيم هذه الحركة لم يكن فيلسوفاً أو عالم كلام، ولكنه اكتفى بأن بعث في الناس إسلاماً خلع عنه سدول التاريخ، ولم يركن إلى نظرية غير القرآن نفسه؛ ولكنه القرآن الذي يحرك الحياة خلافاً لفهم الحركة الإصلاحية التقليدية للقرآن التي كانت تستخدمه وسيلةً منطقية لغرض تعليمي، فهي تأخذ منه مقاييس من كل نوع وبراهين تفحم الخصوم، وأدلة تدين البدع، ثم هو أخيراً نموذج جمالي فيه مقاييس أدبية لبعض العلوم كعلوم البلاغة.

وباختصار غيّر البنا الوضع الذي كانت عليه الفكرة القرآنية في العصور الأخيرة: "لم تكن الفكرة القرآنية لتمس مباشرة ضمير إنسان ما بعد الموحدين أو طبيعته، لا تمس مجال حياته وجوانب فكره ومناحي سلوكه، فهي بذلك أداة (للتجديد) أكثر من أن تكون إلزاماً (بالتجدد)"[1].

سألاحظ هنا التفوق الواضح والحاسم لمالك بن نبي على المفكرين اللبراليين والمفكرين الماركسيين، وهو المفكر الذي ليست عنده أحكام مسبقة تتعلق بالبرنامج المطلوب للنهضة الاجتماعية، والذي لم يكن يعتقد في وجود شكل واحد للسلطة السياسية التي يمكن أن تحل مشكلة النهضة، ولم يكن عنده طبعاً (شأن اليساريين) مشكلة مع الدين تجعله يضع التخلص من الفاعلية الاجتماعية للدين في أول أهداف (التقدم)، وبما أن النوع الأول قد اندمج بالنوع الثاني في ساحتنا الثقافية، فسأكتفي بالإشارة للنوع الثاني، الماركسي (الصافي)، ذاكراً هنا مثال الدكتور رفعت السعيد[2].

٤- أن وجهة النظر اليسارية السائدة عند يساريي العرب أصبحت في السنوات الأخيرة مستبطنة في المنطق الذي يُبنى عليه الفكر السياسي العربي المسيطر، هذا مع الإشارة إلى أن التيار الاستئصالي في اليسار العربي لم يعد الوحيد في هذا اليسار، بل ظهرت اتجاهات أخرى تتقارب مع الإسلاميين والقوميين، بل ظهر من تَرَكَ صفوف اليسار ليصبح في

---

(١) مالك بن نبي - مشكلات الحضارة - (وجهة العالم الإسلامي) - إصدار ندوة مالك بن نبي - ترجمة عبد الصبور شاهين - دار الفكر - دمشق - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م. ص ١٤٦. وانظر أيضاً تعليق كاتب هذه السطور في: "مالك بن نبي وشروط النهضة" - الحلقة الثالثة - مجلة "الجسور" - العدد الرابع رمضان ١٤٢٤هـ / أكتوبر ٢٠٠٣م.

(٢) أستشهد في هذا المقال بكتاب د. رفعت السعيد "حسن البنا متى .. كيف .. ولماذا؟" مكتبة مدبولي - القاهرة - ١٩٧٧م.

صفوف الإسلاميين اعتباراً من مطلع الثمانينيات، ومن هؤلاء المفكر الفلسطيني منير شفيق والمصري عادل حسين[١].

وأريد تركيز الانتباه هنا على المسلمة اليسارية التالية التي أصبحنا نجدها في صحف حكومية لحكومات لم تكن قط في حياتها تستلطف اليسار، أو تحتمل وجوده مجرد احتمال: "إن الشيء المهم الذي يحدد البنية الاجتماعية هو العلاقات الاقتصادية كما تتمثل في البنية التحتية-وسائل الإنتاج، والبنية الفوقية-علاقات الإنتاج، وليس من شأن أي أفكار أن تغير في القواعد التي يستند إليها المجتمع ما لم تهتم هذه الأفكار أساساً بهذه البنية الاقتصادية".

وتطبيق هذه الفكرة صار دوماً مقترناً بالجدال مع ما يسمى (الإسلام السياسي)، إذ يأخذون عليه أنه في غاية الغموض في برامجه العملية الاقتصادية تحديداً.

والاستنتاج المباشر من هذه الحجة المأخوذة من الترسانة الفكرية اليسارية هو التالي: إن الدين ليس له أي دور في الحل الحقيقي للمشكلات المزمنة في المجتمع، بل إنه منذ أن يُسْتَعمَل في الفعل الجماعي يصبح عائقاً أمام الحل الفعلي لهذه المشكلات، هذا إن لم يمنع حلها مطلقاً، ويخلق المزيد من التخلف بدلاً من السير إلى الأمام.

الفرضية التي أنطلق منها في هذا المقال تختلف مع وجهة النظر هذه كل الاختلاف: إن مشكلة حركة البنا لم تكن في أنها كانت حركة دينية، بل مشكلتها تكمن في تحولها من حركة دينية إلى حركة حزبية لها

---

(١) أنا أميز بين (ثقافة سائدة) و(ثقافة مسيطرة)؛ فالثقافة الأولى هي الثقافة التي تستبطنها الأغلبية وتحدد سلوكها، أما الثقافة الثانية فهي الثقافة المتحكمة في أجهزة السيطرة الأيديولوجية للشرائح الحاكمة (كما تتجسد مثلاً في المناهج المدرسية وأيديولوجيا الأحزاب الحاكمة ووسائل الإعلام الكبرى).

أيديولوجية سياسية حديثة تندرج ضمن الأيديولوجيات السياسية التي ظهرت في المشرق العربي في الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي. وبهذا التحول وقع ما كان يخشاه البنا نفسه من تحول الإسلام إلى موضوع خلافي، كونه صار جزءاً من صراعات النخب السياسية على السلطة.

والحال أن النهضة التي نسميها اختصاراً (النهضة الحضارية)، وتعني تغيراً جذرياً في السلوك الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، بحيث يصبح سلوكاً يبني بصورة حتمية مجتمعاً آخر ناهضاً، يستطيع أن يتحدى في قواه المادية والروحية تحديات العالم المعاصر، لا تأتي من استلام السلطة باعتباره إجراءاً فوقياً سيقود في الظروف السياسية المعقدة للعالم إلى إجهاض التجربة من الداخل إن لم يجهضها من الخارج كما رأينا في أمثلة كثيرة تلت عهد البنا، بل تأتي بعملٍ اجتماعي تحتي سلمي مثابر ليس من طبيعة سياسية مباشرة، ولا تمكن مقاومته ويستحيل إجهاضه بغير إفناء المجتمع نفسه إفناءً مادياً، عمل يغيّر الشروط الموضوعية التي يقوم عليها البناء السياسي الفوقي ويفرض على هذا البناء التعامل معه.

ثانياً: البنا: سيرة مختصرة فكرية- عملية:

وُلد حسن البنا عام ١٩٠٦ م في قرية المحمودية التابعة لمحافظة البحيرة، وكان أبوه الشيخ محمد البنا حرفياً وعالماً في الوقت نفسه، فقد كان يعمل في تصليح الساعات، ولكنه صرف أوقات فراغه في البحث في علم الحديث، حتى صار من علمائه، وقد خرّج أحاديث مسند الإمام أحمد وطبعه في ستة عشر جزءاً.

ألحق الوالد ابنه عندما بلغ الثامنة من عمره بمدرسة يقوم على التعليم فيها شيخ كفيف، يبدو من حديث تلميذه عنه أنه كان شيخاً موهوباً ظريفاً

مجيداً للعلوم الشرعية واللغوية، بل كان قارئاً، عنده في البيت مكتبة يصحب تلميذه إليها، ويطلب إليه أن يقرأ عليه من كتبها ما يحتاج إليه من مسائل، ويناقش بعض العلماء فيها بحضور التلميذ النبيه الذي كان يتأثر بهذا الجو تأثراً عميقاً[١].

على أن الأستاذ بعد أربع سنين من دخول حسن إلى المدرسة، توقف عن ممارسة التدريس بنفسه، مما جعل حسن يطلب من والده ترك هذه المدرسة التي يبدو أنها كانت مبنية على طريقة قريبة من طريقة الكتاتيب - ليلتحق بالمدرسة الإعدادية الرسمية مع أنه لم يكن قد حفظ إلا نصف القرآن، فوافق الوالد بعد أن تعهد الابن بإكمال الحفظ في البيت، وهذا ما فعله الابن بنشاط كبير؛ إذ كان يقسم وقته بين المدرسة وتعلم صناعة الساعات، وكان يحفظ حصة القرآن بعد صلاة الصبح.

وقد بدأ العمل الاجتماعي في وقت مبكر من حياته حين اقترح أحد أساتذة مدرسته (كان أستاذ رياضيات ولم يكن كما قد يتوقع بعض القراء أستاذ دين!) على طلاب السنة الثالثة أن يؤسسوا جمعية مدرسية باسم (جمعية الأخلاق الأدبية)، وضع الأستاذ بنفسه لائحتها، واعتبر نفسه المشرف عليها، وأرشد الطلاب إلى اختيار مجلس إدارتها، وكانت لائحتها الداخلية تتضمن بنوداً من نوع أن من شتم أخاه غرم مليماً، ومن شتم الوالد غرم مليمين، ومن شتم الأم غرم قرشاً، إلى آخره، وتضاعف العقوبة لأعضاء مجلس الإدارة ومن لم ينفذها قوطع، وتنفق الغرامات في وجوه البر، ويتواصى الأعضاء فيما بينهم بالتمسك بالدين وبأداء الصلوات في وقتها. ويعلق البنا على هذه الجمعية "ولا شك أن جمعية

(١) حسن البنا- "مذكرات الدعوة والداعية للإمام الشهيد حسن البنا"- دار التوزيع والنشر الإسلامية-القاهرة-١٩٨٦م-ص١٤.

كهذه تنتج في باب تكوين الأخلاق أكثر مما ينتج عشرون درساً من الدروس النظرية"[١].

بعد هذه الجمعية التي جاء المعلم بفكرتها، قرر نفر من الطلاب منهم البنا تأليف جمعية إسلامية بعنوان "جمعية منع المحرمات"، وهي لم تكتف بالنشاط ضمن المدرسة بل تعدته إلى البلدة فصارت ترسل رسائل إلى من تراه يفعل فعلاً محرماً أو مكروهاً تنهاه عن ذلك الفعل.

وبعد أن أُلغي نظام المدارس الإعدادية كان أمام الطالب فيها أحد خيارين: إما الانتساب إلى المعهد الديني بالإسكندرية ليصبح أزهرياً، أو الانتساب إلى مدرسة المعلمين الأولية في دمنهور ليصبح بعد ثلاث سنين معلماً، واختار حسن تلك المدرسة وكان أول التوجهات الهامة التي جاءت بها مرحلة الدراسة في دمنهور دخول الطالب الفتى في الطريقة التي اسمها (الإخوان الحصافية)، وفي اعتقادي أن الاسم بالذات ذو دلالة،

---

(١) حسن البنا- "مذكرات.. "- ص١٦.
ولكي يأخذ القارئ فكرة عن سوء النية الذي تعامل به الدكتور رفعت السعيد مع سيرة البنا لا بأس من أن أذكر هنا كيف أعاد تصوير هذه الواقعة: "وهناك التقى بمدرس متدين آخر ضمه إلى جماعة بالمدرسة اسمها جماعة السلوك الاجتماعي وهي جماعة استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ وإلزامهم بالتحلي بالأخلاق الحميدة في سلوكهم اليومي والتعفف عن الشتائم أو مخالفة تعاليم الدين وكانت الغرامات المالية المرهقة بالنسبة لتلاميذ فقراء هي سلاح الإرغام في يد الجماعة" (رفعت السعيد- "حسن.." ص٣٦) ويلاحظ القارئ هنا استعمال تعابير ليست في الأصل: "ترويض"، "سلاح الإرغام"، وكيف جزم السعيد بأن التلاميذ فقراء إلى درجة أن الغرامات المالية كانت مرهقة لهم، دون أن يرى أي شيء تربوي إيجابي جدير بالتقدير والتطوير في هذه التجربة البسيطة حتى لو خطر للمرء أن ينقدها نقداً ما. وفي هذا المثال يرى القارئ كيف أن السعيد لا يريد أن يرى إلا الجوانب السلبية في حياة البنا حتى وهو تلميذ صغير.

وأعني بالذات اسم (الإخوان)، فقد التقى البنا لأول مرة بمجموعة متماسكة مجتمعة على المحبة والذكر، وإن كانت لم تُدْخل نفسها في نشاط اجتماعي خارجها، وسنرى بعد قليل أن الشيخ سيدمج تجربة جمعية منع المحرمات الأولى بالتجربة الحصافية فيما يمكن عده الخطوة المرحلية الأخيرة الموصلة إلى فكرة الإخوان المسلمين.

ولم تكن الطريقة الحصافية طريقة صوفية مبالغة في الجنوح عمّا ورد في السنة، بل كانت طريقة معتدلة لا شطحات فيها، ورواتبها وأدعيتها مأخوذة من كتب السنة ومن آيات من القرآن؛ إذ كان الشيخ منذ البداية في وسط متأثر بشدة بالدعوة السلفية الإصلاحية التي كان من دعاتها الكبار في مصر الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده، والذي كان معروفاً بهجماته على الطرق الصوفية في مرحلة تطورها الأخيرة التي شهدتها بلادنا في نهايات العصر العثماني.

ومن الواضح أن ما تشجعه تلك الطرق من سلبية اجتماعية وخمول كان لا يتناسب مع استعدادات الفتى الذي كان يجمع كما يتضح من سيرته، نزعة دينية عميقة مع نزعة عميقة هي الأخرى للتغيير في الواقع المحيط. وهذه الظاهرة التي نصادفها في المجتمعات البشرية كافة؛ ألا وهي وجود أقلية من الناس تمتاز عن محيطها بالشعور بضرورة تغيير السائد أو بعضه، مع الشعور بثقة كافية في النفس تجعلها تؤمن بقدرتها على تحقيق هذا التغيير لا أنَّ أجد من السهل تفسيرها، وهذا الاتجاه يناقض البديهي والمألوف عند الغالبية من البشر من انعدام النقد للسائد وعده من البديهيات التي لا يتصور تغييرها، وإنما على عاتق هذه الأقلية، التي كأن الله خلقها لتقود عملية التغير الاجتماعي، تقع مهمة إقناع المحيط بإمكانية التغيير وجدواه.

وهذه الأقلية ما كان لها أن تنجح في مسعاها لو لم يكن عند عدد

لا بأس به من أفراد مجتمعها الاستعداد للتأثر والحماس للجديد، وهؤلاء هم الشريحة الأولى التي تتلقى الفكرة الجديدة وتنشرها.

مع بعض المنضوين تحت راية الطريقة الحصافية أسس البنا جمعية سميت (جمعية الحصافية الخيرية)، وجعلت لها مهمتين: الأولى: نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ومقاومة المنكرات والمحرمات والبدع، والثانية: مقاومة الإرسالية الإنجيلية التبشيرية التي كانت نازلة في البلدة، ولها نشاطات في مجال التطبيب وتعليم الفتيات وإيواء الأطفال.

ولعل من المفيد أن نذكر هنا تطور علاقة شيخ الطريقة الحصافية بالإخوان المسلمين الذين ظهروا بعد ذلك، وهو الشيخ عبد الوهاب الحصافي. يقول البنا: "واستمرت صلتنا على أحسن حال بشيخنا السيد عبد الوهاب حتى أنشئت جمعيات الإخوان المسلمين وانتشرت، وكان له فيها رأي ولنا فيها رأي، وانحاز كل إلى رأيه، ولا زلنا نحفظ للسيد- جزاه الله عنا خيراً- أجمل ما يحفظ مريد محب مخلص لشيخ عالم عامل تقي"[١].

إن من المسائل الثابتة التي لا ينفك كاتب هذه السطور يناقشها هذه الأيام في مقالاته وفي المحافل الفكرية العربية المختلفة المسألة التالية: كيف يكون التدين عامل نهضة[٢]؟.

ومحاججتي الدائمة تقول: إن التدين هو عامل نهضة شرط أن يكون من النوع الذي يفعّل فضائل الإسلام النهضوية، إذ إن ثمة أنواعاً من التدين (الزائف) لم يدرك أصحابها مقاصد الشريعة الإسلامية بعمومها، فتنكروا لفضائلها، وابتدعوا أنماطاً سلوكية انحطاطية كما هو حال التدين المبتدع الصوفي في اتجاهاته المهيمنة في العصور المتأخرة.

(١) مذكرات، ص ٢٥.

(٢) يجد القارئ بعض المناقشة لهذه المسألة في مقال نشرته مجلة (المجتمع) الكويتية في العدد١٥٨٢ بعنوان "زيف الدعوة إلى بروتستنتية إسلامية".

والماركسية المستبطنة التي أشرت في المقدمة إلى تحولها إلى أيديولوجية مسيطرة عندنا تصادر على أن الدين لا يمكن، إن دخل في طور الفعل الاجتماعي، إلا أن يلعب دوراً سلبياً معرقلاً للنهضة.

وقد أشرت في مكان آخر[١] إلى أحد منظري علم الاجتماع الغربي الكبار الذي هو ماكس فيبر الذي حاجج بصورة قوية للغاية أن الدين لعب دوراً كبيراً في النهضة الاقتصادية لبعض أوروبة والركود في بعضها الآخر.

ولا شك أن الطريقة التي يفهم بها المسلمون الدين الإسلامي ويجسدونه في سلوكهم الاجتماعي تؤثر تأثيراً حاسماً في وضعهم الحضاري.

ولنعد الآن إلى السلوك الذي أعجب الفتى حسن في شيخ الطريقة الحصافية عبد الوهاب: "وقد امتاز في شخصيته وإرشاده ومسلكه بكثير من الخصال الطيبة: من العفة الكاملة عما في أيدي الناس، ومن الجد في الأمور، والتحرر من صرف الأوقات في غير العلم أو التعلم أو الذكر أو الطاعة أو التعبد سواء أكان وحده أم مع إخوانه ومريديه، ومن حسن التوجيه لهؤلاء الإخوان وصرفهم عملياً إلى الأخوة والفقه وطاعة الله"[٢].

ونرى هنا في هذه الصفات توجهاً إلى تكوين شخصية جديدة وسلوك جديد. إن الشيخ لم يبق في إطار إبقاء شخصية التلميذ شخصية نظرية تفصل العلم عن السلوك، وهو هذا الفصام الذي ميز الشخصية المسلمة منذ قرون عديدة، فصار المسلم ممن يقولون ما لا يعملون، مع نهي كتابهم العزيز عن ذلك وتحذيرهم منه.

وقد كنت بدأت هذه المقالة بذكر وجهة نظر مالك بن نبي في الفرق بين البنا ورجال الإصلاح الذين سبقوه، وهذا الفرق انتبه إليه تلميذ من

(١) تكلمت عن ماكس فيبر ونظريته في مقالي الذي ذكرته في الهامش السابق.
(٢) مذكرات، ص ٢٤

تلاميذ البنا فقال مُميِّزاً بين دعوة محمد عبده ودعوة البنا: "إن دعوة الإخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعني الجهاد والنضال والعمل، وإنها ليست مجرد رسالة فلسفية"[١].

وهذه الصفة التي كانت لشيخ الطريقة الحصافية سيطورها الفتى حسن تطويراً كبيراً، فهو لم يقنع قط بحشو أدمغة تلاميذه وأنصاره بمعلومات نظرية، ولا بمجرد تصحيح نظري للعقيدة، وانشغال يستغرق الحياة كلها بهدف واحد هو البحث عن الانحرافات العقدية للهجوم عليها، كما سيجري بعد عهده عند كثيرين، بل اكتفى من العلوم النظرية بتقرير عموم عقيدة السلف، ثم انتقل إلى التحويل العملي لهذه العقيدة وتجسيدها.

وهذا ما يجعل المرء يهتم جداً بتجربته. ولكن كل ما تقدم من قول لا يعني إقرار البنا على كل اجتهاداته وسلوكياته طبعاً، بل المطلوب تقويم موضوعي لتجربة البنا يتجنب التقديس المنهي عنه لشخص البنا أو (لأي شخص كان!)، ويتجنب في المقابل الموقف العدائي المسبق الذي نجده عند خصوم (الإخوان) من أنظمة وتيارات فكرية وسياسية مختلفة..

وإن كنت قد أشرت سابقاً إلى دور الدين في النهضة، أو دور التأويل السلبي للدين في الركود الحضاري، فإنني سأجد الآن على ذلك مثالاً من علاقة البنا الفتى المبكرة بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، فأبو حامد كما يعلم المُطَّلِع على مؤلفاته ولا سيما (إحياء علوم الدين) يمكن تفسير بعض أفكاره بشكل يجعل تأثيرها سلبياً معاكساً لهدف النهضة الحضارية، إذ كان من جملة الأفكار التي يمكن استخراجها من الكتاب بغض النظر

---

(١) أحمد أنس الحجاجي- "الرجل الذي أشعل الثورة"- في: رفعت السعيد- "حسن.."-ص٣١.

عن الفكرة أو خطئها الفكرة التالية: "العلم الواجب هو العلم المحتاج إليه في أداء الفرائض وكسب العيش، ثم يجب بعدها الانصراف إلى العمل والأخذ بالضروري وترك ما سواه وعدم ضياع الوقت فيه"[١].

والعودة إلى تقرير مبدأ أهمية طلب العلم كانت بمساعدة أستاذ من أساتذته هو الذي دفعه إلى المذاكرة والتقدم إلى امتحان دار العلوم في القاهرة. وبمناسبة ذكر هذا العالم العظيم أبي حامد الغزالي بإمكاننا هنا الإشارة إلى أن الطريقة السلبية في الحياة التي تقود إن اتبعت جماعياً إلى الانحطاط الحضاري، أو المساهمة فيه على الأقل، والتي يمكن أن تنتج من تأويل محدد لبعض أفكار أبي حامد كان ممن تطرق بصورة لامعة عبقرية لنقدها والتحذير منها وتبيان مخالفتها لروح الشريعة الإسلامية الفقيه الكبير ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس"، وإنني لأنصح القارئ بالعودة إليه إن كان يريد متابعة تطور الأفكار المشجعة والمثبطة للسلوك الحضاري في الأمة الإسلامية، وإنه لمن المفارقات في المقابل أن البنا وضع كتاب الإحياء تحديداً لاحقاً ضمن منهج دراسي للدعاة الذين عمل على تجميعهم في بداية حياته[٢]، وأعدُّ هذا دليلاً على جواز أن يأخذ فكر رجل واحد اتجاهين مختلفين بحسب من يؤوّله ويفعّل بالتالي ما يريده من جوانب في هذا الفكر!.

وفي اعتقادي، كما قلت، أن شخصية الفتى حسن البنا جبلت على مبدأ الفاعلية، وما كان هذا التأويل الدافع إلى السلبية ليؤثر فيه طويلاً. والبنا يحدثنا في مذكراته عن أشخاص فاعلين أثروا فيه، وكانوا بمثابة المثل الأعلى له، وقد ذكر علاوة على شيخ الطريقة الحصافية شخصاً آخر هو العلامة أحمد الشرقاوي الهوريني الذي كان ينفق على الطلاب غير

(١) مذكرات، ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

القادرين مادياً حتى يتخرجوا، ثم يعود هؤلاء لرد دين الشيخ لا برد النقود إليه، ولكن بأن ينفقوا هم بدورهم على طلاب جدد غير قادرين، وبهذا نشر مبدأ التكافل في جماعة كبيرة من الطلاب والمتعلمين كانوا يلتفون حوله دوماً.

ومن خواص شخصية البنا تقديره للإمكانات الكامنة عند أفراد الشعب، وهو يذكر أمثلة من أناس عاميين استخرج قدراتهم الكامنة في العمل الاجتماعي الفعّال، ويقول في هذا المجال عن شاب فلاح التقاه من هؤلاء: "أنا أعجب لعقلية هذا الشاب الفلاح الذي لم يتعلم أكثر من التعليم الأولي في القرية، وكم في مصر من ذكاء مغمور وعقل موفور لو وجد من يعمل على إظهاره من حيز القوة إلى حيز الفعل"[١]، وقد كانت الجماعة التي أنشأها لاحقاً في الإسماعيلية نموذجاً لتفتح طاقات الناس العاديين، وهو يخبرنا عن مراقب عام التعليم الابتدائي الذي زاره ليتحقق من صحة تقارير رفعت ضده، فاستقبله الإخوان وعملوا له حفلة توالى على الخطابة فيها خطباء مجيدون دهش المراقب حين علم أن واحداً منهم مكوجي والآخر نجار والثالث جنايني وهكذا! مما أثر في الرجل تأثيراً بالغاً فقرر الانضمام للجماعة[٢]!.

وقُبل حسن في دار العلوم في القاهرة، وهناك استأنف حياته الدراسية الجادة المترافقة مع علاقات اجتماعية نشيطة في وسط كان آنذاك يتحسس الخطر على الدين والأخلاق الذي أتت به الموجات الانحلالية، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الفترة خطر للبنا خاطر لعله لم يخطر لسواه من قبل، وقد ناقشه مع أصدقائه فلم يرضوا عنه حتى جعل الحكم بينه وبينهم التجربة، وهذا الخاطر هو الدعوة إلى الدين

(١) مذكرات، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١.

والأخلاق في المقاهي. وقد كان البنا مقتنعاً بضرورة تكوين دعاة يتصدون لمهمة مقاومة الموجة الإباحية في المجتمع، وأقام علاقة مع الشخصيات الدينية النشيطة في القاهرة آنذاك، من أمثال محب الدين الخطيب وأحمد تيمور ورشيد رضا أيضاً، وقد جرب أن يدفع هؤلاء العلماء وبقية وجهاء البلد المتدينين إلى عمل جماعي ثقافي وإرشادي، ولم يخل هذا الدفع من نتائج على ما يبدو فقد كانت مجلة (الفتح) المشهورة و(جمعية الشبان المسلمين) من نتائجه أو ساهم فيها على الأقل.

وانتهى الشاب حسن من دراسته في دار العلوم، فعُيِّنَ مدرساً في الإسماعيلية وسافر إلى هناك فوجد بلداً يعمل أغلب أهلها في المعسكرات الإنجليزية المنتشرة في المنطقة، وفي شركة قناة السويس الإنجليزية أيضاً، ولنمط الحياة الأوروبي وجود قوي، ولكن الأغلبية المصرية مع ذلك متدينة، ويحدثنا البنا في (مذكرات الدعوة..) أن مدرساً إسلامياً سبقه وأعلن آراء أثارت انقساماً في البلد وقاومها مشايخه، ولم يكن البنا ممن يحب تفريق القلوب ولا ما يقسم وحدة الناس، وهذه سمة من سمات طريقته في الدعوة، فقد كان يبتعد عن الجدالات المذهبية، بل كان لا يحبذ حتى مناقشة المخالفين في الدين؛ إذ كان يرى أن يشغل الناس بالصواب عن الخطأ، ومن هنا لم يحبذ ما فعله هذا المدرس حين دفع الناس إلى التحيز «لآراء وأفكار لا تجتمع عليها القلوب، ولا تنبني معها الوحدة المنشودة التي لا تتحقق بدونها غاية»[1]. ولعله انسجاماً مع رأيه هذا لم يخبرنا بتفاصيل دعوة هذا المدرس!

وحين فكر وجد أن المكان الملائم للدعوة ليس المسجد بل المقاهي! وهنا نرى موهبة الفتى ومقدرته على الابتكار والتفكير الخلاق، وهذا التوجه إلى الجمهور العادي الذي يحتقره عادة الدعاة التقليديون

---

(١) مذكرات، ص ٧١.

يدلنا على التقاط البنا منذ بداية مسيرته لأهمية بث الفاعلية في المجتمع، الفاعلية العملية التي تتجسد في سلوك، وليس الفاعلية النظرية التي لا تتجاوز التأمل والجدالات الكلامية، وهذا النهج الجديد هو واحد من التغيرات النوعية التي جاء بها البنا محدثاً تجديداً حاسماً في الفكر الإصلاحي الذي تجلى في مدرسة عبده-رضا.

إن ما يميز شخصية البنا منذ بداية حياته كان أنها شخصية متجهة للفعل الاجتماعي، وقد ذكر هذا في موضوع إنشاء مدرسي كتبه في دار العلوم حين طلب المدرس من الطلاب أن يكتبوا موضوعاً عمّا يأملون في تحقيقه بعد انتهاء دراستهم، فقال الفتى في موضوعه: إن أجلّ غاية يجب أن يرمي الإنسان إليها هي رضا الله عنه، ولهذه الغاية يمكن للمرء أن يسلك أحد طريقين؛ واحد منهما طريق التصوف والابتعاد عن الخلق، والثاني طريق التعليم والإرشاد والاختلاط بالناس ودرس أحوالهم وغشيان مجامعهم ووصف العلاج الناجع لعللهم وهذه أشرف عند الله وأعظم[1].

وهذا النص قيم؛ لأنه يخبرنا أولاً عن توجه الفتى للفعل الاجتماعي الذي ذكرته الآن، وهو يخبرنا بعد ذلك عن تصوره للمشكلة الجوهرية لمجتمعه التي سيتوجه فعله الاجتماعي لحلها: "أعتقد أن قومي-بحكم الأدوار السياسية التي اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعية التي مرت بهم، وبتأثير المدنية الغربية، والشبه الأوروبية، والفلسفة المادية، والتقليد الفرنجي-بعدوا عن مقاصد دينهم، ومرامي كتابهم، ونسوا مجد آبائهم، وآثار أسلافهم، والتبس عليهم هذا الدين الصحيح بما نسب إليه ظلماً وجهلاً، وسترت عنهم حقيقته الناصعة البيضاء، وتعاليمه الحقيقية السمحة، بحجب من الأوهام يحسر دونها البصر، وتقف أمامها الفكر،

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤.

فوقع العوام في ظلمة الجهالة، وتاه الشبان والمتعلمون في بيداء حيرة وشك، أورثا العقيدة فساداً، وبدلا الإيمان إلحاداً"[١].

في هذا النص المهم عن وعي الفتى الذي سبق مباشرة - تقريباً - تأسيس جماعة الإخوان المسلمين نستطيع أن نرى علاوة على التوجه الاجتماعي للفتى اقتصار أهدافه آنذاك وبرنامج عمله على الأهداف المعتادة للحركة الإصلاحية السلفية التي سبقته، وهي الأهداف المتوجهة لإصلاح النفوس، ومقاومة النزعات المادية الملحدة والأخلاق الوافدة، ولكن مع هذه الإضافة المهمة وهي الفعل العملي الذي لا يقتصر على الوعظ والإرشاد، وهو يخبرنا أنه كان في الفترة نفسها قد استنتج أن المساجد وحدها لا تكفي في إيصال التعاليم الإسلامية للناس، ففكر في أن يدعو إلى "تكوين فئة من الطلاب الأزهريين وطلاب دار العلوم للتدرب على الوعظ والإرشاد في المساجد ثم في المقاهي والمجتمعات العامة، ثم تكون منهم بعد ذلك جماعة تنتشر في القرى والريف والمدن الهامة لنشر الدعوة الإسلامية"[٢].

فما كان في ذهنه في البداية إذن كان مشروع دعوة لإصلاح سلوكي أخلاقي عقدي يتم عن طريق جمعية من الدعاة، والأفكار التفصيلية التي نعرفها عن الإخوان سواء في مجال بناء التنظيم أم في مجال الفكر السياسي لم تكن قد تبلورت، وهي تبلورت لاحقاً برأيي، وهو ما سيتوصل إليه باحث محايد لا يشبه الدكتور رفعت السعيد الذي كتب سيرة البنا بروح مليئة بالتحامل المسبق، وسوء النية الذي يجعله يقرأ سلوكيات البنا منذ بداية حياته وكأنه البنا في أربعينيات القرن العشرين، بل كأنه بنا الأربعينات كما يتصوره السعيد!

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) مذكرات، ص ٥٤.

وصل الفتى إلى الإسماعيلية إذن وفي ذهنه أن يكون الداعية المصلح، وليس وحده، بل أن يكون أيضاً المربي الباني لجماعة مترابطة من الدعاة، على أن نضع في ذهننا (وهذه أطروحتي الشخصية عن البنا) أن الفكر الإخواني السياسي بملمحه الرئيسي الذي يدعو إلى قيام "دولة إسلامية"، على اعتبار أن الدولة القائمة ليست دولة إسلامية لم يكن قد تكون بعد، وهو سيتكون بالتدريج ومع نمو الجماعة وتفاعلها مع الواقع المصري والعربي بكل تشابكاته.

وفي آذار (مارس) ١٩٢٨ عقدت الجلسة التأسيسية للجماعة حين زاره ستة من الذين تأثروا بدروسه ومحاضراته، وبايعوه على خدمة الإسلام بسلوك الطريقة العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين وخدمة الدين والوطن والأمة، ويكون هو المسؤول بين يدي الله عنهم وعما يجب أن يعملوا، كونهم لا يستطيعون أن يدركوا الطريق إلى العمل كما يدرك، أو يتعرفوا السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما يعرف[١].

حين تدخل مجموعة كهذه ساحة الفعل الاجتماعي، فإن من البديهي أن موقعها لن يتحدد فقط وفقاً لنيات أفرادها ووعيهم، بل سيأخذ مكانه في السياق المجتمعي العام، وستدخل الجماعة الناشئة شاءت أم أبت في شبكة علاقات هذا الفعل المجتمعي المعقّد وهذا ما جرى للإخوان فهم أثّروا في مجتمعهم وقواه الفاعلة وتأثروا، وعن هذا التفاعل نشأ الإخوان الذين نعرفهم لاحقاً.

كانت مصر منذ سنين قليلة قد حصلت على "تصريح فبراير ٢٢" الذي منحت وفقاً له إنجلترة مصر وضع دولة مستقلة، وأنهت به شكلياً (في البند الأول منه) الحماية البريطانية على مصر، إلا أنها جعلت هذا

---

(١) مذكرات، ص ٨٣.

الاستقلال محدوداً بتحفظات أربعة يكفي في وصف تأثيرها ما قاله "اللورد اللنبي" بالذات "إن هذه الضمانات قد تجاوزت الحد الذي يتلاءم مع حالة البلاد الحرة"، قال اللورد المذكور هذه الكلمات في مذكرته التفسيرية للتصريح التي رفعها إلى السلطان فؤاد[1]!

وهذه التحفظات الأربعة هي:

١- تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية ٢- الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي ٣- حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ٤- إبقاء السودان على وضعه الخاضع شكلياً لإدارة ثنائية مصرية بريطانية وفعلياً لاحتلال بريطاني.

وفي ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٢٣م صدر الدستور الذي على أساسه نُظمت الحياة السياسية المصرية في العقود اللاحقة، وتضمن نوعاً من تقسيم السلطات بين وزارة ينتخبها البرلمان، وملك يجيء إلى العرش بالوراثة من أسرة محمد علي، تميز على الدوام بمحاولة التخلص من القوى البرلمانية الشعبية التي تحد من سلطاته، وعلى رأسها حزب الوفد الذي كان يفوز بصورة منتظمة في كل انتخابات حرة.

صارت مصر إذن تحت تأثير ثلاث قوى متصارعة:

١- الاحتلال الإنجليزي.

٢- الملك وحاشيته.

٣- البرلمان والوزارة.

---

(١) في: الدكتور زكريا سليمان بيومي- "الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨-١٩٤٨" -مكتبة وهبة -القاهرة-١٩٧٩م- ص٤٠.

وبصورة خاصة حزب الوفد الذي لم يفقد رغم كل التقلبات الاجتماعية والسياسية شعبيته الكاسحة. ولنتكلم قليلاً عن هذا الحزب الأخير:

تكوَّن الحزب كما هو معلوم في الخضم الهائج لثورة ١٩١٩م، وقاده سعد زغلول مع نخبة مصرية تميزت من حيث الأيديولوجية السياسية بنزعة لبرالية معتدلة، وتوجه إقليمي مصري، بخلاف التوجه التقليدي للحزب الوطني الذي كان في اتجاه الجامعة الإسلامية والحفاظ على وضع مصر التي كانت حتى عام ١٩١٤م رسمياً جزءاً من الدولة العثمانية. وقد ساعد على هذا التوجه الإقليمي للوفد (الذي كانوا يسمونه أحياناً "التوجه القومي"!) أن الدولة العثمانية خضعت في زمان تكوّن الوفد للحركة القومية التركية المتطرفة التي كانت معادية للطابع الديني للدولة، وقامت لاحقاً بإلغاء الخلافة، وقد ظلت رؤية الوفد حتى النهاية رؤية لبرالية وطنية، قريبة من العلمانية وإن لم تكن قط معادية للدين، ولكنها كانت دوماً ضد محاولات الملك استغلال فكرة إعادة الخلافة الإسلامية لصالحه هو (وقد جرت محاولات للتمهيد لإعلان الملك خليفة على المسلمين)، كما كان الوفد حذراً من محاولة الملك استغلال المشاعر الدينية لتأكيد سيطرته (وقد احتفظ الملك دوماً بعلاقة خاصة مع الأزهر، وحرص على وضع مؤسسة الأزهر ضمن المؤسسات التي تخضع له مباشرة دون توسط الحكومة، وعلاقة الإخوان بالمناسبة مع الأزهر جديرة بدراسة متأنية، من شأنها في اعتقادي أن تلقي أضواء على طبيعة الأيديولوجية الإخوانية بصفتها أيديولوجية حديثة، تختلف نوعياً عن المنظومة الفكرية للمؤسسة العلمية الإسلامية التاريخية).

الوفد كان إذن هو الخصم الأكبر للملك في الجزء الأكبر من تاريخ مصر بين عامي ١٩١٩ و١٩٥٢م، وضد هذا الخصم حاول الملك عبثاً أن

يُوجِد بنفسه أحزاباً منافسة، أو يتحالف مع أحزاب الأقلية الموجودة، كتلك التي ورثت حزب الأمة أو انشقت عن الوفد، وقد كانت هذه الأحزاب لا تربح الانتخابات إلا بالتزوير، وتضطر بحكم وضعها باعتبارها أقلية إلى استعمال الأساليب الدكتاتورية في الحكم، وهذه الأساليب ظلت على كل حال لا تقارن بالدكتاتورية الحقيقية اللاحقة التي شهدتها الحقبة الناصرية لأن الوزارة على كل حال، والملك معها، بل مصر بأسرها لم تكن دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً، ولم يسمح ميزان القوى بتفرد قوة واحدة في الهيمنة حتى مجيء حكم الضباط الأحرار عام ١٩٥٢م.

في هذا الوضع تأسست حركة الإخوان المسلمين ونمت، ومن غير المعقول فهم مسار هذه الحركة دون أن نضع في الذهن دوماً الخلفية السياسية-الاجتماعية-الاقتصادية-الثقافية لمصر في ذلك الزمان، ومعها الوضع العالمي بأسره أيضاً الذي تميز في الفترة ما بين الحربين العالميتين بصعود نجم النسخة الستالينية من الشيوعية، واكتسابها أنصاراً كثيرين في العالم، ونجم الفاشية الأوروبية وسعي الكثيرين أيضاً في العالم غير الأوروبي لتقليدها، ومن لم يقلدها فقد تأثر بتجربتها على كل حال بأشكال مختلفة وهو ما سنراه في هذا المقال بالجملة.

قال قائل الستة الذين أسسوا الإخوان مع البنا: "بم نسمي أنفسنا؟ وهل نكون جمعية أو نادياً، أو طريقة أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمي؟" فقال البنا: "لا هذا، ولا ذاك، دعونا من الشكليات، ومن الرسميات، وليكن أول اجتماعنا وأساسه: الفكرة والمعنويات والعمليات. نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن (الإخوان المسلمون)[1].

---

(١) مذكرات، ص ٨٤.

وأما الستة فواحد منهم نجار، والثاني حلاق، والثالث (مكوجي)، والرابع سائق، والخامس (جنايني)، والسادس (عجلاتي)[1].

وهذا الإشكال في تحديد نوع الحركة ليس مجرد مسألة شكلية لفظية تتعلق بالاسم، وإنما هو مسألة حاسمة الأهمية تتعلق بطابع فعل الحركة: هل هي حركة سياسية حزبية تستهدف الوصول إلى السلطة، أو هي تيار فكري إصلاحي لا يستهدف السلطة؟ وقد عد السائل أنواعاً معروفة من المنظمات التي كانت موجودة: الجمعيات والنوادي والطرق الصوفية والنقابات، ولكن البنا لم يوضح أكثر من كون الجماعة مؤسسة على "الفكرة والمعنويات والعمليات"، وحيرة بعض معاصري الحركة في تحديد طبيعتها نجد انعكاسها لاحقاً في تصريح مشهور للإمام حسن البنا قاله في نوفمبر ١٩٤٤م "يقولون نحن في حيرة من أمر الإخوان المسلمين أهي طريقة صوفية أم جمعية خيرية، أم حزب سياسي وأي شيء يقصدون، وفي أي طريق يسيرون أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا في الطريق الأول الذي لا يصلح أمر الناس إلا عليه.. الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، ونهجنا منهج الإسلام ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل"[2].

وفي رسالة المؤتمر الخامس -١٩٣٧م كان البنا قد وصف الحركة بأنها تمثلت فيها كل نواحي الإصلاح في الأمة إذ هي في آن واحد: دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية، ويقول بعد هذا التعداد: "وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولاً لكل

---

(١) د. زكريا بيومي - (الإخوان..) - ص ٨١.

(٢) مقال في مجلة "الإخوان المسلمون" بعنوان "نحن"-في: د.رفعت السعيد- "حسن البنا.."- ص٨٠.

مناحي الإصلاح، ووجّه نشاط الإخوان إلى كل هذه النواحي، وهم في الوقت الذي يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعاً ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعاً "[1].

وفي فقرة لاحقة نعود لطابع الحركة الإخوانية وتأثيره في مسارها المعقَّد المرير.

وكان أول نشاطات الجماعة الجديدةِ إنشاء مدرسة للدعاة في حجرة متواضعة استؤجرت بستين قرشاً في الشهر، ودرس الدعاة فيها تلاوة القرآن وتفسيره، وتصحيح العقيدة والعبادة، والتعرف إلى آداب الإسلام وتاريخه وسيرة السلف الصالح والسيرة النبوية بصورة ميسَّرة تهدف إلى النواحي العملية والروحية، وتدريب القادرين على الخطابة والدعوة، "وحول هذا المنهاج تربت المجموعة الأولى من الإخوان المسلمين الذين بلغوا في نهاية العام الدراسي ١٩٢٧-١٩٢٨ سبعين أو أكثر قليلاً "[2].

وفي هذه المدرسة تفاعل الدعاة بعضهم مع البعض الآخر، وتحولوا إلى جماعة متماسكة متحابة متعاونة. وكان الانضمام إلى الجماعة يصاحبه انقلاب أخلاقي سلوكي هو بحد ذاته مما لا يمكن إلا أن نراه إيجابياً، ونتمنى لو تحول إلى نموذج اجتماعي شامل. ولكن هذا النجاح كان مقدراً له أن يتبدد إلى حد بعيد كما سنرى في التطورات اللاحقة، والتي يركز عليها خصوم الحركة عادة شأن الدكتور رفعت السعيد دون أن يروا العنصر الثمين الذي كان موجوداً فيها وقابلاً للإسهام الفاعل في التحويل النهضوي لمجتمع انحطَّ حضارياً. والأستاذ مالك بن نبي حين تحمس

(١) "مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا"-دار الطباعة والنشر الإسلامية- القاهرة-١٩٩١م-ص١٢١-١٢٣.

(٢) مذكرات، ص ٨٤.

للتجربة كان في أغلب الظن قد وصل في معرفته بالحركة إلى هذه المرحلة وتوقف، ولكن الحركة لم تتوقف هنا كما سنرى.

وبعد أن تكونت نواة الجماعة تمكنت من تأسيس مدرسة ومسجد في الإسماعيلية ساهم في إنشائه تبرعُ المواطنين، وتلاه إنشاء شعبة للجماعة في بلدة أخرى هي "شبخريت" ساهم بعض وجهائها في دعم إنشاء مسجد ومدرسة وعمارة ضخمة وقفت للمدرسة والمسجد.

الجمعية في البداية كانت تذكر بشكل الجمعيات الخيرية، بل فهمها بعض مؤسسيها على هذا النحو؛ إذ يقول أحد مؤسسيها وهو د.عبد الرحمن حسب الله إن الجماعة كانت في البداية تمثل جمعية خيرية[١].

وفي سياق الدعوة قام البنا بعدد هائل من الزيارات إلى قرى مصرية كثير منها لم يكن يعرف فيه أحداً، ويصوِّره كاتب أمريكي هو روبير جاكسون قابله وتنبأ له بمستقبل عظيم، على أن تنبؤه كان فيه حدس ثاقب غريب حقاً "زرت هذا الأسبوع رجلاً قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر وقد يختفي إذا كانت الحوادث أكبر منه" ويقول عنه "كان أعجب ما في الرجل صبره على الرحلات في الصعيد.. هذه الرحلات

---

(١) مجلة الاعتصام- أيار (مايو) ١٩٧٦ في: د.رفعت السعيد "حسن البنا.." - ص٤٣.

ومن الغريب أن هذه المعلومة لا يستعملها الدكتور رفعت السعيد في كتابه الذي يتخلله من البداية إلى النهاية رغبة في تصوير البنا على أنه شخصية متسلطة متآمرة إلى آخره منذ البداية، وبحيث يندرج كل فعل من أفعاله، حتى عندما كان تلميذاً طفلاً!، في إطار الصورة الثابتة التي يرسمها السعيد له بعداء مطلق، وبحيث لا نلمح أي ملمح من (الديالكتيك) الذي يتباهى به الماركسيون عادة! أي المنهج الذي يرى الأشياء في تطورها ولا يراها على أنها جوهر ثابت لا يتغير!

التي لا تبدأ إلا في فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلي في حالة غليان.. وفي أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام.وهناك تراه غاية في القوة واعتدال المزاج.. لا الشمس اللافحة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا هو يضيق بها".

"وقد أمدته هذه الرحلات في خمسة عشر عاماً زار خلالها أكثر من ألفي قرية.. وزار كل قرية بضع مرات بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض.. وألوانها السياسية وأثرها في قراها،ورضا الناس عنها وبغضهم لها..وما بين البلاد أفراداً وأحزاباً وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات، وكان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو يغير طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى دار عامل فقير في البلد، وكنت إذا قلت له فلان الحسيني مثلاً أو الحديدي أو الحمصاني قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها في القاهرة والثانية في دمنهور والثالثة في الزقازيق والرابعة في..فأيها تقصد؟.. وقد حدثني أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً فيقصد إلى المسجد فيصلي مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام.. وأحياناً ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته"[1].

وكانت لشخصية البنا السيطرة شبه المطلقة على الجماعة وكانت هذه السيطرة ناتجة عن طبيعة الزعامة "الكارزمية" للرجل، كما هي ناتجة

---

(١) مجلة الهلال- نيسان (أبريل) ١٩٧٧-رأي كاتب أمريكي في حسن البنا-ترجمة أنور الجندي.في: د. رفعت السعيد"حسن البنا.."- ص٤٧-٤٨.

أيضاً عن النظام الداخلي للجماعة الذي يضع في يد المرشد سلطات شبه مطلقة[١].

ومنذ البداية وجدت الجماعة الناشئة من يحاول أن يستثير السلطة عليها، والبنا في مذكراته يخبرنا أن ممن شهدوا للجماعة ضد عريضة من عرائض الخصوم الكيدية رجل بوليس جاء في تقريره أن كثيراً ممن لم تنفع معهم وسائل البوليس التأديبية أفلحت معهم وسائل الإخوان الروحية، واقترح على الحكومة تشجيع الجماعة والعمل على تعميم فروعها في البلاد حتى يكون في ذلك خدمة للأمن والإصلاح! وبالمثل شهد أحد غير المصريين ممن يعمل في شركة القناة أنه شاهد الشيخ حسن يوم مرور الملك فؤاد بالإسماعيلية يقول للعمال-بالعامية: "لازم تذهبوا وتحيوا الملك حتى يفهم الأجانب في هذا البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه فيزيد احترامنا عندهم"[٢].

وأما نحن فقد نغير قليلاً في شهادة رجل البوليس لنقول: إن الجماعة كان لوظيفتها الاجتماعية الموضوعية التي أدتها في تاريخ مصر منذ سنة تأسيسها وحتى منتصف الأربعينيات سمتان: الأولى هي سمة المصلح الاجتماعي النهضوي، والثانية هي سمة تحويل اتجاه الجموع عن الخطر الذي كان يراه جزء من النظام السياسي وهو جزء الملك"السراي" الخطر الأكبر، ألا وهو حزب الوفد إلى اتجاه لم يكن على كل حال يبدو خطيراً،وهذا الاستخدام للجماعة سنراه يتكرر لاحقاً في بلاد عربية وإسلامية مختلفة؛ منها مصر بالذات في بداية عهد السادات الذي استخدم

---

(١) انظر في موضوع الصلاحيات شبه المطلقة للمرشد: طارق البشري- "الحركة السياسية في مصر١٩٤٥-١٩٥٢" -الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة١٩٥٢-ص٥٩-٦٠.

(٢) مذكرات، ص ١٠٠.

دورها، ولو كان ذلك دون إرادة مباشرة من أعضائها، ضد الناصريين والحركة الطلابية.

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ انتقل المدرس حسن البنا إلى مدرسة في القاهرة، ومعه انتقل مقر المركز العام للجماعة، ولم يمض عام على انتقاله إلى القاهرة حتى كانت الدعوة قد انتشرت في خمسين بلداً[١].

وقد بدأت الجماعة اعتباراً من عام ١٩٣٣ في عقد مؤتمراتها (الأول عام١٩٣٣، الثاني ١٩٣٣ أيضاً، الثالث ١٩٣٥، الرابع ١٩٣٦وهو مؤتمر خُصص لاحتفال بتتويج الملك فاروق على عرش مصر، الخامس عام ١٩٣٩، والسادس عام ١٩٤١).

وقد بُني الهيكل التنظيمي للجماعة على مبدأ الاختيار من أعلى في كافة المراكز الرئيسية[٢].

نمت الجماعة نمواً عاصفاً محققة تقريباً التوصيف الذي رأيناه في فقرة سابقة من كونها " في آن واحد دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية".

إن الجماعة قد تحولت إلى كتلة ضخمة لها طابع ديني واجتماعي، ولها مجلة ثم جريدة يومية تنطق باسمها، ولها شركات اقتصادية ونظام بني على طريقة (نظام الكشاف) هو نظام الجوالة، وهو تشكيلات شبه عسكرية قامت باستعراضات كبيرة في المؤتمر الرابع الذي خصص للاحتفال بتتويج الملك فاروق،ولنلاحظ هنا أن هذا

(١) د. زكريا بيومي-"الإخوان.."-ص٨٩.

(٢) انظر عن الهيكل التنظيمي للجماعة: طارق البشري- "الحركة.."-ص٦٢.

النموذج كان شائعاً في الثلاثينيات بل كان (موضة) متأثرة بالحركة الفاشية الأوروبية، وكان الوفد عنده تشكيل خاص به اسمه (القمصان الزرقاء)، كما كان لحزب (مصر الفتاة) تشكيل اسمه (القمصان الخضراء)، وكان للنموذج الفاشي بعض الإلهام لكثير من المصريين في ذلك الزمن ومنهم البنا، وقد تعاطف مع الفاشية في جوانب عديدة من جوانبها؛ منها إلغاؤها للنظام البرلماني وللأحزاب التي كان البنا يرى فيها شراً كبيراً، ومنها اعتمادها على مبدأ الجندية وعلى وحدة الزعيم الذي لا يتبع في زعامته أسلوب الزعماء البرلمانيين، ولا شك أن عداء الفاشية للشيوعية كان من جملة ما يحببها إلى البنا دون أن نبالغ في هذا؛ إذ لم تكن الشيوعية بعد تمثل في المنطقة خطراً محسوساً، وقد رأينا البنا بالذات يستشهد بالتجربة الستالينية في سياق واحد مع استشهاده بتجربة هتلر وموسوليني[١]، ونحن نجد في الأربعينيات مواقف إخوانية مختلفة من الشيوعية فتارة تتم مهاجمتها، وتارة تذكر جوانب فيها لا تتعارض مع الإسلام[٢] هذا على أن البنا بالتأكيد لم يوافق على الأيديولوجية العنصرية للفاشية، وإن كان في تقديري لم يركز على هذا البعد من أبعاد تلك الحركة.

في عام ١٩٤٨ وصل عدد شعب الإخوان إلى ألفي شعبة، وتراوحت تقديرات عدد الأعضاء الإجمالي بين مليون ومائتي ألف وبلغ عدد أعضاء فرق الجوالة أربعين ألفاً[٣].

---

(١) مقال للبنا في جريدة "الإخوان المسلمون" ١٩-١٢-١٩٣٦ "الإسلام والجندية والقوة" ،موجود في: د. زكريا بيومي- "الإخوان.." -ص١٩٣.

(٢) انظر عن الوجه الأخير "المتفهم" لبعض ما في الشيوعية من أفكار اجتماعية اقتصادية: د.زكريا بيومي- "الإخوان.." -ص١٨٤-١٨٨. وكان هذا "التفهم" سمة عامة لتنظيمات سياسية غير شيوعية عديدة في البلاد العربية كما هو معلوم.

(٣) د. رفعت السعيد- "حسن.." -ص٨٠-٨١.

ونشأ في التنظيم "جهاز خاص" تحت إشراف البنا شخصياً، ينتظم فيه بصورة سرية شباب مختارون تدربوا على السلاح، والشيء الذي تؤكده الوثائق التاريخية أن هذا الجهاز ساهم في أعمال عنيفة وصلت إلى حد القتل ضد الخصوم الداخليين، وكانت هذه الأعمال هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وقادت الحكومة والملك إلى النظر للإخوان على أنهم صاروا خطراً داهماً لا بد من التخلص منه.

والشيء الذي قد يثير استغراب الباحث هو أن الحكومة تأخرت على ما يبدو في استشعار هذا الخطر، فقد كان الإخوان وحدهم قد استثنوا من قرار وزارة محمد محمود بحل جميع التشكيلات شبه العسكرية للأحزاب عام ١٩٣٨. ومن المفيد أن نعرف كيف فسر أحد الشخصيات السياسية النشيطة في تلك الفترة، وهو شخصية لم تكن معادية للإخوان عموماً ألا وهي شخصية أحمد حسين مؤسس (مصر الفتاة) لهذا الاستثناء: "حكومات الأقلية هي من شجع تكوين هذا الجيش(أي فرق جوالة الإخوان.م) وقام بتمويله باعتباره سلاحاً ضد الوفد الذي يريدون القضاء عليه بأي ثمن"[١]. عند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى نهاية الفاعلية النهضوية للجماعة، إذ تحولت إلى قوة سياسية تصارع على السلطة، ولا تتردد في استعمال العنف ضد الخصوم، وكان هذا هو الخطأ المميت الذي وقعت فيه هذه التجربة، وقد سهل هذا الاستعمال للعنف مهمة الحكومة في تصفية الجماعة عندما قتل أحد أعضائها في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨ رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي الذي كان أصدر قراراً بحل الجماعة، معللاً القرار بأن الجماعة تخطط للإطاحة بالنظام. ومن بعض الوثائق قد نستنتج أن البنا في آخر حياته كان قد أحس بالتأثير السيئ لهذا الجهاز السري على

---

(١) د. رفعت السعيد- "حسن.." -ص١٢٦.

مستقبل الجماعة، بل تفيد إحدى الشهادات أنه قد قال: إنه فقد السيطرة على أعضاء هذا الجهاز[1].

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ اغتيل البنا على يد رجال الملك فاروق، وانتهت بهذا الاغتيال تجربة مهمة تستحق أن نتوقف عندها، ونستخلص عبراً من الطرق التي يجب أن تطرح فيها مشكلة النهضة الحضارية في بلادنا والقابلة للنجاح، والطرق التي تقود إلى الإخفاق المحتم.

ثالثاً: ملاحظات على التجربة:

أريد في هذا الجزء من المقالة أن أثبت باختصار الأطروحة التالية عن تجربة البنا ثم تجربة التنظيمات الإسلامية اللاحقة:

إن البنا توصل تدريجياً، وليس منذ البداية، إلى بناء أيديولوجية سياسية حديثة وجهت حركة الإخوان، تندرج في سياق أيديولوجيات مماثلة شهدها المشرق العربي، وهذه الأيديولوجية تشكل تمايزاً واضحاً عن الوضع التاريخي الذي كان عليه المجتمع الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين.

هذا الطابع الأيديولوجي-السياسي للحركة هو الذي قاد التجربة إلى الهزيمة في نهاية الأربعينيات، ثم الكارثة في العهد الناصري.

---

(١) شهدت السيدة منيرة عامر بأنها سمعت بأنه متألم لقتل الخازندار وسألته فقال: "إن المسألة خرجت من يده وأنا عاوز أمسكهم لكن مش قادر" -في: د.رفعت السعيد "حسن.." -ص١٤٧. وفي محاضر "محكمة الشعب" شهادة مماثلة للشاهد منير الدلة.
وأحمد حسين، كما قد يعلم القارئ، هو مؤسس الحزب الذي يعد "حزب العمل" -إبراهيم شكري، نفسه وريثاً له، وهو الحزب الشرعي الذي يعمل تحت عباءته الإخوان في مصر الآن.

لقد رأينا أن الحركة في البداية كانت حركة إصلاحية في واقع اجتماعي لا يمكن وصفه إذا طبقنا عليه المعيار الإسلامي إلا أنه واقع فاسد:

فالمجتمع الإسلامي كان قد تحول إلى كيان مفكك كالريشة في مهب الريح، ولم تعد للمسلمين جامعة تجمعهم، أو دولة تتولى حمايتهم من التدخل الخارجي.وبعبارة أخرى: لقد فقد المجتمع الأهلي ذلك السياج الذي كان، بغض النظر عن كل نواقصه في العصور المتأخرة، يتكفل بالحيلولة دون التهديد المادي لوجود الجماعة.مع انهيار الدولة العثمانية سقط المجتمع بيد الاستعمار، وبدأت سيرورة تفكيكية لهوية المجتمع المميزة.

في الرد على هذه السيرورة التفكيكية شهدنا حركات نهضوية تهدف إلى تجاوز الأوضاع الفكرية للعصور المتأخرة، وبناء المجتمع على أساس تجديد الروح الدينية التي تكفل إعادة التوازن المفقود مع الخارج، ولعل مثل هذه الحركات كانت كفيلة بأن تعيد بناء الدولة التي تنسجم مع مجتمعها ولا تناقضه وتحاربه، شأن الدولة الحديثة التي أنتجتها تجربة الاستقلال.

من هذه النهضات نهضة "جمعية العلماء" في الجزائر بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ونهضة الحركة السنوسية في ليبية والصحراء، والحركة الإخوانية أيضاً في بداية تكونها وقبل تحولها الأيديولوجي الحزبي في منتصف الثلاثينيات.

ومن هذه الحركات الإصلاحية تمكنت حركة واحدة فقط من النجاح في التوصل إلى صيغة مستقرة للعلاقة بين الدولة والدين والمجتمع وهي حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في السعودية.

وفي دراسة تجربة الإخوان نجد أنها خضعت في الثلاثينيات لإغراء نموذج الحركات الحزبية العقائدية التي كانت سمة العصر:

ففي ذلك العصر تكونت تجربة الأيديولوجية المتأثرة بالفاشية، ممثلة في (القوميين السوريين) وحركة (مصر الفتاة) في مصر.

وفي تلك الفترة ظهرت الأحزاب الشيوعية العربية وأصبحت نشيطة.

وفي تلك الفترة أيضاً تكونت الأيديولوجيا البعثية وعلى أساسها تكون حزب البعث.

وهذا التحول الأيديولوجي- الحزبي أميل إلى تأريخه بالمؤتمر الثالث للجماعة-آذار (مارس) ١٩٣٥:

ففي هذا المؤتمر وضعت قواعد صارمة للانتماء للجماعة (حددت مراتب للعضوية تتدرج من (الانضمام العام) إلى (الانضمام الأخوي) إلى (الانضمام العملي) إلى (الانضمام الجهادي» جعلتها تفقد طابعها النهضوي المتوجه للجموع وحولتها إلى تنظيم سياسي مغلق فيه كل الصفات المعروفة للتنظيمات التآمرية التي تهدف إلى العمل للوصول العنيف للسلطة.

وبهذا تحولت الحركة إلى حركة عصبوية مغلقة، كان لا بد لها من أن تفقد صفتها الأولى حركةَ إصلاحٍ مفتوحة. لقد تحولت إلى حزب له بنية منفصلة عن المجتمع، وهذه البنيّة ستقود أناساً من داخله ليس لهم ذكاء البنا ولا سعة أفقه، إلى اتباع الأساليب التي كانت معتادة في ذلك الزمان في التعامل العنيف مع المنافسين ومحاولة فرض الرأي بالقوة، وكانت هذه هي نقطة التحول التي قادت إلى أن تصبح الجماعة فريقاً حزبياً، بعد أن كانت ترفض الأحزاب ومناوراتها.

وفيه أيضاً تحدد (منهاج الإخوان المسلمين) ويتألف من البنود الأربعة التالية: " ١- اعتبار عقيدة الإخوان رمزاً لهذا المنهاج ٢- على كل مسلم

أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة ٣- على كل أخ مسلم أن يعمل على نشر هذه المبادئ في جميع البيئات، وأن يتحمس لها تحمساً تاماً، وأن يطبقها في منزله مهما احتمل في سبيل ذلك من المكاره. ٤- كل أخ لا يلتزم هذه المبادئ لنائب الدائرة أن يتخذ معه العقوبة التي تتناسب مع مخالفته وتعيده إلى التزام حدود المنهج.وعلى حضرات النواب أن يهتموا بذلك فإن الغاية هي تربية الإخوان قبل كل شيء"[1].

وهذا "المنهاج" يبين معنى ما ذهبت إليه من تحول الفكر الإخواني من فكر إسلامي منفتح لا يشكل وضعاً خاصاً ضمن الفكر الإسلامي السائد، إلى فكر أيديولوجي سياسي خاص حديث لحزب واحد.

وفي الحقيقة ما جرى بعد هذا من تشكيل تنظيم سري وله ذراع شبه عسكري كان هو بعينه ما فعلته أحزاب سياسية أخرى، وما فعله (الضباط الأحرار) بالجملة! فليس من العدل أن ندين البنا بمعيار لا نطبقه على غيره؛ إذن ما فعله كان مندرجاً في طرق تفكير تلك المرحلة ونماذجها التي تفرض نفسها على المعاصرين. ولكن الخسارة الكبرى كانت في هذا التحول في حركة مبشرة ما كان من السهل إنهاؤها لو ظلت بعيدة عن فكرة الاستحواذ على السلطة، ولو ظلت تمارس تأثيرها في المستوى الاجتماعي فحسب، وتترك المناورات السياسية لمن هو أقدر عليها.

ولو وضعنا "سيناريو تخيلياً" للحركة لو حافظت على وضعها الأصلي حركةً غير سياسية غير متحزبة، فلربما رأينا تغيراً اجتماعياً مهماً سيفرض نفسه على المستوى السياسي بشكل غير مباشر دون أن يدخل في لعبة السلطة.

---

(١) انظر عن "منهاج الإخوان المسلمين" ومراتب العضوية ما جاء في مذكرات البنا رحمه الله - ص٢١٩-٢٢٠.

إن بناء مجتمع ناهض هو في النهاية قوة للسلطة القائمة، ولكن تجربة الاستحواذ الحزبي على السلطة بدعوى النهوض بالمجتمع أثبتت في المشرق إخفاقها، وهذا ما نعرفه الآن، ومن حق البنا علينا أن نضع له العذر في اجتهاده فقد كان رغم مواهبه الخارقة ابن عصره، وكان لا بد للنماذج الفكرية-السياسية التي شهدها أن تؤثر عليه.أما جيلنا الحاضر فهو غير معذور حين يعيد الأخطاء ذاتها ولا يستفيد من التجربة.

الإسلام هو دين وحضارة ومجتمع، وهو أكبر بكثير من حزب وتنظيم ولعبة سياسية، وتوثين مسألة السلطة وعدها الحل الأول والأخير كان هو مأزق الأيديولوجية العربية في نصف القرن الأخير.

وقد دخل البنا ساحة الصراع السياسي مدركاً للتحول النوعي الذي دعا الجماعة إليه، وكان ذلك في أيار (مايو) ١٩٣٨ في المجلة التي خصصت للتعبير عن هذا الوضع الجديد (النذير):

"إلى الآن أيها الإخوان لم تخاصموا حزباً ولا هيئة كما أنكم لم تنضموا إليهم كذلك، ولقد تقول الناس عليكم؛ فمن قائل: إنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل: إنكم سعديون ماهريون، ومن قائل: إنكم أحرار دستوريون، ومن قائل: إنكم بالحزب الوطني متصلون، ومن قائل: إنكم إلى مصر الفتاة تنتسبون، ومن قائل: إنكم إلى غير ذلك من الأحزاب منتمون - والله يعلم والعارفون بكم - أنكم من كل ذلك بريئون. فما اتبعتم غير رسوله زعيماً، وما ارتضيتم غير كتابه منهاجاً، وما اتخذتم سوى الإسلام غاية. فدعوا كلام الناس جانباً وخذوا في الجد (..) كان ذلك موقفكم أيها الإخوان، سلبياً هكذا فيما مضى، أما اليوم وأما في هذه الخطوة الجديدة فلن يكون كذلك، ستخاصمون هؤلاء جميعاً في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم ويتخذوا تعاليم الإسلام منهاجاً يسيرون عليه ويعملون له، وسيكون هؤلاء جميعاً منضمين

لكم في وحدة قوية وكتلة متراصة متساندة إن أجابوا داعي الله وعملوا معه. وحينئذ يجتمعون ولا يتفرقون، ويتحدثون ولا ينتقدون، فهو موقف إيجابي واضح لا يعرف التردد ولا يتوسط في الحب والبغض. فإما ولاء وإما عداء"(١).

ومن الملفت للانتباه أن هذا التحول التسييسي للجماعة قد أثار أسف بعض من كان يتعاطف معها على ما يبدو، وهذا ما يسجله الأستاذ البنا في خطاب ألقاه في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥: "قال لي أحد أصدقاء الإخوان الذين لا يتهمون في رأي ولا نصيحة منذ أيام قلائل: أليس الأروح للإخوان والأجدى على الوطن أن تشتغل هيئة الإخوان بالأغراض الأدبية والاجتماعية والاقتصادية من برنامجها -وهي من الإسلام أيضاً- وتدع الناحية القومية أو الوطنية أو السياسية بعبارة أخرى لسواها من الهيئات حتى لا يتعرض للعواصف القاسية هذا البناء العالي الذي أصبح للغيورين أملاً وفي تاريخ هذه النهضة عملاً؟ فقلت له في صراحة وإخلاص وتأثر: والله يا أخي إني لأشاركك هذا الرأي، وأجد في أعماق نفسي هذا الشعور قوياً عميقاً، وأكره أشد الكراهية ما يصحب هذا النضال من مظاهر وآثار في النفوس وفي الصلات، وما يجر إليه من نواحي الشهرة والجاه الكاذب الذي يلهي الناس عن الحقائق والواجبات: وكم كنت أتمنى أن تكون الظروف معي ومعك، وأن تدع لنا الحوادث من الوقت ما يتسع لهذا الذي تحب وأحب، وليس ذلك عن حب للراحة وإيثار للدعة، ولكن الأمور هي كما ترى الآن"(٢).

وفي رأيي فإن هذا النص يدلنا على أن البنا بالذات كان قد بدأ يستشعر في أعماق نفسه الأسف على الأهداف النهضوية الأصيلة التي

---

(١) مذكرات، ص ١٦٤.

(٢) "مجموعة رسائل.." -ص٢٥٦.

غطت عليها المعارك السياسية التي دخلت فيها الجماعة، وهو بعد هذه الكلمات يعود فيذكر لمحدثه الأسباب التي تجعله لا يعود لما كانت عليه الحركة في الأصل، فالدول الكبرى تتغافل عن حقوقنا، والهيئات السياسية غفلت عن واجبها، والشباب في ثورة، والشعب الذي ألح عليه الفقر والجوع إن لم تقده أيد حكيمة قد يسير في طريق لا تؤدي إلى نجاح أو غاية، وإلى جانب هذا تهيأت الأمة العربية وأمم الإسلام للوحدة. فهو يشعر الآن أنه لم يعد له الخيار، وأهم من هذا ضرورة النضال ضد التدخل والتحكم الأجنبي، وضعف الحكومات التي هي أداة طيعة في يد هذا التدخل والتحكم، فأول باب للإصلاح مكافحة هذين المظهرين!

ولكن هذا الجواب في اعتقادي إنما دل على أن الشيخ لم يحسم خياره، بل سار مع الظروف المحيطة واستجاب لاستفزازات الواقع، أو لربما سيره الواقع بتياره الجارف بعكس ما كان يريده، وهذا ما يحصل في التاريخ عادة مع قادة الحركات الكبرى إن لم تبن هذه الحركات في الوقت المناسب على أساس يجعل الانجراف مع التيار المحيط في اتجاه كارثي مستحيلاً.

مع الأسف لقد كان الانجراف أمراً واقعاً، وقد دفع البنا حياته ثمناً لتجربة إصلاحية يظل علينا نحن الذين أتاح لنا القدر أن نعرف مآلها أن ندرسها لنحاول أن نتلمس من خبرتها الجواب أو عناصر من الجواب على السؤال المطروح على مجتمعنا منذ قرنين: سؤال النهضة الحضارية.

ومن حق حركة الإخوان على كاتب مستقل عن الأحزاب والسياسة العربية الراهنة مثلي مع ذلك أن أشهد لها بأنها كانت في تيارها الغالب الوسطي المعتدل، وفي بلاد عربية كثيرة من أكثر الحركات السياسية

استفادة من التجارب. وهذا ما نجده في تجمعات عربية عديدة متأثرة بالفكر الإخواني أخذت حالياً شكل الجمعيات التي تعمل في الأطر المجتمعية ولم تبالغ في (التسييس) بمعناه المذموم.

٥

الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي وتلازم المقاومة والنهضة

من هو؟

هذا عبقري فذ من عباقرة الإسلام، عبقري سياسة وعبقري حرب وقبل ذلك كله هو عبقري نهضة حضارية اجتماعية نراها الهدف الرئيسي لمجتمعنا الحاضر. عرف معاصروه حقه ومنزلته، ولكن الأجيال الجديدة تكاد تنساه، وليس النسيان هو ما يستحقه؛ لأن الأمم الحية لا تتخلى عن عظمائها الذين يقدمون لها القدوة والمثال لكي يسير على إثره كل فرد منها وينسج على منواله.

هو صنو الأمير عبد القادر الجزائري ونظيره في المغرب الأقصى وبالتحديد في شماله: منطقة الريف، وصفه الشاعر الشعبي المصري (بيرم التونسي) حين وفد إلى مصر منفياً بعد انتهاء حربه البطولية مع الاستعمارين الفرنسي والإسباني فأصاب وصفه حين قال مرحباً به:

" داخل علينا ضيف

صاحب مقام عالي

أعظم رجال السيف

في عصرنا الحالي

عارفينه يبقى مين؟

ياناس يا ناسيين؟

قولوا: صلاح الدين

واحد وده التالي!"

أشبه صلاح الدين حقاً في بطولته وعبقريته الحربية وفي عبقريته السياسية، وأشبهه خصوصاً في عبقريته النهضوية إن جاز القول؛ فقد تمكن من تحويل مجتمعه الصغير المفكك والمتناحر إلى مجتمع متماسك استطاع أن يجابه بكفاءة مذهلة الحرب العدوانية التي شنتها عليه دولتان استعماريتان أكبر من بلده الصغير وأغنى وأقوى بما لا يقاس هما فرنسة وإسبانية.

وهذه العبقريات تداخلت، ولو تحدثنا الآن عن عبقريته الحربية قبل أن نتطرق إلى جوانبه العبقرية الأخرى فإننا نقول: إن أوربة شهدت له بأنه من العبقريات العسكرية الكبرى في العالم، وهو الذي خاض حرباً ضروساً بأسلحة بسيطة لا تذكر ضد جيوش جرارة مسلحة بالعتاد المتطور الثقيل، وتتفوق على جيش المتطوعين الذي قاده بالعدد أضعافاً مضاعفة، وأوقع بهذه الجيوش التي قادها عشرات المارشالات والجنرالات، وأنزل بها هزائم مخزية وأبادها مراراً وأسر من بقي منها من قادة وجنود واستطاع تحرير الريف وبناء دولته على المساحة الصغيرة المتاحة له وعوملت هذه الدولة معاملة الند للند وما خذله في النهاية إلا البنية الاجتماعية التي كانت سائدة في مناطق المغرب الأخرى، والتي لم يكن يستطيع أن يغيرها كما غيَّر هو البنية الاجتماعية في منطقته. خذلته تلك البنية الاجتماعية المنحلة، بنية "القابلية للاستعمار" أو "إنسان ما بعد

الحضارة" أو "إنسان ما بعد الموحدين" على حد تعبير المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي رحمه الله.

قال في حربه كارلتون كون: إنها ملحمة وقال فيه فانستن شين: "إنه ظاهرة فريدة" وقال روبرت فورنو: "إن خططه الحربية تستحق الدراسة" وقد كانت الحرب التي قادها ضد الاحتلال الإسباني كارثة على إسبانية قادتها إلى الفوضى وأعلن زعماء الدول الاستعمارية من أمثال لويد جورج وليوطي وبيتان وبول بانليفيه أن حرب الريف هي التي شهدت سقوط الاستعمار الأوروبي، وأنها بداية نهاية أحلام الاستعمار. ومن الغريب حقاً أن تدرس ناشئتنا "البطولات الحربية الخارقة" لمغامرين عدوانيين من أمثال نابليون بونابرت، وأن تجهل هذه العبقرية التي تمتعت في الوقت نفسه بابتكار استراتيجي وتكتيكي لم يسبق له مثيل، وبمستوى أخلاقي رفيع كان قادة الاحتلال والتوسع الاستعماريون بعيدين عنه بعد السماء عن الأرض، كل هذا وهو لم يتلق دراسة حربية منظمة قط بل عمل قبل ذلك قاضياً للقضاة!

عالم من عائلة علماء وحلقة في سلسلة العلماء العاملين

ولد محمد عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف؛ وهي منطقة الشريط الساحلي الشمالي للمغرب الأقصى- المملكة المغربية اليوم- و(الريف) هو سلسلة جبال تسمى بهذا الاسم وتقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الريف الشرقي، والريف الأوسط، والريف الغربي، وولد محمد في عائلة اشتهرت بالعلم، وتولى أبوه القضاء، ثم الإمارة، وكان علاوة على دوره الاجتماعي والسياسي الخطير فقيهاً مجدداً، وقد تتلمذ محمد على أبيه، فتعلم اللغة العربية وأصول الدين والتاريخ وأدب العرب، حتى لقد كان يحفظ أكثر من ستة عشر ألف بيت من الشعر العربي.

وعلّمه علاوة على ذلك الفروسية والرماية[١].

وكان أخوه عالماً كبيراً في الدين والفلك والرياضيات ومدرساً في جامعة القرويين.

محمد عبد الكريم الخطابي إذن كان حلقة في هذه السلسلة العظيمة من العلماء العاملين، التي امتدت عبر أسماء نذكر منها عز الدين القسام وعمر المختار وعبد القادر الجزائري وابن تيمية والعز بن عبد السلام، وهذه الأسماء التي ذكرناها واخترناها من عصور التراجع الحضاري قصداً، فدور العلماء في عصور الأوج الحضاري يمكن للأعمى أن يراه (وراجعوا تاريخ الأئمة وتلاميذهم إن شئتم) هي غيض من فيض وتبرهن عن سخف الزعم بأن علماء الإسلام كانوا مجرد أتباع للسلطة وأبواق لها وعون على مجتمعها. لقد كان العلماء الكبار عبر التاريخ هم المعبرون عن مجتمعهم، والناطقون النزيهون باسمه ومن هذا الدور اكتسبوا محبة الناس فأطاعوا توجيهاتهم واحترام ومهابة الدولة فكانت لا تجرؤ على الاصطدام بهم وتضطر للحد من نزوعها للاستبداد والظلم خوفاً منهم ومن نفوذهم المستحق عند العامة.

نبذة عن تاريخ الريف والمغرب قبل حرب الريف

بعد بلوغ المنحدر الحضاري عندنا ذروته سقطت الأندلس نهائياً عام ١٤٩٢ للميلاد كما هو معلوم[٢]، وترافقت مع سقوطها وسبقته هجمات

(١) محمد سلام أمزيان- (عبد الكريم الخطابي وحرب الريف)- مطبعة المدني - القاهرة -١٩٧١- ص١١.

(٢) منذ هذا التاريخ يؤرخ التاريخ الإسلامي للأسف بتاريخ أوربة الميلادي لا تاريخنا الهجري؛ لأننا نؤرخ بالتاريخ الهجري لأحداثنا التي كنا نصنعها بأيدينا إن كانت صواباً أو خطأ، أما بعد الانهيار الحضاري فالأحداث لم نعد =

لم تتوقف للإسبان والبرتغاليين، ثم البريطانيين والفرنسيين على سواحل المغرب الكبير.

سقطت (سبتة) في أيدي البرتغاليين عام ١٤١٥ م ثم انتزعها منهم الإسبان عام ١٦٨٨م، ولاتزال في أيديهم منذ ذلك الحين واحتل الإسبان (مليلية) عام ١٤٩٤م والتي لاتزال أيضاً في أيديهم هي وجزيرة (النكور) و(الجزر الجعفرية).

واستولى البرتغاليون على طنجة ثم كانت هدية زفاف إلى ملك بريطانية عام ١٦٦٠م، وعادت بريطانية وانسحبت منها بعد ذلك بربع قرن، ثم احتل الإسبان تطوان عام ١٨٦٠م، وبحسابات القوى الاستعمارية وتوازناتها قررت بريطانية "إعطاء" منطقة الريف لإسبانية، وبهذا تغاضت الأخيرة عن مطالبتها بجبل طارق الذي احتله الإنجليز عام ١٧٠٤. وبريطانية كانت تستخدم إسبانية للتوازن مع النفوذ الفرنسي، وللحيلولة دون وقوع مضيق جبل طارق تحت تهديد فرنسة إن هي استولت على الريف المتاخم لهذا المضيق. وقد قال وزير خارجية بريطانية سولسبري: "إن أي تقدم لفرنسة في المغرب يعتبر عملاً عدائياً، وإذا تحتم تقسيم المغرب فستكون شهية بريطانية مفتوحة"[1].

وأسفرت المفاوضات بين فرنسة وبريطانية عن عقد اتفاق سري بينهما عام ١٩٠٤ سمي فيما بعد "الاتفاق الودي"؛ تتنازل فيها فرنسة عن "حقوقها" في مصر، وتوافق على منح الريف لإسبانية وعلى تدويل طنجة

= نحن من يصنعها، بل غاية ما نفعله إن فعلنا أن نرد على ما صنعه غيرنا. فلا غرو أن تنسب سلسلة الأحداث إلى من وجهها وبادر بها، وهذه النقطة يطول الحديث فيها فلنكتف هنا بمجرد الإشارة.

(١) المصدر نفسه، ص١١٤. نقلاً عن: د.محمد خير فارس- "المسألة المغربية"- طبع الجامعة العربية بالقاهرة-١٩٦١-ص٨٨ وما بعدها.

مقابل تنازل بريطانية لفرنسة عن "حقوقها" في المغرب الأقصى.

كانت إسبانية آنذاك قد تقلصت إمبراطوريتها القديمة بعد فقدانها لأمريكة اللاتينية والفلبين، ورأت في الريف نوعاً من التعويض لأناسها وجيشها، ونوعاً من الثأر التاريخي من بلاد أنجبت طارق بن زياد (وأصله من الريف!).

وكان لإسبانية قاعدتان قديمتان في بلاد الريف: سبتة في الريف الغربي ومليلية في الريف الشرقي، وظلت قروناً عاجزة عن احتلال أي شبر إضافي من الريف بسبب شراسة أهله في الدفاع عنه، بل كان احتفاظها بالمدينتين كثيراً ما يتم تهديده وتحول ظروف عرضية دون استعادة أهل الريف للمدينتين.

وقعت فرنسة معاهدة الحماية مع سلطان المغرب عبد الحفيظ عام ١٩١٢، وأما إسبانية فتوجب عليها بعد أن حازت على (الشرعية) من قبل الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي عام ١٩٠٤ قوةً من (حقها) احتلال الريف أن تنفذ هذا الاحتلال عملياً، ولم يكن هذا سهلاً مع شعب محارب كشعب الريف، وللوصول إلى هذا الهدف استغلت الثغرات الاجتماعية والمطامح الأنانية لرجلين في الريف الغربي والريف الشرقي.

في الريف الشرقي سقط عميل إسبانية -وكان رجلاً مغامراً اسمه جيلالي الزرهوني سمى نفسه سلطاناً - في الحرب مع رجال الريف الأوسط بزعامة والد الخطابي الأمير عبد الكريم، ثم قاد في الريف الشرقي سيدي محمد أمزيان حرباً شعواء على الإسبان خسر الإسبان خلالها خمسين ألف جندي، وقتل لهم جنرالان هما بينتوس وفيكاريو، إلا أنه قتل بغدر أحد عملاء إسبانية. وفي الريف الغربي كان المغامر الآخر الذي تلاعبت به القوى الاستعمارية ويسمى "سلطان الجبل"، وقد تمكن الريفيون من إنهاء البؤرة التي كان يتحصن فيها عام ١٩٢٥.

وبالنتيجة وقع الريفان الغربي والشرقي تحت الاحتلال الإسباني، وبقي الريف الأوسط وحده بقيادة والد محمد -الأمير عبد الكريم الخطابي مستقلاً، وقد جربت إسبانية أن تستعمل طرق التآمر -مع الزعامات الطموحة القابلة للشراء، وطرق الدبلوماسية والمهادنة ومحاولة التقارب الودي مع الزعامات الصلبة وعلى رأس هؤلاء الأمير عبد الكريم؛ لهذا عرضت إسبانية عليه أن توظف ابنه محمداً في مليلية في شؤون الأهالي المغاربة الموجودين في هذه المدينة المحتلة منذ قرون.

عمل الأمير محمد عبد الكريم الخطابي في مليلة

وبحسب رواية صديق محمد الخطابي ورفيقه في منفاه في مصر والذي كان يكتب ما يمليه عليه من ذكريات وهو "محمد سلام أمزيان"، فإن موافقة الأمير عبد الكريم على عمل ابنه موظفاً في مليلة كان خطوة تهديئية لاستكمال استعدادات الريف لمعركة التحرير ولمراقبة الإسبان عن كثب ومراقبة عملائهم، وفوق هذا كان ذلك الفقيه المستنير ذو التوجه الإصلاحي يريد أن يحتك ابنه بالعلوم العصرية واللغات الأجنبية[١].

وهكذا تدرج في أعمال تعليمية وإدارية لم يكن القصد منها أصلاً تلقي أجر مادي، إلى أن وصل إلى منصب (قاضي القضاة) منذ عام ١٩١٤م.

وفي أثناء هذه الفترة اعتقل عام ١٩١٥. ومع ذلك لم يفقد منصب قاضي القضاة!

وفي هذه السنين اطلع عن كثب في آن واحد على وضع الأهالي وعلاقتهم مع الاحتلال الإسباني، وعلى وضع المجتمع الإسباني

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٢-١٢٣.

كما ينعكس في ذلك الجزء منه المقيم في مليلية؛ وقد كان آنذاك مجتمعاً متناقضاً مضطرباً، وقد زادت حرب الريف لاحقاً في اضطرابه الذي انتهى بالحرب الأهلية في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين، وكثير من الجنرالات الذين حاربوه لاحقاً كانوا من معارفه وتلاميذه في دروس اللغة العربية التي كان يلقيها عليهم!

وفي اعتقادي أن هذه التجربة الواسعة في وسط المجتمعين: المستعمِر (بكسر الميم الثانية) والمستعمَر (بفتح الميم الثانية) جعلته على اطلاع في آن واحد على عيوب أعداء المستقبل وعلى عيوب مجتمعه التي عليه أن يحاول إزالتها قبل البدء بمعركة التحرير.

وفي عام ١٩١٥ اعتقله الإسبان متذرعين بعمله في السياسة مما يتناقض مع منصبه الرسمي قاضيَ قضاة، وبأوراق ضبطت في بيته فيها منشورات الخليفة العثماني التي تدعو المغاربة لمحاربة الفرنسيين ورسائل من إسبان يعارضون حكومتهم، ورسائل منه هو إلى الوطنيين الريفيين، ووثائق عن نشاط عبد المالك حفيد الأمير عبد القادر الجزائري بالتنسيق مع الألمان ضد الفرنسيين، وهذه الوثائق كلها مما لا يتسامح فيه الإسبان. ولكن السبب الحقيقي للاعتقال كان الضغط على والده الذي كان مستمراً في مقاومة محاولة الإسبان بسط الحماية على الريف الأوسط، وهذا بعد أن يئسوا من إغرائه بما كان خليقاً بإغراء غيره؛ فقد عرضوا عليه أن يعينوه حاكماً عاماً للريف ونائباً للسلطان ووزيراً في حكومة تطوان، ورفض هذه العروض كلها التي رأيناها أوقعت بالكثير من (ثوار) عصرنا هذا!. وهذا الوالد أفهم الإسبان أنه يعد ابنه مجرد جندي في معركة الحرية، وأنه لن يتنازل مهما فعلوا بابنه، وإزاء هذا الموقف الصلب اضطر الإسبان لإطلاق سراح محمد الذي كاد يفقد ساقه في محاولة مخفقة للهرب من السجن الذي كان محتجزاً فيه. وأطبق الإسبان على الريف من جانبيه

الشرقي والغربي وسقط الأمير عبد الكريم، والد محمد، عام ١٩٢٠م صريعاً في المعركة مع الإسبان. لم يقتل في حرب صريحة بل دس له أحد ضعاف النفوس المرتشين السم بأمر من الإسبان، وذلك حين كان يتخذ من منزل العميل والد القاتل، وهو كبير قبيلة (تفرسيت) مقراً له، وانتهت بذلك حياة هذا العالم العامل الذي طالما نازل الفرنسيين والإسبان، وكان له تأثير كبير واحترام عند أهل بلده، سرعان ما انتقل إلى ابنه محمد الذي كان الخلف عن جدارة لهذا السلف الكبير.

انطلاق حرب التحرير من ثورة نهضوية

هاهو ذا مجتمع الريف الصغي،ر وقد أطبقت عليه القوى المعادية من كل حدب فلا بد للمجتمع والحالة هذه من أن يشعر بالخطر الداهم على وجوده- خطر ليس على وجوده الجسدي فقط باعتباره مجموعةً من الأناس الأحياء يتهددهم الفناء، بل أهم من ذلك من منظور تاريخي: إنه الخطر على كيانه المستقل بنيةً اجتماعيةً دينية حضارية لها تاريخها الخاص وآلياتها الخاصة في الحياة إلى جانب المجتمعات الأخرى. وبصورة خاصة كان الخطر يتهدد القيم التي تنبني عليها الكينونة المستقلة لهذا المجتمع. وهذا الشعور الداهم بالخطر حين يجتاح أفراد مجتمع ما يمكن أن يكون بداية مباركة لنهضة شاملة، واستيقاظاً من سبات عميق، فهو "التحدي" الذي يستثير "الاستجابة" التي تبني حضارة جديدة إذا استعملنا تعابير المؤرخ الكبير أرنولد توينبي.

ولكن هذا الشعور بالخطر لا يكفي وحده، وفي رأيي أن للنهضة أربعة شروط لا بد من تحقيقها:

أولاً: شعور المجتمع بالخطر شعوراً حقيقياً عميقاً يتغلغل في كل فرد فيه.

ثانياً: وجود طليعة فاعلة واعية ذات إرادة تعي التحدي وتكون على مستواه.

ثالثاً: وجود تصور وخطة للرد على التحدي.

رابعاً: أن يتغلغل في النفسية الاجتماعية القرارُ الإرادي الواعي بالتغيير، والتخلي عن العادات السلبية من تواكل وأنانية وكسل وتحاسد وتباغض داخلي.

وفي الحقيقة توافرت هذه الشروط الأربعة في مجتمع الريف في تلك اللحظة الحاسمة من عام ١٩٢٠ م.

وضع مجتمع الريف قبل النهضة الخطابية

ولنتحدث قليلاً عن الوضع الاجتماعي الذي جاءت هذه النهضة لتغيره:

كان مجتمع المغرب في الريف وغيره مجتمعاً منقسماً على نفسه على أسس قبلية، بل حتى القبيلة كانت تنقسم على نفسها، وقد سادت الصراعات العنيفة بين الجماعات والأفراد، وانعدم الأمن، وظهرت عادة الثأر التي تفرعت عن عادة الاجتراء على القتل بدافع الاعتقاد الغريزي شبه البدائي بأن ممارسة القوة ضد الأخوة في الوطن والبلد تعبيرعن الشجاعة والرجولة! وكانت النتيجة انحلالاً اجتماعياً، تبعه تدهور اقتصادي وصل إلى حد المجاعة، وهو بدهي في حالات فقدان الأمن، وقد قادت هذه الأوضاع المتدهورة إلى هجرة جماعات مغربية كثيرة إلى خارج المغرب، ومنها ما هاجر إلى المشرق أو إلى أقطار شمال إفريقية[١].

(١) المصدر نفسه، ص٨٣.

نقطة البدء

بعد مقتل والده بدأ محمد فوراً عمله الإصلاحي الممهد للعمل المقاوم للاحتلال والمحرر للبلد.

والحدث الذي يجدر ذكره هنا لنعلم أنه كان بعيداً كل البعد عن الأهداف الشخصية في عمله حتى ولو كان من هذه الأهداف الانتقام من قتلة أبيه هو بدؤه بالعفو عن القتلة إذ لم يقتص منهم! وأوقف نفسه لتوطيد الوحدة الاجتماعية بادئاً بتلك العادة الذميمة التي كانت تنخر الجذع الاجتماعي كالسوس: عادة الثأر.

ويلفت انتباهنا هنا ما يلفت انتباه المتابع لسيرة حياته كلها: إنه لم يكن ينظر إلى سلوكه مع مجتمعه ومع جيشه ورفاق دربه بالمنظور النفعي المبتذل الذي لا يستشرف أكثر من النتائج المباشرة للفعل. لقد كان سلوكه أساساً من النوع التربوي، ويقوم على مبدأ جوهري هو أن يكون المربي قدوة للتلاميذ، ولن يكون هذا أبداً إن لم ير التلاميذ بأم أعينهم أن المعلم هو أول من ينفذ السلوكيات التي يطالبهم بها، وأنه على درجة من النزاهة والزهد في متع الحياة الدنيا، بحيث إنه لا يمكن إلا أن يكون مقتنعاً ومؤمناً بعمق بما يقول، إذ انتفت عنه كل الأغراض الأنانية، وفي هذه الحالة فقط يكون المربي فاعلاً ونموذجاً يُقتدى به، وإننا لنرى في (ثورات) أخرى كيف أفسد القادة جنودهم، لأنهم قدموا أسوأ مثل في الجشع المادي والتهالك على لذائذ الحياة ما حل منها وما حرم! لقد كان الخطابي لا يعظ أصحابه بشيء حتى يكون قد فعله، ولا يطلب منهم الزهد حتى يبرهن لهم هو بنفسه أنه أول الزاهدين، ولا يطلب منهم الصبر والثبات في المعركة إلا وهو في الخندق الأول واقف في جفن الردى وهو نائم!

اجتمعت فيه إذن عناصر القائد المقاوم كلها: النزاهة والموهبة الاستراتيجية والتكتيكية، والقدرة على القيادة، وعلى تغيير سلوك المجتمع بالاتجاه النهضوي المطلوب، لا عبر الإكراه بل بالاقتداء بشخصية قوية مؤمنة واثقة بالله وبشعبها!

وبهذه الشخصية سلم المجتمع الريفي له مقاليد القيادة بلا منازع، وهو الذي لم يخضع لزعامة واحدة عبر تاريخه الطويل!

وحاول استمالة مشايخ الطرق الصوفية للمشاركة في الكفاح فلم يفلح، وكان كثير من هؤلاء على درجة مريعة من انحطاط الوعي، بل كان كثير منهم عوناً للاستعمار، وقام بأدوار سلبية ضد المقاومة، كما رأينا في الدور السلبي للطريقة التيجانية في الجزائر حيال الأمير عبد القادر.

وبعد أن يئس من هؤلاء المشايخ ذهب إلى الموضع الذي يجتمع فيه رجال قبائل الريف كل أسبوع، فتحدث إليهم حديثاً يرويه إلى الأستاذ محمد سلام أمزيان كما يلي: "إن وحدة الصف قوة لها وزنها في كل مجال. الوحدة الوطنية سياج للوطن، ودرع يقي المقدسات الوطنية (...) إذا كان أعداء وطننا يتحدون على الباطل فنحن أولى بهذا الاتحاد لندافع عن الحق. إذا كنا نعيش في الأوهام مستسلمين للدعة والتواكل، فإننا الآن في موقع المواجهة، شئنا أم أبينا. لا عودة إلى الماضي الشائن ولا رجوع إلى حياة الأحلام. الدين والوطن والغيرة والكرامة والحرية وكل القيم تنادينا الآن، وتدعونا إلى العمل الرجولي. وإلا فلا حياة ولا وجود. إن القادمين لا يعرفون قيمة للدين- أي دين- ولا للحرمات. إنهم جاؤوا للاستغلال والنهب والعبث والتحكم فعلينا أن نقف ضدهم ثابتين متحدين وإلا فهذه القشور من العقيدة والوطنية التي لا تزالون تحتفظون بها ستتلاشى بما جاء معهم من جديد في عالم الانحلال (...) فإذا كنتم تريدون حياة الإنسان العاقل لا حياة الحيوان الأعجم فاستعدوا وإلا فليس لكم أي عزاء".

فسألوه: وبماذا سنستعد وحالنا كما ترى؟

فأجاب: بنبذ الماضي كله أولاً، وبالعقيدة ثانياً، وبالنظام والخطة ثالثاً، وبعد ذلك يأتي النصر بإذن الله[١].

ونلاحظ في هذا التصور الأولي الذي قدمه الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي أنه في الحقيقة قدم لهم شروطاً نراها كما قلنا قبل قليل هي اللازمة للنهضة الناجحة، القادرة على تحقيق المقاومة الكفيَّةِ التي تحرر المجتمع بآن واحد من كل من "القابلية للاستعمار" والاستعمار نفسه.

فهو ذكر الحاضرين بالخطر الداهم على مجتمعهم وقيمه، وجسم هذا الخطر لهم، فرب مجتمع غافل عن الخطر المميت القريب الذي يتهدده غفلة العصفور عن الصياد الذي يصوب إليه البندقية.

ثم إنه طالبهم بقرار إرادي بتغيير أنفسهم و"نبذ الماضي كله"، وهذا القرار يمكن أن يبقى حبراً على ورق لو لم يكن يسري في المجتمع ذلك الخوف الهائل المبارك على الوجود! وسميته "مباركاً" لأنه قد يكون الهدية الإلهية التي كان المجتمع يحتاجها لينهض من سباته قبل أن يموت نائماً!

ثم إنه طرح لهم تصوره لخطة العمل: البديل وهو الوحدة الوطنية، والنهوض من النوم والبدء بالعمل، ولا يكون ذلك إلا إذا استثيرت روح المسؤولية في كل فرد، فأحس كأن حياة المجموع أو موته متوقفة على نشاطه هو بالذات! وبهذا يستأصل من جذوره داء التواكل الذي حطم مجتمعنا وجعل الفرد منا يضع المسؤولية على غيره: على الدولة أو القدر وكأن السماء يمكن أن تمطر ذهباً وفضة، وكأن العمل ليس بحد ذاته جزءاً من قدر الله!

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٩- ٩٠.

ولقد كان الشرط الرابع للنهضة الناجحة موجوداً أيضاً، ألا وهو وجود القيادة المؤهلة الواعية النزيهة، وقد كان محمد الخطابي رمز هذه القيادة، ولكنه بالتأكيد لم يكن القائد الوحيد، إذ شبه الشيء منجذب إليه، ومن دعا إلى الحق تبعه أهل الحق، وأقبلوا إليه من كل مكان تماماً كما أن الفاسد يجذب إليه الفاسدين! ولا شك أن القائد حين يسمو إلى ذرا أخلاقية رفيعة، فإن المجتمع بأسره يسمو معه، وهذا ما حصل بالفعل بما يشبه المعجزة خلال سبعة أشهر.

المجتمع الذي كان مشتهراً بالنزاعات الدامية التي لا تنتهي بين أفراده، والذي كان الشعور بانعدام الأمن يغزو كل فرد منه، وكان مبدأ الثأر الجاهلي يمزق فيه ما دعاه مالك بن نبي "شبكة العلاقات الاجتماعية" شر ممزق تحول إلى مجتمع متماسك، انتهت فيه عادة الثأر كأنها لم تكن، وهكذا صرنا نرى مثلاً في خندق واحد قائدين من قادة حرب التحرير: "محمد أحمد" و"عبد الكريم الحتاش" وقد كان والد عبد الكريم قتل والد محمد وعاد هذا وقتل القاتل، ولقد كانا فيما مضى يتحينان الفرص للفتك بعضهما ببعض، أما بعد نشوء المجتمع الجديد فقد اجتمعا في المعركة في خندق واحد (ونعني خندقاً حقيقياً لا مجازياً إذ اشتهر الريفيون بتكتيك الخنادق الذي علمهم إياه الخطابي) أخوين يحمي كل منهما الآخر ويعمل لنجاته. كان الخطابي قد نفذ المبدأ الذي قام على أساسه المجتمع الإسلامي الأول في المدينة: مبدأ المؤاخاة.

إصلاح العقيدة والعبقرية التربوية للخطابي

كان الخطابي يرى أن إصلاح العقيدة شرط في النهضة.

ولا شك أن فساد العقيدة سبب ونتيجة للوضع الاجتماعي الحضاري المنحط في آن واحد، وحين طالب الخطابي مجتمعه بنبذ الماضي فقد

كان في الحقيقة يريد منه أن ينبذ في جملة ما ينبذه من هذا الماضي المفاهيم العقدية الفاسدة التي كانت تشجع الخمول والتواكل، وترى الدين مجرد عبادات فردية لا انعكاس لها في ميدان التعامل الاجتماعي، وكما قال مؤرخه ومرافقه محمد سلام أمزيان: كان الخطابي يشرح للناس بأسلوب مبسط "أصول الدين والشريعة بأنها معاملة وأمانة ونظافة ونظام وسلوك وأخلاق ومبادئ وشجاعة وكرم وعلم وبناء وعمران ورسالة في الحياة ووحدة وإخاء وتسامح ومحبة ورحمة ووطنية" والمقاومة الوطنية للمحتلين، وأتمنى من القارئ العزيز أن يتأمل في هذه النقطة، إذ هي أساساً دفاع عن هذه القيم إذ المجتمع الحر لا يدافع عن نفسه ووجوده المادي فحسب، بل هو يدافع قبل ذلك عن قيمه الإنسانية الرفيعة[١].

وينتج من ذلك أن حرب المقاومين هي حرب أخلاقية، لا تستعمل مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" الذي يسير عليه المستعمر الذي لا تحرك حروبه أصلاً إلا المصالح الأنانية الدنيئة التي لا تأبه بأي أخلاق، ولا تمتنع عن ارتكاب أي جرائم. وإذا كانت المقاومة هي مقاومة قيم فإنها تناقض نفسها إذا اتبعت أساليب المستعمر اللاأخلاقية نفسها. ولعمري إن الإنسان ليعتصره الألم حين يرى في أيامنا هذه من لا يرى مانعاً في قتل الأبرياء من مواطني الغرب مثلاً، ولاسيما مواطني أمريكة، بدعوى أن أمريكة لا تتردد في قتل الأبرياء! وبهذا يضع هؤلاء أنفسهم في نفس الموقع اللاأخلاقي للخصم. لسنا مستعمرين ونحن نرفض أن نتبنى أخلاق الاستعمار حتى بمنطق الرد على الشر بالشر! إننا حملة بديل أخلاقي للعالم وكيف نكون بديلاً أخلاقياً إن كنا نبرر لأنفسنا استعمال الوسائل اللاأخلاقية؟.

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٠-٩٢.

وقد استطاع الخطابي أن ينشر روح النشاط في مجتمعه، فحتى النشاط الزراعي الذي كان متوقفاً بسبب انعدام الأمن وسيادة روح التواكل استطاع أن يحث شعبه على الاهتمام به مبدياً وعياً بيئياً مبكراً: "الزراعة تغنيكم عن المواد الغذائية التي تستوردونها منهم، والشجرة المثمرة تغنيكم عن فاكهتهم وزيتهم، والمحافظة على الغابات تعيد إليكم المطر ليسقي الزرع والشجر. كل من يزرع شجرة ويعتني بها يعتبر مقاتلاً شجاعاً ووطنياً غيوراً، وكل من قطع غابة يعتبر خائناً للوطن وعدواً لشعبه وأولاده"[(١)].

وباختصار إذا نظرنا بتدقيق فسنجد أن الخطابي قائدٌ كان مقتدياً بنموذج القائد الأول في الإسلام ﷺ الذي كان في آن واحد سياسياً ومربياً وقائداً حربياً، ولقد كان المجتمع الريفي في عهد "جمهورية الريف" القصير مقتدياً أيضاً بنموذج المجتمع الإسلامي الأول في المدينة.

ويصف مؤرخ الخطابي ومرافقه في المنفى وابن المجتمع الريفي الأستاذ محمد سلام أمزيان التحول الذي جرى للمجتمع قبيل البدء بالحرب الدفاعية ضد الإسبان والفرنسيين قائلاً:

"هكذا تغيرت معالم الحياة من أساسها بصورة تدعو إلى إكبار هذا الرجل المصلح. فلقد استجاب الناس للدعوة إلى دروس وعظه وإرشاده وتربيته وتثقيفه وتعليمه. سرعان ما بدت لهم ظواهر المحبة والفضيلة والسلام، وأخذوا يتبادلون الثقة والحديث في مختلف الشؤون وكأنهم أفراد أسرة مترابطة. ويسيرون في مواكب تجمع العدو بعدوه والغريم بغريمه وكأن شيئاً لم يكن بينهم أبداً. ويروحون ويغدون بسلاحهم على أكتافهم، وليس بأيديهم لاقتناص الفريسة. وإذا اجتمعوا في مكان واحد يضعون سلاحهم في ناحية مجتمعاً دون خوف لأن الأيدي التي كانت دائماً تحمل البندقية لتصويبها إلى الهدف أصبحت تتصافح باحترام متبادل

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠١.

وفي ثقة بالأخوة الاجتماعية. إنه مجتمع جديد حقاً في كل مظاهر حياته السياسية والاقتصادية، فلا لصوصية ولا نهب ولا سلب، سلام دائم، وأمن شامل، وحب كامل، ولا أنانية ولا عنصرية ولا فوضى، إنه مجتمع سليم من عوامل التحلل والانحلال والضعف والاستسلام. مجتمع يؤمن بالتعاون للصالح العام. وفيه إحساس بضخامة المسؤولية"[١].

وبهذا المجتمع دخل الخطابي حربه ضد قوى عاتية مسجلاً في الصراع ضدها انتصارات مذهلة، جعلت مؤرخي الغرب لا يذكرونها إلا مسبوقة بعبارات من نوع "ليس هذا أسطورة ولكنه حقيقة"[٢].

إعلان "جمهورية الريف" وحرب التحرير

سقط الأمير عبد الكريم والد محمد كما ذكرنا في "تفرسيت" وهو يحارب الإسبان بقيادة الجنرال سلفستري قائد الإسبان في منطقة مليلية.

وفي هذا الوقت أكمل الإسبان احتلال الريف الشرقي بقيادة سلفستري، واحتلوا معظم الريف الغربي بقيادة الجنرال برنجير، وبهذا سقط أكثر من تسعين بالمئة من الريف تحت الاحتلال، وظلت بلاد الريف الأوسط في وضع معنوي سيئ يعيث بها عملاء الإسبان فساداً، وكان سقوطها مسألة وقت.

ويلفت انتباهنا في محمد أنه ما كان بحال ينصاع للتوازن الظاهري للقوى بل كان يرى القوة الكامنة في مجتمعه إن استثيرت، وهذا ما نلاحظه بسهولة إن علمنا أنه في هذا الوضع الذي يثير اليأس في أكثر القلوب تفاؤلاً بعث إليه الجنرالان سلفستري وبرنجير يعرضان عليه العودة إلى

(١) المصدر نفسه، ص٩٢.

(٢) كما فعل فونتين في كتابه "عبد الكريم مصدر الثورات في شمال إفريقية".

منصبه، فأبلغهما أنه يقبل العودة بشرطين: الانسحاب التام من الريف، والاعتراف باستقلاله!

ولم يُضِع عبد الكريم وقته ووقت شعبه في مفاوضات خائبة تبدد الجهود، وتحطم ما تبقى من الروح المعنوية؛ بل انصرف إلى العمل الفوري فدعا إلى اجتماع كان عدد حضوره خمسة عشر رجلاً ومع هؤلاء أقام "معسكراً للتجمع الوطني" وتوافد إليه في هذا المعسكر نحو من ثلاث مئة من أعيان الريف، وهناك أقروا بعد اجتماعات متواصلة مشروعاً من ست نقاط:

١- إعلان الريف دولة مستقلة باسم الجمهورية الريفية.

٢- تشكيل حكومة دستورية.

٣- تشكيل جمعية وطنية منتخبة.

٤- تشكيل هيئة عليا تكون قيادة جماعية للتوجيه والتنظيم والدفاع.

٥- إيجاد ميثاق وطني للشعب المغربي.

٦- إعداد الشعب لتحرير المناطق المحتلة وعدم الاعتراف بمعاهدة الحماية.

أقرت هذه البنود في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠م، والذي يبدو أن إعلان "الجمهورية الريفية" لم يكن في الحقيقة خطوة انفصالية، بل كان خطوة تكتيكية تهدف إلى تحييد فرنسة بإشعارها أن المقاومة موجهة للإسبان حصراً، وتهدف أيضاً إلى عدم إحراج العرش المغربي وقد تهدف ضمناً إلى الحيلولة دون تدخل هذا العرش في الحرب، وآنذاك ما كان هذا التدخل إلا سلبياً إذا راجعنا ما كان عليه وضع الحكومة المركزية في المغرب من ضعف وتردد بعد توقيع معاهدة الحماية، ووقوع المغرب تحت الاحتلال الفرنسي الواقعي.

والذي قسم المغرب في الواقع إلى قسمين لم يكن هو الخطابي، بل كان الاستعمار الذي فعل هناك ما فعله في بقية أرجاء العالم المستعمَر، ولا سيما العالم الإسلامي والعربي على نحو أخص. فالريف سموه "الريف الإسباني" وقد وجد الخطابي نفسه إزاء وضع إقليمي هو أمر واقع، ولكن محاولة تحييد فرنسة لم تنجح، وما كان لها أن تنجح فما كان الاستعمار ليرضى أن يدحر استعمار آخر على تخومه.

على أن إعلان "جمهورية الريف" ترافق مع بناء جهاز منظم سياسياً وعسكرياً وله علاقة وطيدة بالبنية الاجتماعية للمنطقة الريفية، وعلى أساس هذه البنية التي وصفنا في الفقرة السابقة كيف استعادت عافيتها بدأ الخطابي حرب التحرير.

بعد الإعلان السابق ذي النقاط الست بستة أشهر وجهت "الهيئة العليا" الريفية إلى الإسبان إخطاراً بالانسحاب من البلاد المحتلة، وعرضاً للتفاهم في موضوع المصالح الإسبانية في الريف مع ملاحظة مرفقة قدمت للإسبان تقول: إن هذا العرض سيلغى إذا رفضته إسبانية ولن يقبل في المستقبل حتى لو عادت إسبانية فقبلته!

وبلغت هذه العروض الجنرال سلفستري فرفضها بعجرفة قائلاً: إن إسبانية لها من القوة ما يمكنها من الذهاب إلى حيث تشاء، ولقد صممت على دخول بني ورياغل (قبيلة الخطابي) وإخضاعهم. سأظل على صهوة جوادي مدة شهر حتى أسقيه من ينبوع أغادير، وأنظف حذائي في بني ورياغل عروس الريف، وهاأنا ذا ذاهب بجوادي لأشرب الشاي المنعنع في أغادير أراد محمد عبد الكريم أم لم يرد جميع عباد الكريم في العالم"!

هذا الجنرال المجرب المغرور ذهب بعد ذلك بالفعل إلى أغادير، ولكنه لم يعد، ولم يشرب الشاي؛ فقد أبيد جيشه وقتل هو في المعركة في

قرية "أنوال" التي أذهلت العالم بأسره، وبرهن فيها محمد عبد الكريم أنه من أكبر رجال الحرب في تاريخ العسكرية البشرية، فقد تمكن من استثمار كل شيء من التخطيط للمعركة والدخول فيها بفعالية بعدد رجاله القليل وعدتهم التي لا تذكر إزاء الخصم، واستغل أيضاً معرفته بنفسية الخصم ليقوده إلى سلسلة من الخطوات الخاطئة وليس غرضنا في هذه المقالة القصيرة الوصف التفصيلي لوقائع حرب الريف، ولكننا نكتفي بأن نقول: إن ملك إسبانية ألفونسو الثالث عشر حين وصلته أخبار الهزيمة الفادحة التي أسفرت عن خمسة وعشرين ألف قتيل إسباني وألفي مفقود وتسع مئة أسير قال: لقد سقط عرشي! وبالفعل لقد سقط بعد قليل.

أما السياسي البريطاني الشهير لويد جورج فقال: "في أنوال سقط الاستعمار الأوروبي"

منذ البداية وإلى النهاية لم يكن الخطابي رجلاً عنصرياً، أو ينظر إلى العدو نظرته إلى بهائم لا تستحق الحياة كما كانت نظرة الاستعمار إلى الشعوب التي احتل بلادها فقد كان بكل صدق يأسف للشباب الإسباني الذي قادته حكومته إلى الذبح في الحرب الاستعمارية، ولقد سجلت معاملة الخطابي لأسراه من جنرالات الأعداء وجنودهم آيات من الإنسانية، تعيدنا إلى إنسانية صلاح الدين مع أسرى الصليبيين وما كان الخطابي ليسمح بالإجهاز على جريح، رغم أن خصومه ما كانوا ليتورعون عن الغدر بالرسل الذين كان يرسلهم إليهم.

وبعد هذه الهزيمة سادت الاضطرابات في إسبانية وتساقطت الحكومات وزادت المطالبات في صفوف الشعب الإسباني بالانسحاب من الريف، وفي عام ١٩٢٣م قام المارشال بريمودي ريفيرا بانقلاب عسكري أعلنت على أثره الأحكام العرفية وألغيت الحريات العامة، وتحول النظام إلى نظام ديكتاتوري عسكري. وجاء الديكتاتور بنفسه إلى

الريف محاولاً في البداية أن يتفاوض مع الأمير الخطابي، ولكن الضباط عارضوه فاضطر إلى أن يقود الجيش بنفسه في معركة دامت مئة وعشرين يوماً مع الأمير محمد، وانتهت بهزيمة مدوية فاقت سابقتها وسقط فيها خمسون ألف جندي إسباني، وكتبت جريدة الماتان الفرنسية نقلاً عن مراسلها الميداني: جثث الإسبان بعشرات الألوف.

هكذا وفي نهاية عام ١٩٢٤م كانت إسبانية قد أخلت الريف وكان الخطابي قد نال إعجاب العالم، ولاسيما في بريطانية وأمريكة وصرح الديكتاتور الإسباني في ذلك الوقت للجنرال الفرنسي دوشمبرا: "إن القضية الريفية تكلفنا أكثر مما في وسعنا وطاقتنا. وقد انسحبنا الآن إلى الساحل بالقرب من سبتة. أما الريف فلن تطأه أقدامنا".

اعتباراً من هذه النقطة لم يعد بإمكان فرنسة السكوت وقد كانت منذ معركة أنوال عام ١٩٢١م قد بدأت تحاول من جهة إقناع الأمير الخطابي أنها على الحياد ومن جهة أخرى الاتصال مع زعماء القبائل المحيطة بالريف ليسهلوا تحركات القوات الفرنسية على الحدود، وأخيراً كان الفرنسيون يتصلون بشيوخ الطرق الصوفية لكي يوزعوا المنشورات التي تحاول تضليل البسطاء وإبعادهم عن الخطابي وإقناعهم أن الدين يأمرهم بترك القتال في صفوفه.

وأخيراً أرسل المارشال ليوطي قائد قوات فرنسة في المغرب لحكومته يحذرها من محمد عبد الكريم الخطابي "إن الريف أصبح لأول مرة تحت قيادة زعيم واحد هو عبد الكريم، وأخشى أن يصبح أمير الريف بطل الاستقلال، بل إن صوره في كل مكان بشمال إفريقية وآسية الصغرى. إن الريفيين يستعدون علناً لفرض التغيير دون إرادتنا فهم يشقون الطرق ويمدون خطوط التليفون ويقيمون مواقع للمدافع الميكانيكية وإذا لم نعزز قواتنا فإن وجودنا في كفة القدر" .

وفي عام ١٩٢٣م زار وفد من "جمهورية الريف" باريس ولكنه، وهو هناك تلقى نبأ قيام القوات الفرنسية بالتوغل في منطقة ورغة، وحين سأل المسؤولين الفرنسيين عن هذا الموضوع قالوا له: إن هذه الأمور من اختصاص المارشال ليوطي.

وهكذا وبعد أن كاد الوجود الإسباني يمحى نهائياً من منطقة الريف وجد الخطابي نفسه مضطراً لفتح جبهة جديدة مع فرنسة.

واستعانت فرنسة في حربها مع طلاب الحرية هؤلاء بكل ما لديها من جيوش وأسلحة ومرتزقة وبنى اجتماعية متهالكة جاهزة لخدمتها في المغرب، ومع كل هذا هزم الفرنسيون في معارك متوالية واستطاع الريفيون احتلال مواقع يكاد يكون احتلالها مستحيلاً من الناحية العسكرية مثل موقع قمة تاونات وهو موقع مرتفع كان علم الفرنسيين العسكري يقول لهم إنه لا يمكن أن يهاجم إلا من منطقة السهل فتسلق إليه الريفيون من الجبل! ثم وقعت معركة كبرى ١٩٢٥ م احتل فيها الريفيون موقع البيبان الاستراتيجي واحتلال هذا الموقع الذي استعمل فيه الفرنسيون كل أسلحتهم من قوات ومدافع وطائرات وقوات احتياط جلبت على عجل من الجزائر كان معجزة عسكرية أخرى من معجزات أهل الريف.

وبمدة وجيزة سقط سبعون من المعسكرات والحاميات الفرنسية في أيدي الريفيين، وترك المارشال ليوطي كما قال الأمير في مقابلة له لاحقة مع الأستاذ أمزيان أسلحته وذخائره في الميدان، كما فعل الإسبان من قبل، ومن الطريف والجديد ربما أن نعرف أن هوشي مينه في فيتنام طبق لاحقاً ضد الاستعمار الفرنسي خططاً ابتكرها الريفيون، منها مثلاً طرق مبتكرة في التموين والإمداد يتم فيها الاستغناء عن الإمداد المنظم للجيش.

وقرر ليوطي بعد هزائمه المذلة أن يهادن الخطابي لبعض الوقت، وفي أثناء ذلك تكون حكومته كما اقترح عليها قد عقدت اتفاقاً مع إسبانية

للقيام بهجوم مشترك على الريف. كانت الخسائر الفادحة في صفوف الفرنسيين تسبب الاضطراب للحكومة الفرنسية التي كانت تحاول إخفاء وضع الجيش السيء في الحرب عن الرأي العام الفرنسي، وفي الشهر الخامس من عام ١٩٢٥م عينت الحكومة الجنرال دوغان قائداً عاماً للعمليات عازلة بهذا المارشال المتعجرف ليوطي، ثم عزل دوغان بدوره بعد ٤٥ يوماً من تعيينه، وعين بدلاً منه الجنرال نولان.

واستعمل الفرنسيون في حربهم ضد الريف سياسة الإبادة الجماعية لكل ريفي أكان محارباً أم لا، وقد فضح النواب المعارضون في الجمعية الوطنية الفرنسية الأوامر التي كانت تطلب من الجنود الفرنسيين إطلاق النار على كل منتم "للمناطق المتمردة". على أن الوحشية لم تجد نفعاً.

وهكذا ساد فرنسة التشاؤم من نتيجة الحرب، وزادت المعارضة لها وسقطت الحكومة، وأسندت الحكومة الجديدة إلى بانليفيه الذي تولى رئاسة الوزارة والحربية، ثم ذهب بنفسه إلى ساحة القتال في حزيران (يونيو) ١٩٢٥م واجتمع بالقادة وحين عاد إلى باريس أعلن أن رجال الريف يتقدمون إلى فاس، وكان المارشال ليوطي يتولى القيادة في فاس، فنقل قيادته إلى مكناس، وبدأ يوزع الأموال على شيوخ الطرق والزعماء المحليين لعرقلة نفوذ الجمهورية الريفية من داخل المجتمع المغربي، ولكن إزاء الخسائر المتوالية أبعدت فرنسة المارشال ليوطي عن المغرب، ورمت بسهمها الأخير ألا وهو بطلها الوطني الذي أبلى البلاء الحسن في الحرب العالمية الأولى: وهو المارشال بيتان.

ثم سقطت حكومة بانليفيه، وذهب رئيس الوزراء الجديد بريان إلى مجلس النواب ليطمئن الرأي العام الفرنسي بطريقة عنصرية مخزية تستحق التأمل، لقد قال في بيانه: "إن فرنسة لا تخسر رجالاً في هذه الحرب فالجنود المغاربة هم الذين يقومون بهذه العمليات! إن قوات فرنسة في

الميدان تبلغ أربعة وعشرين ألف جندي وليس بينهم سوى أربعة عشر ألف فرنسي وعشرة آلاف من أجناس أوروبية أخرى. أما الجنود المغاربة وشمال إفريقية والمستعمرات الفرنسية فيبلغون مئتي ألف مقاتل".

كان المثال الريفي يهدد الاستعمار ليس في مكانه فقط، بل في كل العالم المستعمر، ولاسيما في العالم الإسلامي. وفي كتابه (ليوطي المغربي) ينقل الجنرال كاترو هذا القول لليوطي في أحد تقاريره للحكومة "إن العالم الإسلامي كله يرقب الحرب الدائرة الآن في الريف بكل اهتمام. إن هذه الثورة المعلنة في الريف تهدد نفوذ كل الدول الأوروبية ذات المصالح الاستعمارية في البلاد الإسلامية. تهدد فرنسة في شمال إفريقية وغربها وتهدد بريطانية في ممتلكاتها الإسلامية وفي الهند".

والدوائر البريطانية كانت طبعاً تتابع الحرب عن كثب، وكان المستعمرون يتحدون إذا كان الخطر يهدد المبدأ الاستعماري ذاته، وقد وقع في الشهرين السادس والسابع اتفاقان بين فرنسة وإسبانية تتعهدان فيه بالتعاون ضد الريف، وبالتنسيق مع الأسطول البريطاني.

وجهزت فرنسة وإسبانية حملة هائلة على أغادير مسقط رأس الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، وكانت بقيادة الجنرال الإسباني سان خورخو والأميرال هوير الفرنسي تحت إشراف المارشال دريمودي ريفيرا، وتألفت من مئة وخمسين قطعة حربية بحرية منها ثلاث حاملات طائرات، وبعد مئة وعشرين يوماً من الحملة صمد الريفيون ولم يستطع الغزاة احتلال شبر واحد، وكاد سان خورخو ينسحب ثم أمر بريمودي ريفيرا السلاح الجوي بضرب بني ورياغل بالغازات السامة، وفي ظل هذه المعركة الإجرامية زار الصحفي الأمريكي فانسنت شين الأمير وكتب يقول: "وصلت وسط عجيج مروع من الغارات الجوية التي تقوم بها طائرات تحلق باستمرار في سماء المعركة ودخلت على محمد عبد

الكريم في خندق بالخط الأمامي وسألته عن الموقف فقال بسرعة: لا جدوى من الحديث في شروط الصلح حتى يعترف بريمودي ريفيرا وغيره باستقلالنا. إن روعة شجاعته لا حد لها. إن تشبعه بأفكاره وإيمانه بعقيدته لم يتغير على الرغم من الأخطار المحدقة به إن هالات السمو والجلال والعظمة تحيط به وتزداد عظمته مع ظروف الرعب (...) إنني رأيته هذه المرة عملاقاً أكثر مما رأيته في مكتبه قبل سنة، إنه عملاق في بطولته، حتى بدا أمامي كل ساسة أوربة الذين يصارعهم على عكسه. بدوا أمامي مجموعات من الساسة المشتغلين بالتوافه كأنهم هم أنفسهم مجموعة من لعب الأطفال يلهو بها هذا العملاق. ليتني كنت أستطيع البقاء معه مدة أطول هنا لأزداد تأملاً وتفكيراً، ولأتعمق في دراسة هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي أمامي."

ويصف هذا الصحفي كيف كان محمد عبد الكريم يقف في أثناء الحديث ويصوب بندقيته على الطائرات غير آبه بخطر الموت المحقق.

ما القوى التي قاتلت محمد عبد الكريم وما كانت قواته هو؟ هذا ما تذكره المصادر الرسمية الفرنسية:

كان لدى عبد الكريم عشرون ألف مسلح، وكان عند الفرنسيين اثنان وثلاثون فيلقاً، وأربعة وأربعون سرباً من الطائرات، وثلاثون مارشالاً على رأسهم المارشال بيتان، وأربع مئة ألف مرتزق، ومئتان وخمسون ألف مقاتل إسباني، وأربعون سرباً من الطائرات الإسبانية، وخمسة وعشرون جنرالاً على رأسهم المارشال بريمودي ريفيرا (هذه الإحصائيات منقولة عن مداولات الجمعية الوطنية الفرنسية التي نشرت في الجريدة الرسمية الفرنسية في ٢-٦-١٩٥٦م وذكرت هذه الإحصائيات بمناسبة النقاشات عن حجم القوات التي يجب حشدها ضد ثورة الجزائر).

وبرغم كل هذه الجيوش التي ربما كانت كافية لاحتلال قارة بكاملها؛

فإن محمد عبد الكريم ما هزمت إرادة القتال عندها ولكنه جنوده قتل وجرح أغلبهم، وهنا تدخلت (القابلية للاستعمار) لإنهاء جمهورية الريف؛ فلقد عمل مشايخ الصوفية على نصرة فرنسة، وبالذات الشيخ التيجاني، وساندت عناصر المجتمع المتحلل الذي أحاط بالريف القوات الغازية إن لم يكن بالقتال المنظم فبالهجوم للنهب والسلب، وهكذا بقي مع الأمير أخيراً متنا مقاتل، وطوقته فرقة كاملة من الإسبان والفرنسيين، فقاد ضدهم معركة في الشوارع بالسلاح الأبيض، ثم بعثت القيادة الفرنسية إلى البيت الذي هو فيه بوفد طلب منه التسليم بشروط هي الأمان لرجاله وأهلهم وعدم إبعاده إلى خارج الوطن. وقد عرض الخطابي على من تبقى من رجاله القيام بحرب عصابات، فرأوا أن الوضع غير مناسب لها، وهكذا ذهب الخطابي مع عشرين من رجاله على الجياد إلى مقر القيادة الفرنسية في ترجيست يوم الجمعة في ٢٦ مايو ١٩٢٦م فاستقبله الجنرال إيبوس وأركان حربه قائلاً له: باسم القائد العام للقوات الفرنسية المارشال بيتان أرفع يدي بالتحية العسكرية للرجل الذي حاربنا بشرف وأوقف الحرب بشرف.

مسألة ازدواجية المقاومة والنهضة في مثال الخطابي

كان المجتمع التابع الذي ابتلي بالاستعمار يواجه ضرورتين في آن واحد: النهضة الحضارية، والتحرر من السيطرة الاستعمارية. إنها المهمة المزدوجة: المقاومة والنهضة. ولو عدنا إلى تعبيرات المفكر جار الخطابي ومعاصره "مالك بن نبي" لقلنا: إن المجتمع يواجه مهمتين: إنهاء (القابلية للاستعمار)، و(إنهاء الاستعمار).

وكان بن نبي يكرر القول: إن القابلية للاستعمار قد توجد في المجتمع ولو لم يكن هناك استعمار. ومن جهة أخرى فقد يحتل مجتمع

ما احتلالاً مؤقتاً، ولكنه لا يكون قابلاً للاستعمار، كما جرى لليابان وألمانية بعد الحرب العالمية الثانية.

و (القابلية للاستعمار) هو اسم يصف عنده نتيجة من نتائج التدهور الحضاري، وقد اختار هذا الوصف لأن الاستعمار كان أسوأ ما جرى للمجتمع المنحط حضارياً.إنه مجتمع تفكك وفقد الفاعلية، وتمزقت "شبكة علاقاته الاجتماعية" وساده الكسل والخمول والتواكل والأنانية وكل العيوب التي تطيل مرض التبعية وتعوق الشفاء منه.

ومالك بن نبي كان يعرف طبعاً الخطابي معرفة جيدة، بل هو يذكر في مذكراته (مذكرات شاهد للقرن) كيف كان حديث حرب الريف يملأ الجزائر: "فالريفيون كانوا أسوداً يكافحون وحشاً يفترسنا جميعاً وبطولة الريفيين كانت تثأر لشعب لا يستطيع الثأر لنفسه" وكيف فكر حين كان طالباً في قسنطينة في أثناء حرب الريف مع طلاب آخرين في الالتحاق بالأمير[1] ولو أنني أستغرب كيف لم يفكر في دراسة تجربته النهضوية؛ وتكاد تكون كما رأينا تطبيقاً عملياً لمفاهيمه هو عن طبيعة النهضة التي تنطلق من النهضة المبنية على فكرة فاعلة محركة من طبيعة دينية تسري في المجتمع، فتبدأ فيه دورة حضارية جديدة تقضي على "القابلية للاستعمار" أولاً ثم تنتهي بالقضاء على الاحتلال الاستعماري نفسه بعد ذلك.

كان بن نبي قد وصف نضال المجتمع الجزائري تحت قيادة الأمير عبد القادر بأنه كان نضال أبطال يريدون الخلود لا البقاء!:

"إنهم كانوا يقاتلون من أجل الخلود لا من أجل البقاء".."فعندما برق في أفقنا فرس الأمير عبد القادر في وثبته الرائعة كان الليل قد انتصف منذ

---

(١) مالك بن نبي - مشكلات الحضارة - "مذكرات شاهد للقرن" - بإشراف ندوة مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق - ط٢- ١٩٨٤- ص ١٢٦-١٢٨.

وقت طويل ثم اختفى سريعاً شبح البطل الأسطوري كأنه حلم طواه النوم»[١].

هذا الوصف الحزين لنضال بلا أمل، وإن كان بطولياً، هل ينطبق على نضال الخطابي ومجتمع الريف؟

لقد رأينا أن هذا المجتمع الريفي الذي قاوم مقاومة الجبابرة لم يكن يستطيع إنجاز مهمة المقاومة المؤهلة القادرة مبدئياً على الانتصار لولا النهضة الإصلاحية العظيمة التي قادها الخطابي.

على أن المقاومة نفسها قد تكون منطلقاً لتغييرات اجتماعية نهضوية ترافقها وتعمق التغييرات النهضوية التي كان المجتمع بصددها؛ فهي تشحذ الهمم وتخرج الإمكانات المكبوتة للتغيير، وتساعد في قهر عوامل الكسل والقصور الذاتي، وتخرج من الأعماق الدوافع المثالية للتضحية بالمصالح الخاصة والأنانية، وكل هذا نجده في فلسطين المنتفضة، ومن المؤسف أن قليلاً من الدراسات عن الانتفاضتين الأولى والثانية في فلسطين قد ركزت على التغيير الاجتماعي الهائل الذي جلبته المقاومة الاجتماعية الشاملة للاحتلال. واتفاق أوسلو كان من أهدافه أصلاً إعادة إدخال عناصر الانحلال والفساد إلى مجتمع كانت الانتفاضة قد نظفته، وأوشكت على تطهيره وبناء أعمدته الاجتماعية وهيكله السياسي على أسس سليمة نقية صحية.

كان الريفيون يقاتلون (للبقاء) وللتحرر لا (للخلود) فحسب. أي ليس كمجرد تعبير بطولي يائس عن الصمود حتى النهاية. ولقد كان مشروع

---

(١) مالك بن نبي - مشكلات الحضارة - "شروط النهضة" - إصدار ندوة مالك بن نبي- ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين- دار الفكر بدمشق - ١٩٧٠م- ص٢٠.

محمد عبد الكريم للتحرر مشروعاً واقعياً ناجحاً، لولا صغر مجتمعه وعيوب المجتمع الأكبر الذي أحاط به.

وإن كان من عبرة قيمة نستقيها؛ فهي أن المقاومة مهددة دوماً بأن تقضي عليها قوى الاستعمار المتفوقة إن لم تترافق مع نهضة حضارية شاملة في الوطن الكبير، تتعدى الحدود الإقليمية الضيقة، وتستطيع أن تهب للنجدة التي تقلب موازين القوى، وإلا استفرد الاستعمار بها إن كان المحيط خاملاً مستسلماً للسبات الحضاري.

مستخلص

يقدّم هذا الكتاب مجموعة من المحطات التاريخية الحضارية المجهضة بفعل الظروف التي أحاطت بكل واحدة منها، يهدف من وراء ذلك إلى بسط هذه التجارب بكل ما اكتنفها من آمال وأحاط بها من إحباطات لاستخلاص الدروس التي تجنب الإحباط والإجهاض للمستقبل.

جعل المؤلف كتابه في خمس محطات، كل محطة يمثلها عَلَمٌ بارز من أعلام هذه الأمة المعاصرين؛ المحطة الأولى: مرحلة ما قبل الغزو الأوربي، وهي مرحلة النزاع ما بين العثمانيين والمماليك، ويمثلها السيد عمر مكرم، الذي حاول إذكاء الفاعلية الجماعية، ولكنه أخفق. المحطة الثانية: مرحلة الاحتلال الأجنبي، ويمثّلها عبد الله النديم، الذي حاول جاهداً أن يعيد العلاقة العضوية العميقة بين المثقف وثقافة شعبه.. فأُحبط مشروعه. المحطة الثالثة: مرحلة النضال ضد الاحتلال، ويمثلها مصطفى كامل، ومحمد فريد، اللذان حاولا جاهدين تمتين العلاقة بين المستوى السياسي والمستويات الأخرى في المجتمع، فما نجحت جهودهما. المحطة الرابعة: وهي المرحلة التي كانت تبشر ببعث حركة اجتماعية نهضوية، ويمثّلها حسن البنا. إلا أنها أخفقت وانحرفت نحو الإفراط في التسييس. المحطة الخامسة: ترصد النضال في مكان آخر من أرض العروبة، أرض المغرب الأقصى، ومثلها المجاهد الأمير عبد الكريم الخطابي الذي حاول الدمج بين مقاومة الاستعمار والنهوض بالعلاقات الاجتماعية الداخلية.. ولكنه سقط في ساح الشرف شهيداً بفعل استفراد قوى الشر به.

خلص المؤلف من الوقوف أمام هذه المحطات إلى أن المقاومة لن تفلح إلا إذا ارتكزت على نهضة حضارية شاملة، تتعدى القطرية إلى الوطن العربي الكبير، الذي يهبُّ للنصرة، ويحول دون استفراد قوى الشر بالمقاومة والمقاومين.

Abstract

This book introduces a collection of historical civilizational stages, which were aborted by the effect of the circumstances that surrounded each so as to present the experience of each with all the hopes and disappointments that accompanied them in order to derive lessons that might safeguard from disappointment and abortion in the future.

The book is divided into five stages. One of the contemporary prominent notables of this nation represents each stage. *The first* is the stage which preceded the European invasion. It was the stage of the dispute between the Ottomans and the Memlukes represented by Mr. Umar Mukarram, who attempted to enrich the social efficiency, but he failed. *The second* is the stage of the foreigners' occupation represented by Abdullah Nadeem, who tried hard to restore the deep organic relation between the educated individuals and the culture of their people, but his project collapsed. *The third* was the stage of the strife against the occupation represented by Mustafa Kamel and Muhammad Fareed, who did their best to strengthen the relation between the political criterion and the other criteria in the society. Their efforts also did not pass. *The fourth* was the one which gave the good tidings of the emission of a reviving social movement represented by Hasan Al-Banna. However, it failed and deviated towards exaggeration in politicizing. *The fifth* observes strife in another Arabian region. It was the land of the Furthest Arab West, represented by Abdul Kareem al-Khattabi, who attempted to merge resisting the colonizer with reviving the internal social relations, but he fell as martyr in the square of honor as a result of the singlehanded planning of the evil powers against him.

Consequently, the author concludes that resistance does not succeed unless it is based on a comprehensive civilizational renaissance which exceeds the single country to the Great Arab Homeland, which rises to offer patronage and prevent the evil powers from working singlehandedly against the resistance and those who resist.